مارسيل بروست

المسرّات والأيّام

قصص وأشعار



ترجمها عن الفرنسية

جمال شحيّد

مشروع «كلمة»

كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

مارسيل بروست

المسرّات والأيّام

قصص وأشعار

ترجمها عن الفرنسيّة

جمال شحيّد

مراجعة

كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة

PQ2631.R63 P2014 512
Proust, Marcel, 1871-1922
[Les Plaisirs et les jours]
المسرّات والأيّام: قصص وأشعار/ تأليف مارسيل بروست؛ ترجمة جمال شحيّد؛ مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 285 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Les Plaisirs et les jours
تدمك: 7-313-17-9948-978
1- كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ- شحيد، جمال. ب- جهاد، كاظم.

لوحة الغلاف: «النّزهة أو صاحبة المظلّة» لكلود مونيه (1875)
En couverture: Claude Monet, *La Promenade ou La Femme à l'Ombrelle* (1875)

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Marcel Proust , *Les Plaisirs et les Jours*

كلمة KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

المسرّات والأيّام

قصص وأشعار

المحتوى

ديباجة

يصدر هذا الكتاب في سلسلة تهدف إلى سدّ ما يعتور معرفة القارئ العربيّ بالأدب الفرنسيّ الحديث من نواقص أو ثغرات. نعود فيها إلى ما لم يُترجَم إلى العربيّة من قبلُ من أعمال رائدة في أدب الحداثة، ونتمّم مخزون لغة الضادّ من ترجمات لبعض أساطين الأدب الفرنسيّ ممّن لا يعرفهم القرّاء إلاّ عبر نصوص معدودة. ولا يندرج كتاب بروست هذا فيها بباعث من فترة تأليفه أو لمعان اسم مؤلّفه، بل عن استحقاق حقيقيّ. معروف أنّ بروست كان ينتابه إزاء هذه المجموعة من نصوصه الأولى نوع من تأرجح المشاعر أطنب شرّاح عمله في وصفه، ونجد عليه آثاراً عديدة في رسائله هو نفسه، وتُعرّج عليه مقدّمة مترجم الكتاب. تارةً كان بروست يلتفت إلى ما في نصوصه هذه من هنات، وطوراً يتحسّر على تلقائيّة في الكتابة يعتقد أنّه لم يعد يملكها في فترة نضجه، وهو ينسى بذلك، أو يتناسى، أنّه ضحّى بتلك التلقائية لاجتراح نثرٍ دقيق وثريّ ومعقّد يشكّل إحدى السّمات اللافتة في سباعيّته الروائيّة «البحث عن الزمن المفقود»، وفي الأوان ذاته أحد أكبر إنجازات الأدب الحديث. بيد أنّ هذا التأرجح الذي يبديه المؤلّف أمام عمله الشبابيّ لم يمنع قرّاءه اللّاحقين ممّن اجتذبهم سِحر سباعيّته وأحبّوها من أن يروا في نصوصه الصغيرة هذه اكتمالاً يجعلها تمثّل لا تباشير العمل الكبير فحسب بل ولادته الأولى وعتبته الواسعة، وتمهيداً لقراءته كبير الفائدة من حيث معالجة اللّغة مثلما من حيث الإفصاح عن أعمق هموم الكاتب.

كلّ شيء ممّا يصنع عظمة بروست، أي حدوسه الكبرى وضربات يراعه البارعة، حاضر هنا لا في صياغة أولى يشوبها شيء من التلعثم، بل في شكل أوّل شديد الإيحاء، لافت في بكورة نضجه. من حتميّة الجرح لدى المبدع، ومعترك الإرادة باعتبارها محرّك المشاريع الكبرى ومدماك كلّ ما يدوم، إلى جدليّة المشاركة والعزلة، فالفنّ منظوراً إليه باعتباره السلوان الأوحد والصيغة الخيميائيّة الوحيدة التي تتيح استعادة الزمن وتتويج حياةٍ يتوّهم صاحبها أنّه خسرها خسارةً لا معْدل عنها، فإمكان إعادة ابتكار حياة مَن رحلوا دون أن نفهمهم أثناء حياتهم حقّ الفهم، مدركين ما كانوا يشعّون به من فهم وتعاطف. الأهواء أيضاً، وارتباطها بالندم وتبكيت الضمير، وكلّ هوىً يظلّ آثماً في النهاية ما دام يعجز عن أن ينتشل من الموت أو من براثن الألم أمّاً ترتفع إلى مصاف المثال في التضحية والحدب، أو حبيبة آسرة جمالاً وذكاءً، أو صديقاً موهوباً يتمرّغ كسيراً في حطام مجده المعاق. ثمّ إنّ هناك الأشياء، من طبيعة حيّة وجماد، بما هي حوامل أبديّة للذكرى، وأوعية سحريّة للشعور، ومؤشّر أليم على الزمن الفارّ، ورحم للزمن الآخر، زمن الوعي المستعاد في الفنّ وديمومة الفكر وحياة الأحاسيس. ثمّ هذه الحقيقة الصادمة، ازدواج الكائن الممضّ وتقلّبه المؤسي بين الألق والبؤس، رغبته في الإبهار من جهة، ومن جهة ثانية احتواؤه لجرح غائر يلذّ له أن يعود إليه من زمنٍ لآخر باعتباره كنزه الأغلى وحقيقته الأكثر حقيقيّة. هذه الزيارات الجوّانيّة ومحجّات الروح هذه أو أسفارها الداخلية الدائمة التي برع بروست أيّما براعة في تحويلها إلى مراس فنّيّ وطقوسيّة باذخة، تكاد تجابهنا هنا في كلّ نصّ، متواترة وجديدة كلّ مرّة، تنطق بجرح كلّ كائن وتكشف عن مدى قدرته على سبر أغوار نفسه ومجابهته للآخر الحميم الثاوي في داخله.

عوالم الصالونات البرجوازيّة والارستقراطية ومجالسها، التي ارتادها بروست شاباً وجعل منها أحد أهمّ أجواء عمله الإبداعيّ الكبير، حاضرة هنا هي أيضاً، أو هي خصوصاً. عوالم وصفها بروست في كتابه هذا وأرانا ما يكتنف سكّانها من رغبات في الظهور والإثارة، وما يصاحب سلوكهم من تحذلق ونفاجة، وأحياناً من إرادة انتصار، ومن صراعاتٍ بين عزّة النفس ورغبة في نيل رضى الآخر مهما كان الثمن. وصفَ أيضاً ما ترتطم به هذه الكائنات ذات لحظة أو أخرى من عمل رهيب للخيبة وانقشاع الوهم وبروز التجلّيات الكبرى الراعبة، هذا إن لم يجعلها مرض عضال تقيم أدنى من ذاتها، أو يوقفها موت مفاجئ وهي في خضمّ مسارها المحتدم. شاء تعدّد لسانيّ خصيب أن تطلق الفرنسيّة تسمية «العالَم» le monde، العالم وكفى، على عالَم الصالونات والمجالس هذا، وعلى سكّانه من «علية القوم»، ما يدعوه المترجم «المجتمع المخمليّ». أفلا يمكن الإفادة من هذا اللّبس الفعّال للمفردة الفرنسيّة، التي تسمّي، حسب السياق، العالَم بعامّة، وهذا العالَم الصغير على نحو مخصوص، والاستنارة بطبيعة ما يصفه بروست نفسه، لنرى في عالم البرجوازيّين والارستقراطيّين هذا كناية عن العالَم كلّه، بمجرّد أن يجعل المرء من إبهاره والالتماع فيه هدف محاولاته العاثرة مراراً والمستأنفة تكراراً؟ أوَ ليس كلّ ظهورٍ يخدع، وكلّ إرادة انتصارٍ إن هي إلّا رهان على خسرانٍ قادم؟ ألسنا هنا أمام تجسيد جديد لأسطورة المغارة، الأفلاطونية، حيث الظواهر الحسيّة وبوارق العالَم ما هي إلاّ وهمٌ سافِر إن لم يصحّحه صنيعٌ للروح حقيقيّ؟ على شاكلته، منذ هذه الصفحات الأولى، يساهم بروست الشابّ في تعرية وهم كبير.

تَشكّل هذه المجموعة أيضاً شهادة ساطعة على حيويّة الشباب. أغلب

نصوصها ظهر أوّلاً في مجلّات عابرة، محدودة التوزيع، كان بروست أحد أنشط محرّريها. هو يومذاك عضو في مجموعة من الأدباء أو الطامحين إلى أن يكونوا كتّاباً، من بين رفاقه في سنوات التلمذة (انظر الإهداءات)؛ وفي ما وراء مشاغل الفتى عاشق الاستعراضات الاجتماعيّة تراه يعرب عن وفاءٍ حاسم لوجهه الحقّ. يقوم بقراءات كبرى ويعْقد صداقات مع أقرانه ومع الكبار (أناتول فرانس مثلاً)، ويبدي ولعاً بالتاريخ وبنصوص الأخلاقيّين الفرنسيّين، ويمارس ببراعةٍ الكتابة على منوال الآخرين، ما يدعوه العرب بالمعارضة، كتابة يقف نصّه عن بوفار وبيكوشيه، بطلَي فلوبير المعروفَين، في هذا الكتاب مثالاً رفيعاً عليها، يقوِّل فيه بروست هذين البطلين أفكاراً آتية من عالمه، يحمّلها سخريته الخاصّة ونظرته الشخصيّة إلى ثقافة مجتمع الصالونات.

وهناك خصوصاً هذا الشغف الرفيع بالفنون، التصوير والموسيقى تحديداً. وضع بروست شغفه هذا موضع التطبيق في الطبعة الأولى لكتابه، التي تجعل من **المسرّات والأيّام** أحد النماذج الرائدة للكتاب الحديث المتعدّد الوجوه والأشكال. أنموذج لا تقدّم عنه الطبعات التالية للأسف إلاّ صورة فقيرة، إذ لا نجد بين أيدينا سوى نصوص بروست، هو الذي شاء لها ألّا تكون سوى طرفٍ من ثالوث يجمع إلى الكتابة الفنَّ التشكيليّ، عبر الرسوم التي خصّتها بها مادلين لومير، والموسيقى، عبر تنويطات ألحانٍ لصديقه رينالدو هان، تخلّلت هي أيضاً صفحات الكتاب.

يأتينا هذا العمل أخيراً في كتابة مقطعيّة، كتابة شذرات وشظايا، تنتظمها وحدة لا تكاد تكون سريّة، وإلهام متعدّد وواحد. في كلّ شذرة يمسك بروست الشابّ بقطعة أساسيّة من تكوينه الشعوريّ والفكريّ يهمّه أن يأسرها في شباك لغته بأسرع ما يمكن. لاحقاً، ستتّضح له جميع

تشعّبات كيانه وفكره، ويرتسم أمامه الكلّ المعقّد ذاك بصورة صاعقة تمثّلت عجيبته الفنيّة في تحويلها إلى هدير متواصل. من عرفَ سباعيّة «البحث عن الزمن المفقود» أمكنه ههنا الرجوع صُعُداً ليقف على ولادة الأثر، حيث يبهره، من الآن، ألق الأسلوب ونصاعة العبارة مهما طالت، وكثافة التناول والعمق التراجيديّ للمشاعر والأفكار. ومن لم يعرف السباعيّة بعدُ كان له أن يهتدي بهذه النصوص الصغيرة التي تشكّل لا فحسب بشائر العمل الكبير أو طلائعه، بل دليلاً مؤتمناً إليه وعتبة فذّة من عتباته.

محرّر السّلسلة

كاظم جهاد

مقدّمة المترجم

غالباً ما يقسو الكتّاب على «أخطاء» شبابهم، وقلائل جدّاً من لم يرتكبوها. وأعرب بروست في تصريحات كثيرة وردت في مراسلاته عن امتعاضه من الغلطة الشبابية التي ارتكبها عام 1886 بكتابه **المسرات والأيّام**، وهو في سنّ الرابعة والعشرين. ولكنّها كانت «غلطة سعيدة» (felix culpa)، كما يقول القديس أوغسطينوس، إذ كان هذا الكتاب الرشيم الأوّل لسباعيّته «البحث عن الزمن المفقود».

ومع ذلك فإنّه رأى أن أسلوبه الحقيقيّ وُلد مع **المسرّات والأيّام**. ففي الجزء السابع عشر من رسائله كتب لصديقه لوسيان دوديه قائلاً: «عندما أقرأك أعتبر أن لديّ موهبة، ولكنّني عندما أقرأ نصوصي وبخاصّة عندما أكتبها [...] أشعر أنّني أفتقر إليها! وهذا يزعجني لا سيّما وأنّني عندما يصدف أن أقرأ **المسرّات والأيّام**، أجد أنّ موهبتي كانت موجودة وقتئذ»[1]. ذلك أنّ بروست شعر بالحنين إلى الأسلوب الذي اعتمده في هذا الكتاب الشبابيّ والذي كان يعجّ بنسغ ديناميّ تفجّرَ عنده وهو في ريعان الشباب.

ويذكر مؤرّخو سيرة بروست أنّه بدأ ينشر- أثناء دراسته الجامعية- في بعض المجلاّت، لا سيّما مجلّة *Le Banquet* [الوليمة]

---

(1) ورد نصّها الفرنسيّ في المقدّمة التي كتبها تييري لاجيه Thierry Laget لطبعة كتاب **المسرّات والأيّام** التي صدرت عام 1993 في سلسلة فوليو كلاسيك، والتي اعتمدتُها في هذه الترجمة إلى العربية.

و *La Revue blanche* [المجلّة البيضاء]. وعندما عرض على الناشر كالمان ليفي كتابه هذا، وافق الناشر «مغمض العينين»، كما قال بروست. ولكنّه ندم على ذلك لاحقاً، لأنّ بروست اتّصل بالفنّانة التشكيلية مادلين لومير Madeleine Lemaire كي تزيّن الكتاب بلوحاتها المائيّة فوافقت. وصدر في 12 يونيو 1896 في طبعة فاخرة غالية الثمن، لم يستطع كالمان ليفي أن يسوّقها كما كان يتمنّى.

وكتبت عنه الصحافة مقالات إيجابية. ولقي تشجيعاً من بعض الأدباء الكبار من أمثال أناتول فرانس (الذي كتب مقدّمة له) والشاعر ستيفان مالارميه الذي قال: «هذا الكتاب ممتاز لأنّ شيطان التسامح يحرّكه». وبعد صدور الأجزاء الأولى من السباعيّة، ازداد الاهتمام بـ **المسرات والأيّام**، سلباً أو إيجاباً. وانقسم النقاد قسمين: قسم ندّد بالكتاب واعتبر أنّ قيمته توثيقية. فوصفه أندريه موروا بأنّه «كتاب متشعّب، مفرط الجمال، طائش ولطيف». واعتبره فاليري لاربو كتابَ أديبٍ هاوٍ يتردّد على صالونات المجتمع المخمليّ، عندما كانت باريس تشبه مدينة تولوز، في حين أنّها الآن تضاهي مدينة لندن. أمّا الفريق الآخر من الكتّاب- ومنهم فرانسوا مورياك وأندريه جيد- فأشاد بالكتاب، لا سيّما وأنّه غدا يدور في فلكِ **البحث عن الزمن المفقود**.

في سنّ العشرين، اكتشف بروست أنّ الفن ينقذ الإنسان من عيوبه وسقطاته، ويخلّصه من داء النّفاجة والحبّ الجارف والغيرة المَرضية والموت. وجمع الكتاب بين دفّتيه شقّين: شقّاً يهتمّ بالإنسان في المجتمع وبالحداثة والموت («موت بلداسار سيلفاند»، «فيولانت أو المجتمع المخمليّ»، «النفّاجون»، «شذرات من كوميديا إيطالية»، «المجتمع المخملي وهواية الموسيقى، بوفار وبيكوشيه»...). وشقّاً يُشيد بالإنسان

والطبيعة والموسيقى والفن والحياة («بورتريهات رسّامين وموسيقيين»، «سوناتة ضوء القمر»، «لقاء على ضفة البحيرة»، «ريح بحريّة في الريف»، «شواطئ النسيان»، «البحر»، «أشياء نورماندية»...). وغالباً ما يتقاطع هذان الشقّان.

ووجد النقّاد الذين تخصّصوا في دراسة بروست أنّ هناك تشابهات كثيرة بين **البحث عن الزمن المفقود** و**المسرّات والأيّام**، مع الاحتفاظ بخصوصيّة كليهما، لا سيّما وأنّ **المسرّات** كُتب في سنّ الرابعة والعشرين وأنّ الجزء الأخير من السباعيّة كُتب عام 1922، وكان بروست في الواحدة والخمسين من عمره.

وعلى الرغم من تنوّع النصوص في **المسرّات والأيّام**، فإنّ نسيجه يتضمّن وحدة تتجلّى في التقاطع بين النثر والشعر وفي تكاملهما في آن، وفي نظرته إلى الأخلاق وفي هجائه أمراض المجتمع الفرنسي إبّان الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وفي قصصه وحكاياته ذات النفحة الصوفية، وفي تلك اللّوحات التي وصف فيها الطبيعة الريفيّة والغابات والجبال والغدران والبحر....

صحيح أنّ هناك تشابهاً بين عنوان كتاب هزيود الشهير **الأعمال والأيّام** وبين كتاب بروست **المسرّات والأيّام**، ولكنّ موضوعهما مختلف كثيراً. ففي كتاب هزيود، وهو قصيدة مطوّلة (826 بيتاً)، سردٌ لأسطورة بروميثيوس وباندورا، وتأمّل في الأجناس الخمسة: الذهب والفضة والنحاس والأبطال والحديد، ومتابعة لتطور الجنس البشريّ، ويتوقّف فيها هزيود عند الأعمال البشرية الأساسية (الزراعة، التجارة، الإبحار)، دون أن يغفل عن ذكر الأيّام التي تناسب كلّاً من هذه الاعمال. أمّا كتاب **المسرّات والأيّام** فهو مؤلَّف تتصدّى فيه الأيّام لمسرّات الإنسان، ويؤكد

على الواقع الإنسانيّ الأليم. وهو سِفْر تتصادى فيه الموسيقى (موتسارت وفاغنر بخاصّة) مع الفن التشكيليّ ومع الأدب. وقصارى القول، هو مصالحة بين الفنون المتدانية، التي بينها وشائج قربى.

ويتميّز كتاب **المسرّات والأيّام** بأسلوبه وجمله الفضفاضة أحياناً وبجرْس عباراته التي ترنّ كوتر كمانٍ أو فيولونسيل. ففي معرض حديثه عن فيولانت أو دوقة بوهيميا يقول: «تحوّلت من رائعة فنّية إلى تحفة باذخة بمقتضى هذا القانون الطبيعيّ الذي يجعل أشياء هذا العالم تنحدر إلى الدركات السفلى عندما لا يقيم أيّ جهد نبيل توازنها أعلى من ذاتها». صحيح أنّ ثمة صوراً نمطية في الكتاب (مثل: «أجهشت بالبكاء»، «حنان هائل»، «خسارة شخص معبود لا تعوّض»)، وصحيح أنّ بروست يكرّر بعض المفردات كثيراً مثل: «فجأةً» tout à coup «حزن» و«أسى» tristesse, chagrin «كآبة» mélancolie، «أسراريّ» أو «مبهم» mystérieux، و«ملذّة» volupté... ممّا يدلّ على أنّ ملكته في الكتابة لم تنضج تماماً. ولكنْ في المقابل هناك نصوص تدلّ على طول باعه في امتلاك ناصية اللّغة الفرنسية، وبخاصّة النصوص التهكّميّة والهجائيّة، ومنها نصّ رائع هو «بوفار وبيكوشيه»؛ ممّا يدفع إلى القول إنّ مفتاح الكتاب هو السخرية الناعمة غير الصاخبة التي تدفع إلى الابتسام وليس إلى القهقهة. ولا بدّ من القول إنّ النصوص السردية في الكتاب هي التي تجعل من بروست- على حداثة سنّه- قاصّاً عبقريّاً. ففي كلّ قصة، ثمّة فكرة مهيمنة. فكرة الافتقار: بالداسار يموت قبل أن يحقّق طموحه في تطوير عزفه على البيانو، وفيولانت ضاعت في الحياة المخمليّة وماتت قبل أن تزور قصر طفولتها ويفاعتها. وفي «اعترافات فتاة»، تحاول البطلة الانتحار لأنّ أمّها فوجئت بنزعاتها الشبقية. وفي «نهاية الغيرة» يموت

أونوريه دون أن تهدأ غيرتُه المرضية على امرأة تحبّه لا بل هي هائمة به.

في الكتاب يتقاطع الحلم مع الحياة: «الأفضل أن يرى الإنسان حياته في الحلم بدلاً ن أن يعيشها، مع أنّ عيشها هو رؤيتها في المنام». وكلمة «الحياة» وردت في تضاعيف الكتاب أكثر من مئة مرّة؛ ولا يتكلّم بروست عن الحياة العاديّة التافهة، بل عن الحياة التي يتجاوز فيها الإنسان ذاته (excelsior كما يقولون في اللّغة اللّاتينية).

صُمِّمتْ سباعية بروست على أن تشبه هندسة الكاتدرائيات الكبرى القوطية؛ وكان المؤلّف يريد أن يضفي عليها عنوان «الكاتدرائية». وما كتاب **المسرّات والأيّام** إلّا التحضير الماديّ والمعنويّ لتشييد هذه الكاتدرائية. ومن عام 1896 حتّى عام 1913، سكت بروست [ترجم كتابين للباحث البريطاني في علم الجمال جون راسكين، ثمّ بدأ بكتابه رواية **جان سانتوي** وأهلها]، ولكنّه كان يعدّ أدواته وموادّ بنائه التي بها راح يشيّد تلك الكاتدرائية التي صمّمها سنوات وسنوات: أعني بها سباعيّته **البحث عن الزمن المفقود**، التي جعلت منه أهمّ كاتب في القرن العشرين.

دمشق 19/ 2/ 2014

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم أناتول فرانس

لمَ طُلب مني أن أهدي كتابه لهواة الأدب؟ ولماذا وَعدتُه بأن أقوم بهذه المهمّة الشديدة الروعة، مع أنّه لا طائل فيها؟ كتابُه هو أشبه بوجه شابّ يتدفّق سحراً ورونقاً. إنّه يُوصي وحده بنفسه، وينطق بذاته ويَهَبُ نفسه طوعاً.

لا شكّ أنّه كتاب شبابيّ، على غرار شباب مؤلّفه. ولكنّه قديم قِدَمَ العالم. إنّه ربيع الأوراق اللّامعة على الأغصان العتيقة، في الغابة القديمة العهد. كأنّي بالأشتال الجديدة حزينة لماضي الغابات السحيق وترتدي ثياب الحِداد على فصول ربيع ماتت، وما أكثرها!

لقد خاطب هزيود الجليل رعاة جبل الهِلّيكون في كتابه **الأعمال والأيّام**. من المؤسي أن يخاطب كتاب **المسرات والأيّام** رجالنا ونساءنا في المجتمع المخمليّ، لو أنّ الحياة تطاق دون المسرّات، كما زعم رجل الدولة الإنكليزيّ ذاك. من هنا، ففي كتاب صديقنا الشابّ ابتسامات ضجِرة وعلائم تعب لا تفتقر إلى الجمال والنبل.

حزنه بالذات، سنجده طريفاً وشديد التلوّن، إذ يتحكّم به ويعزّزه إحساس رائع بالمراقبة وذكاء مرِن وحادّ ومرهف حقّاً. وروزنامة **المسرات والأيّام** تسجّل ساعات الطبيعة عبر لوحات متناغمة للسماء والبحر والغابات، وتطبع الساعات البشرية بصور دقيقة وبتلاوين نوعيّة

ذات تماميّة بديعة.

ويطيب لمارسيل بروست أيضاً أن يصف الروعة الملتاعة للشمس الغاربة والأباطيل الهائجة للنفس النفّاجة. ويبرع في سرد الأوجاع الأنيقة والآلام المصطنعة التي تعادل ضراوتها على الأقلّ الأوجاع التي خصّتنا بها الطبيعة بسخاء أموميّ. أعترف بأنّ هذه الأوجاع وهذه الآلام التي ابتكرتها وخلقتها العبقرية البشرية، وأنّ هذه المكابدات الفنّية تبدو لي فائقة الأهمية وعزيزة القيمة، وأراني ممتنّاً لمارسيل بروست لأنّه درس ووصف بعضاً من نماذجها المختارة.

فهو يجذبنا ويبقينا في فضاء دفيئةٍ حارّة بين السحالب الأنيقة التي لا تغذّي بأديم الثرى رونقها الغريب والناحل. وفجأةً، في الهواء الثقيل والناعم، يمرّ سهم مضيء وبرق يخترق الأجساد، على غرار ذلك الشعاع الذي اخترعه الطبيب الألمانيّ. وبلمح البصر راح الشاعر يتوغّل في الفكر السرّي والرغبة التي لا يُباح بها.

هذه هي طريقته وهذا هو فنّه. ويُبدي فيه طول باعٍ مذهلاً لنابلٍ في ريعان فتوته. ليس بروست بريئاً على الإطلاق. ولكنّه على درجة من الصراحة والصدق تجعله ساذجاً، وهكذا يثير الإعجاب. ففيه شيء من برناردان دو سان بيير خليع وفيه شيء من بيترونه سليم الطوية[1].

---

(1) برناردان دو سان بيير (1737—1814) كاتب فرنسيّ شقّ الطريق أمام المدرسة الرومانسية، وبخاصّة في روايتيه «بول وفرجيني» و«الكوخ الهندي». وبيترونه (Caius Petronius Arbiter) (27—66) كاتب رومانيّ اشتهر بروايته الماجنة «ساتيريكون». (حواشي الكتاب من إعداد المترجم، استعان في عدد كبير منها بحواشي طبعة سلسلة «فوليو كلاسيك» لكتاب المسرّات والأيّام، وضعها تييري لاجيه Thierry Laget وصدرت عام 1993 في منشورات غاليمار باريس.)

يا لحظّ كتابه! سيجوب المدينة مزداناً وفوّاحاً بالأزاهير التي نثرتها مادلين لومير[1] بأناملها الإلهية التي فرشت الورود المضمّخة بالندى.

أناتول فرانس

باريس، 21 أبريل 1896

(1) مادلين لومير Madeleine Lemaire (1845–1928) رسّامة فرنسية برعت في مائيّاتها التي زيّنت الطبعة الأولى من كتاب المسرّات والأيّام، وكانت تفتح كلّ يوم ثلاثاء صالونها الأدبيّ للطبقة المثقّفة في باريس، وكان يرتاده أدريان بروست أبو مارسيل بروست وكاتبنا نفسه.

إلى صديقي ويلي هيث

الذي توفي في باريس في 3 أكتوبر 1893

«في حضن الله حيث ترقد... اكشفْ لي تلك الحقائق التي تطوّع الموت وتحول دون خشيته وتكاد تجعله يُحَبّ».

كان اليونانيون القدماء يقدّمون لموتاهم الحلوى واللّبن والخمر. ولأنّنا مفتونون بوهم أرهف، إن لم نقل أكثر حكمة، فنحن نقدّم لهم الزهور والكتب. فإذًا أعطيتكم هذا الكتاب فلأنّه كتاب رسومٍ أوّلاً. ورغم التعليقات التي ترافق الرّسوم[1] سيتصفّحه، إن لم نقل سيقرأه، جميع المعجبين بالفنّانة الكبرى التي قدّمت لي بكلّ بساطة هذه الهديّة الرائعة[2]، وهي التي بوسعنا أن نقول عنها ما قاله الكسندر دوما (A. Dumas): «هي التي خلقت العدد الأكبر من الورود بعد الله». ولقد احتفى بها أيضاً السيّد روبير دو مونتيسكيو (R. de Montesquiou) بأبياتِ شعرٍ لم تُنشر بعد، بما فيها من صرامة فذّة وتنظيم حازم وفصاحة فخمة ورهيفة، تذكّر أحياناً بشعراء القرن السابع عشر. متكلّماً عن الزهور، قال لها:

(1) يقصد، بتواضع، أنّ نصوصه ما هي إلّا تعليقات (légendes des images) ترافق رسوم الفنّانة.

(2) هذا التقريظ موجّه لمادلين لومير، التي زيّنت برسومها الطبعة الأولى من كتاب المسرّات والأيّام (انظر الحاشيتيْن السابقتين).

«عندما تَمْثلُ أمام ريشاتكِ تبدأ تُزهِر.

....

أنتِ رسّامتها فيجيه (Vigée) وأنت إلهتها فلورا (Flore)

فتخلّدينها، بينما غيرُك يدعُها تموت !»[1]

معجَبوها من النخبة، وهم كثر. وددتُ أن يروا في الصفحة الأولى اسم ذلك الذي لم يمكّنهم الوقت من التعرّف عليه، والذي كانوا سيُعجَبون به لو عرفوه. أيها الصديق، لم أعرفك أنا نفسي إلّا مدّة قصيرة. كنت ألتقيكَ غالباً في غابة [بولونيا] صباحاً، فتلمحني منتظراً قدومي تحت الأشجار، كنتَ تقف مرتاح البال، وكنتَ أشبه بأولئك الأسياد الذين رسمهم فان ديك (Van Dyck) والذين أخذتَ عنهم أناقتهم الساهمة. وفعلاً لم ترتبط أناقتهم وأناقتك بالملبس كثيراً بل بالجسد، ويبدو أنّ أجسادهم بالذات قد تلقّت هذه الأناقة وما زالت تتلقّاها من أرواحهم: إنّها أناقة معنويّة. أجل، لقد ساهم كلّ شيء في إبراز هذا التشابه الأسيان، وصولاً إلى خلفيّة الأغصان تلك التي لطالما أوقف فان ديك في ظلّها نزهة أحد الملوك؛ وكمثْلِ الكثيرين ممّن مثلوا أمامه ليرسمهم، كان عليك أن ترحل قريباً، وفي عينيك وأعينهم، كانت تتناوب- على ما رأينا- ظلالُ الاستشعار ونور الإذعان الناعم. ولكن إذا حُقّ لرواء أنفتك أن ينتمي إلى فنّ رسّام مثل فان ديك، فإنّك أخذتَ بالأحرى عن دا فينشي الكثافة السرّية لحياتك الروحية. فبإصبعك المرفوعة وعينيك اللّتين لا يُكتَنه سرّهما واللّتين تبتسمان أمام اللّغز الذي أحطتَه بغلالة من الصمت، غالباً ما بدوتَ لي كالقديس يوحنّا المعمدان في لوحة ليوناردو. كان

---

(1) أليزابيت فيجيه لوبران (1755–1842) (E.Vigée-Lebrun) رسّامة اشتهرت برسم البروتريهات، وبخاصة بورتريه ماري أنطوانيت. فلورا (Flore) إلهة رومانية كانت تمثّل نسغ الحياة النباتية، وجعلها أوفيد زوجة الريح زيفير.

الحلم يراودنا، وكاد أن يكون مشروعاً، بأن نعيش معاً محاطين بجمهرة من النساء والرجال النبلاء المختارين ممّن ابتعدوا كلّ البعد عن الغباء والرذيلة والخبث كي نشعر بمأمن من سهامهم المبتذلة.

حياتك كما شئتها لنا هي من تلك الأعمال التي تقتضي إلهاماً رفيعاً. نودّ لو نستقبلها من أيدي الحبّ والإيمان والعبقريّة. ولكنّ الموت هو الذي وهبك إيّاها. وفيه أيضاً، لا بل في جنباته، تقيم قوى خفيّة، ومعونات سرّية، تقيم «نعمة» ليست في الحياة. فكالعشّاق الذين ابتدأوا يعشقون، وعلى غرار الشعراء عندما يُنشدون أشعارهم، يشعر المرضى أنّهم قريبون جدّاً من أرواحهم. الحياة قاسية وتضيّق على خناق الإنسان، وتوجع أرواحنا دون هوادة. وعندما نشعر بأنّ قيودها قد تراخت، نستطيع أن نحسّ بألطافٍ مُبينَة.

عندما كنتُ طفلاً صغيراً لم يبدُ لي مصير أيّة شخصية من شخصيّات الكتاب المقدّس بمثل بؤس شخصيّة نوح، بسبب الطوفان الذي حبسه في فُلكه أربعين يوماً. ولاحقاً، غالباً ما كنتُ مريضاً، وخلال أيّام بكاملها كان عليّ ألّا أبارح «الفُلك». فأدركتُ عندئذ أنّ نوحاً لم يستطع قطّ أن يرى العالم إلّا وهو في الفلك، مع أنّه كان مغلقاً وأنّ الديجور كان يخيّم على الأرض. وعندما بدأتْ نقاهتي فتحت أمّي - التي لم تكن تفارقني وتمضي حتّى اللّيل قربي - «باب الفلك» وخرجتْ. ومع ذلك، فشأنها شأن الحمامة، «عادتْ هي في ذلك المساء». ثمّ شُفيتُ تماماً، وكالحمامة «لم تعد بعدئذٍ»[1]. وكان عليّ أن أعاود الحياة، وأتنكّب لذاتي، وأن أسمع كلمات أقسى من كلمات أمّي؛ وأكثر من ذلك لم تَعُدْ كلماتُها، على عذوبتها الدائمة حتّى ذلك الحين، هي هي، بل شابَتْها صرامةُ الحياة والواجب الذي كان عليها أن تلقّنني إيّاه. كيف نفكّر، يا حمامة الطوفان الناعمة، في أنّ أبا

(1) العهد القديم، «سفر التكوين»، 8، 6—12.

الآباء نوحاً لم يشعر، عندما رآكِ تغادرين، بشيءٍ من الحزن يشوب فرحة العالم الجديد؟ يا لروعة الحياة المعلّقة، وحقيقة «عهد الله» الذي يقطع دابر الأعمال والرغبات الرديئة! يا «لنعمة» المرض الذي يُدنينا من عالم ما بعد الموت وأفضاله، أفضال «تلك الزخارف والسجف الثقيلة التي لا طائل فيها»، أفضال شَعْرٍ «عكفتْ يد ثقيلة على تجميعه»![1] يا للوفاء اللّطيف لأمّ ولصديق بدَوَا غالباً لنا كوجهِ حزننا بالذات وكعلامةِ حماية يَنشدها وهنُنا، وسيتوقّفان على عتبة نقاهتنا! غالباً ما تألّمْتُ لابتعادكِ جميعاً عنّي، أيّتها الذريّة المنفيّة لحمامة الفلْك تلك. من لم يعرف، أيها العزيز «ويلي»، بين تلك اللّحظات، اللّحظةَ التي فيها يرغب أن يكون حيث أنت؟ غالباً ما نأخذ على عاتقنا التزامات كثيرة إزاء الحياة، بحيث تأتي ساعةٌ نكون فيها قد أخفقنا في التمكّن من احترامها كلّها، عندها نتوجّه نحو القبر الذي نسمّيه الموت، «الموت الذي يَهُبّ لمساعدة المصائر التي يصعب عليها أن تتحقّق». ولكنْ، إن حرّرَنا الموت من الالتزامات التي قطعناها مع الحياة، فهو لا يستطيع أن يحرّرنا من تلك التي بها عاهدنا أنفسنا، ولا سيّما الالتزام الأوّل بخاصّة، أي أن نعيش لاكتساب قيمةٍ واستحقاقٍ لنا.

كنتَ أكثرنا وقاراً، وكنتَ أيضاً طفلاً أكثر منّا، ولا أتكلّم فقط عن نقاء القلب، بل عن الحبور البريء والرائق. أحسد شارل دو غرانسي (Charles de Grancey) على قدرته على أن يوقظ فجأةً، باستعادة ذكريات المدرسة الثانويّة، تلك الضحكة التي لم تكن تنام لوقت طويل، والتي لن نسمعها من بعد.

لئن كُتبتْ بعض هذه الصفحات في سنّ الثالثة والعشرين، فإنّ أكثرها (ومنها سيرة فيولانت Violante وأغلب الشذرات التي كتبتُها

(1) راسين، فيدر.

عن الكوميديا الإيطالية، إلخ.) يعود إلى العشرين من عمري. وجميع هذه الصفحات ليست سوى زَبَد عقيم لحياة مضطربة، ولكنّها هدأتْ. علّها تكون ذات يوم رائقة بما فيه الكفاية لتتكرّم ربّات الفنّ (les Muses) بإنعام النظر في قدودهنّ في مرآتها، وكي نرى على صفحتها انعكاس ابتساماتهنّ ورقصاتهنّ.

أهديكَ هذا الكتاب. وأنت للأسف الشخص الوحيد بين أصدقائي الذي لا أهاب انتقاداته. إنّني واثق على الأقلّ من أنّ النبرة الحرّة ما كانت ستصدمك على الإطلاق. لم أصِف اللّا أخلاقيّة قطّ إلّا عند أشخاص مرهفي الطويّة. ولأنّهم أوهَن من أن يقووا على التوق إلى الخير، ولأنّهم أنبلُ من أن يستطيعوا التمتّع تماماً بالشرّ، ولأنّهم لا يعرفون سوى الألم، فإنّني لم أتمكّن من التكلّم عنهم إلّا بشفقة قد تكفي صراحتها لتطهير هذه المحاولات الصغيرة. فليسامحْني الصديق الصدوق، والمعلّم العظيم لذاك الحبيب اللّذين زوّد أحدُهما هذه الصفحات بشعر موسيقاه، والآخر بموسيقى شعره الذي لا يضاهى، وليسامحني السيّد دارلو (Darlu) أيضاً[1]، ذاك الفيلسوف الكبير الذي خلق فيّ كلامُه الملهَم والباقي بالتأكيد أكثر من الكلام المكتوب، خلق فيّ ملكة التفكير، فليسامحوني على تخصيصي لكَ عربون مودّتي الأخير هذا، وليتذكّروا أنّه كلّ كائن حيّ، مهما يكن كبيراً وعزيزاً، يجب ألّا يكرَّم إلّا بعد موته.

يوليو 1894

(1) الصديق الصدوق هو رينالدو هان Reynaldo Hahn. والآخر هو أناتول فرانس Anatol France. أمّا ألفونس دارلو Alphonse Darlu فهو أستاذ الفلسفة الذي درّس بروست في ثانوية كوندورسيه.

موت بلداسار سيلفاند

(Baldassare Silvande)

فيكونت سيلفانيا

1

«كان أبولون يرعى قطعان أدميتوس، كما قال الشعراء؛ كلّ شخص هو أيضاً إله متنكّر يتظاهر بالجنون».

إميرسون Emerson

« يا سيّد ألكسي، لا تبكِ هكذا، لأنّ السيّد فيكونت سيلفانيا سيعطيك ربّما حصاناً.

– حصاناً كبيراً، يا بيبو، أم مهراً؟

– ربّما هو حصان كبير مثل حصان السيّد كاردينيو[1]، ولكن لا تبكِ بهذا الشكل في يوم ميلادك الثالث عشر!».

أملُ الحصول على حصان وتذكّرُ سنواته الثلاث عشرة خلقا بريقاً في عيني ألكسي الدامعتين. ولكن العزاء لم يدلف إلى قلبه لأنّه مضطر إلى مقابلة عمّه بلداسار سيلفاند، فيكونت سيلفانيا. صحيح أنّ ألكسي، منذ أن سمع بأن مرض عمّه لا شفاء منه، رآه عدّة مرّات. ولكن كلّ شيء تغيّر بعد ذلك. لقد أدرك بلداسار مدى عِلّته وعرف حينها أنّه لن يعيش أكثر من ثلاث سنوات. ودون أن يفهم ألكسي كيف أنّ هذا اليقين لم يقتل

(1) كاردينيو هو حصان أحدُ الفرسان الأندلسيّين في رواية «دون كيخوته» لثربانتيس.

عمّه من الحزن أو لم يجعله يُجَنّ، فقد شعر بأنّه عاجز عن تحمّل ألم رؤيته. ولتيقّنه من أنّ عمّه سيكلّمه عن نهايته الوشيكة، لم يصدّق أنّ لديه المقدرة، لا على مؤاساته فحسب، بل على كتم زفراته أيضاً. فقد أحبّ دائماً عمّه حبّاً جمّاً، لأنّه الشخص الأكبر والأجمل والأفتى والأنشط والأرقّ بين كلّ أقاربه. كان يحبّ عينيه الرماديّتين وشاربيه الأشقرين وركبتيه اللّتين كانتا المكان الفسيح والرغيد والبهيج وملاذه الأثير عندما كان صغيراً، وظنَّهما منيعتين كإحدى القلاع، ومسلّيتين كالأحصنة الخشبية ومنزّهتين كمعبد من المعابد. وألكسي الذي كان يستنكر الهندام الداكن والصارم لأبيه، والذي كان يحلم بأنّه، فوق صهوة جواده، سيكون أنيقاً مثل سيّدة نبيلة ورائعاً مثل مَلِك، وجد في بلداسار المثل الأعلى الذي كوّنه عن الرجل الرجل. كان يعلم أنّ عمّه وسيم، وأنّه يشبهه، وكان يعلم أنّه ذكي وكريم، وأنّ له سلطة تضاهي سلطة الأسقف أو الجنرال. والحقّ يقال إنّ انتقادات والديه قد دلّته على أنّ للفيكونت عدداً من الأخطاء. تذكّر سَورة غضبه عندما سخر ابن خاله من الفيكونت، تذكّر كم التمعت عيناه وفضحتا إمارات عُجْبه عندما قدّم له دوق بارما يد أخته ليتزوّجها (صرف بأسنانه محاولاً إخفاء فرحته وكشّر تكشيرته المعتادة التي كانت تزعج ألكسي)، تذكّر نبرة الازدراء التي أبداها للوكريسيا Lucretia التي صّرحت بأنّها لا تحبّ موسيقاه.

وغالباً ما كان والداه يلمّحان بأفاعيل كان ألكسي يجهلها وتنال من عمّه أيّ منال.

ولكنّ جميع عيوب بلداسار، وتكشيرته السوقية، قد زالت بالتأكيد. فعندما عرف عمّه بأنّه سيقضي نحبه خلال سنتين، غدا وابلُ سخريات جان غالياس (J. Galéas)، وصداقةُ دوق بارما، وموسيقاه، كلّ هذا غدا

غيرَ ذي بالٍ في نظره. كان ألكسي يتصوّره بالوسامة ذاتها التي كانت له، ولكن أكثر مهابة وكمالاً ممّا كان عليه من ذي قبل. أجل، مهابته التي لم تعد تماماً في هذا العالم! كذلك شابت قنوطَه مسحةٌ من القلق والهلع.

جُهّز الحصانان منذ أمد طويل، وكان لا بدّ من الانطلاق. ركب ألكسي العربة، ثمّ نزل منها ليطلب آخر نصيحة من مربّيه. وعندما نطق، احمرّ وجهه.

«يا سيّد لوغران، أمِن الأفضل أن يعلم عمّي أو ألّا يعلم بأنّني أعرف أنّه مدرك موته حتماً؟

- الأفضل ألّا يعلم، يا ألكسي!

- ولكن، إذا فاتحني بذلك؟

- لن يفاتحك به.

- لن يفاتحني به؟»، قال ألكسي متعجّباً، لأنّ ذلك كان الخيار الوحيد الذي لم يخطر بباله: فكلما كان يتصوّر زيارته لعمه، كان يفهمها على أنّه سيكلّمه فيها عن الموت بوداعة الكهنة.

«ولكن أخيراً لو كلّمني عنه؟

- تقول له إنّه مخطئ.

- وإذا بكيتُ؟

- لقد بكيت كثيراً هذا الصباح، فلن تبكي عنده.

- لن أبكي! صاح ألكسي يائساً، ولكنّه سيظنّ أنّني لا أشعر بحزن، وأنّني لا أحبّه... لا أحبّ عمّي الصغير؟ آه !».

وأجهش بالبكاء. ولما عيل صبرُ أمّه، جاءت لتأخذه؛ وذهبا.

وعندما أعطى ألكسي معطفه الصغير لأحد الخدم ذي اللّباس الأخضر والأبيض،.توقّف لحظة مع أمّه ليستمع إلى لحن يُعزف على

الكمان وينبعث من غرفة مجاورة. ثمّ تمّ اصطحابهما إلى غرفة فسيحة مستديرة مزجَّجة كلّها حيث كان يجلس الفيكونت في أغلب الأحيان. وعندما يدلف المرء إليها يرى البحر أمامه، وعندما يحوّل نظره يرى المروج والمراعي والغابات؛ وفي آخر الغرفة كان ثمة قطّان وورود وخشخاش وآلات موسيقية عديدة. انتظرا لحظة.

وارتمى ألكسي على أمّه، فظنّت أنّه يريد أن يقبّلها، ولكنّه همس في أذنها:

«ما عمر عمي؟

- في شهر يونيو، سيناهز السادسة والثلاثين».

وأراد أن يقول: «أتظنّين أنّه سينهي السادسة والثلاثين»، ولكنّه لم يجرؤ.

وفُتح باب، فارتجف ألكسي، قال أحد الخدم:

- السيّد الفيكونت سيأتي في الحال.

وسرعان ما عاد الخادم وأدخل طاووسين وجَدياً كان الفيكونت يصطحبها معه دائماً. ثمّ سُمع وقع أقدام وانفتح الباب ثانية.

«لا شيء، قال ألكسي في سرّه وقلبه يخفق كلّما سمع صوتاً، لا شكّ أنه أحد الخدم، نعم أحد الخدم». ولكنّه سمع لحظتها صوتاً رقيقاً:

- صباح الخير يا ابني ألكسي الصغير، أتمنّى لك عيداً سعيداً.

وعندما قبّله عمّه ذُعر ألكسي. فأدرك العمّ ذلك بالتأكيد ودون أن يهتمّ بنفسه راح يتكلّم مع أم ألكسي، كي يترك له مجالاً ليستعيد رباطة جأشه؛ وأمّه كانت سِلفة الفيكونت التي بعد وفاة أمّه كانت بالنسبة له أعزّ شخص في العالم.

وبعد أن استعاد ألكسي طمأنينته، لم يعد يشعر إلّا بعاطفة جيّاشة تجاه

هذا الشابّ الذي كان ما زال ساحراً، مع شيء من الشحوب، وما زال قويّ الشكيمة بحيث تظاهر بالحبور في تلك اللّحظات المأساوية. كان بودّه أن يرتمي عليه ليعانقه، ولكنّه لم يجرؤ، خشية أن يكسر زخم عمّه الذي لن يستطيع من ثمّ السيطرة على حركاته. كانت نظرات الفيكونت الحزينة والرقيقة تدفعه إلى البكاء. وكان ألكسي يعلم أنّ عينيه حزينتان دائماً وأنّهما- حتّى في أسعد الأوقات- كانتا كأنّهما تتوسّلان مؤاساةً على أمراض بدا أنّه لا يشعر بها. ولكنّه عندئذ ظنّ أنّ حزن عمه، الذي استبعده بشجاعة من الحديث، قد تركّز على عينيه اللّتين كانتا وحدهما في كامل قامته صادقتين مع خدّيه الغائرتين.

- أعرف أنّك تحبّ أن تقود عربة بحصانين، يا صغيري ألكسي، غداً سنوافيك بحصان، قال بلدازار. والسنة القادمة سأستكمل العدد إلى اثنين، وبعد سنتين سأهبك العربة. ولكنّك خلال هذه السنة يمكنك ربّما أن تعتلي الحصان، سنجرّبه لدى عودتي. وفعلاً أنا ذاهب غداً، أضاف، ولكن ليس لمدة طويلة. سأعود قبل شهر، وسنمضي معاً ذات صباح إذن لنشاهد المسرحية الكوميدية التي وعدتُكَ بأنّنا سنشاهدها.

كان ألكسي يعلم أنّ عمّه ذاهب ليقضي بضعة أسابيع عند أحد أصدقائه، وكان يعلم أيضاً أنّ الأطباء سمحوا له بالذهاب إلى المسرح؛ ولأنّ فكرة الموت استحوذت على ألكسي فصدمته قبل الذهاب إلى قصر عمه، أثارت أقوالُه لديه ذهولاً أليماً وعميقاً.

فقال في سرّه: «لن أذهب؛ إذ سيعاني من سماع تهريج الممثلين وضحك الجمهور!».

- ما هي معزوفة الكمان الجميلة التي سمعناها عند دخولنا؟ سألت

أم ألكسي.

- آه! وجدتِها جميلة؟ قال بلداسار مغتبطاً. إنّها الرّومانس[1] التي كلّمتكِ عنها.

فتساءل ألكسي: «هل يمثّل علينا؟ كيف يستطيع نجاحُ موسيقاه أن يُبهجه الآن؟».

عندها عبّرت سحنة الفيكونت عن ألم عميق، فشحبت خدّاه وزمّ شفتيه وقطّب حاجبيه واغرورقت عيناه بالدموع.

فصاح ألكسي في سرّه: «يا إلهي، هذا الدّور يفوق قواه. يا عمّي المسكين! ولكن لماذا يخشى كثيراً أن يُحزننا؟ لماذا يجاهد كلّ هذه المجاهدة؟».

ولكنّ آلام الشلل العام التي شدت وثاقَها على بلداسار كأنّها مشدّ حديديّ ترك بصماته على جسمه، والتي قلّصت شِدّتُها وجهه رغماً عنه، قد تلاشت.

فعاد يتكلّم منشرح المزاج، بعد أن مسح عينيه.

- يبدو لي أنّ دوق بارما قد خفتت معزّته لك؟ سألت أم ألكسي بأسلوب أخرق.

- دوق بارما! صاح بلداسار حانقاً، دوق بارما خفتت معزّته! ولكن في ماذا تفكرين يا عزيزتي؟ لقد كتب لي مرّة أخرى هذا الصباح ليضع قصر إيليري (Illyrie) تحت تصرّفي، إن كان هواءُ الجبال يحسّن من وضعي.

ونهض بسرعة، ولكنّه أيقظ في الوقت ذاته آلامه المبرحة، فاضطرّ إلى الجمود لحظة؛ وما إن هدأت حتّى نادى:

---

(1) الرومانس هي أغنية عاطفيّة.

- أعطيني الرسالة الموجودة قرب السرير.

وقرأ بنبرة حيّة:

«يا عزيزي بلداسار

كم يشقّ عليّ ألّا أراك، الخ.، الخ.»

وكلّما كان لطف الأمير يتبدّى، كانت أسارير بلداسار تهدأ وتتألّق بثقة هانئة. وفجأةً، عندما شاء أن يخفي فرحاً لم يره مناسباً لمقامه، صرف بأسنانه وكشر تكشيرته الجميلة المبتذلة التي ظنّ ألكسي أنّها ذهبت إلى غير رجعة وتلطّف ملمحُها أمام الموت.

عندما انزمّ فم بلداسار كما كان يفعل في الماضي، انقشعت الغشاوة عن عيني ألكسي الذي- منذ أن كان قريباً من عمّه- ظنّ وأراد أن يتأمّل وجه شخص مشرف على الموت تجرّد عن الوقائع المبتذلة ولم تعد تعلو هذا الوجه إلّا ابتسامة مكبوتة بجهد جهيد، ابتسامة رقيقٌ حزنُها، ابتسامة سماوية تحرّرت من أوهامها. والآن لم يعد يشكّ في أنّ جان غالياس (J.Galéas) لو جاء في تلك اللّحظة يماحك عمه لربّما أثار غضبه، كما كان يفعل في الماضي، وفي أنّه- أمام مريض مرح يرغب في الذهاب إلى المسرح- لن يداخله لا كتمان ولا شجاعة، وفي أنّ بلداسار الذي اقترب كثيراً من الموت ما زال يفكر في الحياة.

وبعد أن عاد ألكسي إلى منزله عصفت به هذه الفكرة القائلة إنّه سيموت ذات يوم، وإن كان أمامه وقت أطول من وقت عمّه، وإنّ بستانيّ بلداسار العجوز، وكذلك بنت عمّه دوقة أليريوفر (Alériouvre)، لن يعمّرا بالتأكيد بعده طويلاً. ولكنّ البستاني روكو- مع أنّه كان لديه من الثروة ما يكفيه ليتنحّى- استمرّ في العمل بكلّ كدّ ونشاط كي يكسب مزيداً من المال محاولاً تحسين سعر وروده. ومع أنّ الدوقة ناهزت

السبعين، لكنّها كانت تبذل وسعها في صبغ جسمها، وكانت في الصحف تدفع ثمن المقالات التي تحتفي بعنفوان مشيتها، وتشيد بأناقة استقبالاتها وتمتدح لطائف مائدتها وذكاءها.

هذان المثالان لم يقلّلا من الذهول الذي غرقَ فيه ألكسي بسبب تصرّف عمه، بل أوحى إليه بذهول مماثل تفاقم عنده وبلغ حدّ الانشداه من المأساة العامّة المنكرة لهذه المخلوقات التي لم يستثنِ نفسه منها، والتي كانت تمشي القهقرى نحو الموت في حين أنّها تتطلّع إلى الحياة.

وبعد أن صمّم على ألّا يقلّد خطلاً مشيناً كهذا، قرّر- حاذياً حذو الأنبياء القدامى الذين عُلِّم تمجيدهم- أن يتنسّك في الصحراء مع بعض أصدقائه الصغار وكاشفَ والديه بذلك.

ولكنّ الحياة كانت لحسن الحظّ أقوى من هزئهما، تلك الحياة التي لم يستنفد حليبها المقوّي والرقيق والتي ألقمته ثديها لإقناعه بالعدول. فراح يعبّ بنهمٍ رائقٍ وزيّن له خياله المجنّح والساذج محذوراته وأصلح منغّصاته ببهاء.

2

«وا حسرتاه!، ما أتعس الجسد...»

(ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé)

غداة زيارة ألكسي، سافر فيكونت سيلفانيا إلى القصر المجاور حيث سيُمضي ثلاثة أسابيع أو أربعة، وحيث سيفرّج حضورُ العديد من المدعوّين عنه حزنَه الذي غالباً ما كان يعقب نوبات مرضه.

وسرعان ما اقتصرت مباهجُه في القصر على صحبة امرأة شابّة

ضاعفتها بتشاركها معه. فخامرَه شعورٌ بأنّها تحبّه، ولكنْ أبقى على بعض الحذر منها: كان يعلم أنّها طاهرة الذيل، وأنّها تنتظر بفارغ الصبر عودة زوجها؛ ثمّ لم يكن متأكّداً من أنّه يحبّها حقاً وانتابه شعور غامض بأنّ جرّها إلى فعل الشر خطيئة كبرى. متى تغيّرت طبيعة علاقتهما؟ لم يستطع أن يتذكّر قطّ ذلك. والآن، مع مراعاة اتّفاق صامت لا يسعه تحديدُ زمنه، كان يقبّل أناملها ويحيط جيدها بذراعه. فبدت سعيدة جدّاً ممّا دفعه الى أن يفعل أكثر من ذلك ذات مساء: بدأ يقبّلها؛ ثمّ راح يداعبها طويلاً ويقبّل عينيها وخدّها وشفتيها وعنقها وطرفَي أنفها. وكان فم المرأة الشابّة يستجيب مبتسماً لقبلاته، وكانت عيناها تتألّقان في الأعماق كمياه أدفأتها الشمس. بيد أنّ مداعبات بلداسار أصبحت أكثر جرأة؛ تفرّس فيها لحظة، فهاله شحوبها واليأس المطبق الذي نمّ عن جبينها الميّت، وعينيها الكئيبتين والمنهكتين اللّتين كانتا تبكيان بنظراتها الحزينة ودموعهما، كأنّها كانت تتألم من صَلْبها أو من خسارة كائن معبود لا تعوّض. فنظر إليها هنيهة؛ فجاهدت لتنظر إليه بعينين متوسّلتين مستعطفتين، وفي ذات الوقت كان فمها الظمآن، وبحركة لا شعورية ومتشنّجة، يطالب بمزيد من القُبل.

وبعد أن عاودتهما متعتهما التي كانت تطفو حولهما في عبق قبلاتهما واستذكار ملامساتهما، ارتميا أحدهما على الآخر مغلقين عيونهما، تلك العيون الضارية التي كانت تريهما أسى روحيهما، فلم يريدا أن يرياه، وبالداسار بخاصّةٍ كان يغمض عينيه كجلاّدٍ يستحوذ عليه الندم ويحسّ بأنّ ذراعه ترتجف عند صفعه ضحيّتَه لو كان، عوضَ أن يتصوّر أنّها ما تزال تستثير غيظه وترغمه على إشباعه، يستطيع أن ينظر إلى ضحيّته وجهاً لوجه وأن يحسّ بألمها ولو للحظة.

دلف اللّيل وما زالت في غرفته ساهمة العينين ودون دموع. ثمّ غادرت دون أن تقول له كلمة واحدة، بعد أن قبّلت يده بأسى ملتاع.

أمّا هو فلم يستطع أن ينام؛ وإذا استلقى قليلاً، كانت فرائصه ترتجف شاعراً بأنّ عيني ضحيته الرقيقة تحملقان فيه متوسّلتين مستعطفتين. وفجأةً تصوّرها كما عليها أن تكون في تلك اللّحظة، عاجزة عن النوم هي أيضاً وشاعرة بشدّة الوحشة. فارتدى ثيابه، وتوجّه برفقٍ نحو غرفتها، دون أن يجرؤ على إحداث أيّة ضجّة كي لا يوقظها إن كانت نائمة، ودون أن يجرؤ على الدخول إلى غرفته هو حيث كانت السماء والأرض وروحه تحبس عليه أنفاسه وتنوء بكلكلها عليه. بقي هناك على عتبة غرفة المرأة الشابّة، ظنّاً منه في كلّ لحظة أنه لا يستطيع تمالك نفسه ولو لهنيهة وأنه سيدلف؛ ثمّ فكّر مذعوراً أنه سيقطع حبل ذلك النسيان اللّطيف الذي كانت نائمة في أحضانه بأنفاسها الناعمة المنتظمة التي كان هو يشعر بها، كي يسلّمها بفظاظةٍ فريسةَ الندم واليأس، اللّذين وجدت الراحة للحظةٍ بعدما أفلتت من أسارهما؛ فبقي وحده أمام العتبة، جالساً تارةً، وطوراً جاثياً، وأحياناً مستلقياً. وفي الصباح، عاد إلى غرفته مقروراً وهادئاً، فنام طويلاً واستيقظ هانئ البال.

وتفنّن كلاهما في تهدئة ضميريهما، واعتادا الندم الذي راح يَخفت، وتمرّسا على المتعة التي صارت أقلّ عنفاً؛ وعندما عاد إلى سيلفانيا لم يحتفظ مثلها إلّا بذكرى ناعمة متبرّدة لتلك الهنيهات المحمومة والفاتكة.

3

«يصخب شبابه في أذنيه، ولكنّه لا يسمع»

(مدام دو سيفينييه Mme de Sévigné)

عندما جاء ألكسي، في يوم ميلاده الرابع عشر، ليزور عمّه بلداسار لم يشعر بأنّ الانفعالات العنيفة التي استحوذت عليه السنة السابقة قد عاودته. كان العَدْو الكثير على صهوة الحصان الذي أهداه إيّاه عمّه قد عزّز قواه وامتصّ كلّ توتّره وحرّض فيه ذلك الشعور المتواصل بموفور العافية المرفَدة بشبابه، وحرّك وعيَه الغائم للتفكير العميق ولمصادر جذله وقوّته. تحت وقع النسيم العليل الذي كان عَدْوه يستثيره، كان يشعر بأنّ صدره ينتفخ كأشرعة المراكب، وبأنّ جسمه يلتهب كالنار أثناء الشتاء وبأنّ جبينه ينتعش كأوراق الشجر التي تحيط به أثناء مروره، وكان جسمه يتصلّب عندما كان يغطس في الماء البارد، وكان يريحه طويلاً أثناء فترات الهضم الرائقة، فيبعث فيه طاقات الحياة، هذه التي كانت مفخرةً عارمةً لدى بلداسار الذي انحسرت نهائيّاً عنده وراحت تنتعش في عروقٍ أكثر شباباً، ولكنّها ستهجرها ذات يوم أيضاً.

لم يعد ألكسي تُضعِفه فكرةُ أنّ قوى عمّه خائرة وأنّ موته وشيك. فالطنين البهيج الذي للدم الساري في عروقه والرغباتِ التي كان يفكر فيها كانت تحول دون سماعه الأنّات المنهَكة لعمّه المريض. دخل ألكسي إلى تلك الفترة المحتدمة التي كان فيها الجسد يعمل بجبروته على بناء قصوره التي يشيّدها بينه وبين الروح التي ستبدو عما قريب وكأنّها غادرتْه، إلى أن يأتي يوم يُحدث المرض والحزن فيه بتؤدة تلك الثغرة التي تبرز فيها الرّوح من جديد. لقد اعتاد المرضَ الوبيلَ لعمّه كما نعتاد كلّ ما

يواصل البقاء حولنا، ومع أنّ العم ما زال يعيش، فلأنّه أبكاه ذات مرّة كما يُبكينا الأمواتُ تصرّف هو معه كميّت وطفق ينسى.

وفي ذلك اليوم لمّا قال له عمه: «يا ابني ألكسي الصغير، أعطيك العربة والحصان الثاني معاً»، أدرك أن عمّه يقول لنفسه: «فبدون هذا قد لا تحصل البتّة على العربة»، وفهم أنّها فكرة محزنة للغاية. ولكنّه لم يشعر بأنّها كذلك، إذ لم يعد فيه آنئذٍ مكان للحزن العميق.

وبعد ذلك بأيّام، صُدِم حين قرأ سيرة قاتل لم يتأثّر بالعواطف المؤثّرة التي كان يكنّها له مُحتَضَر كان يكنّ له أكبر الودّ.

حين دلف المساء، منعه من النوم خوفُه من أن يكون هو ذلك القاتلَ الذي تماهى معه. ولكنّه في غداة اليوم التالي اعتلى صهوة حصانه وتجوّل، وعمل بنشاط، وشعر بآصرة تشدّه إلى والديه الحيّين فطفق يستمتع دون وازع وينام دون تبكيت ضمير.

بيد أنّ فيكونت سيلفانيا، الذي لم يعد يقوى على المشي، لم يعد يبارح قصره. وكان أصدقاؤه وأقاربه يمضون النهار معه، وكان باستطاعته أن يتفوّه بالكلمات المجنونة والمشينة، وأن يصرف المال عبثاً، وأن يناقض نفسه، وأن يكشف عن المثالب الأكثر إثارةً للاستنكار، دون أن يتعرّض لملامة أقاربه، ودون أن يُجيز أصدقاؤه لأنفسهم أيّةَ ممازحة أو مناقضة. بصمتٍ كان يبدو أنّهم جرّدوه من كلّ مسؤولية عن أفعاله وأقواله. وبخاصّة كان يظهر أنّهم- لكثرة الملاطفات والتملّقات التي انداحت- كانوا يريدون منعه من سماع الصرير الأخير لجسمه الذي راحت تغادره الحياة.

كان يُمضي ساعات طويلة وساحرة مستلقياً يواجه ذاته، يواجه النديم الأخير الذي أهمل أن يدعوه للعشاء خلال حياته. كان يشعر بفرح حزين

لدى مداراته جسدَه الشاكي ولدى تركه يتّكئ بإذعانٍ إلى النافذة لينظر إلى البحر. وبِصوَر هذا العالم التي كانت لا تزال تستحوذ عليه، ولكن التي كان تنائيها وانتفاؤه منها يجعلانها غائمة وجميلة، كان يحيط مشهد موته الذي أنعم النظر فيه طويلاً وما برح ينقّحه ويهذّبه، كلوحة فنيّة، بحزنٍ ملتاع. وارتسم في مخيّلته وداع الدوقة أوليفيان (Oliviane)، صديقته التي أحبّها حبّاً عذرياً، والتي كان يتسيّد صالونها، رغم وجود كبار الأسياد جميعهم وعظام الفنانين والمفكّرين الأوروبيّين فيه. وبدا له أنه يستعرض آخر حديث تداولاه:

«... غربت الشمس، والبحر الذي ينبسط أمامنا عبر أشجار التفاح كان بنفسجيّاً. وكانت السحب الزرقاء والوردية تطفو في الأفق، خفيفةً كتيجان ملتمعة وذاوية، وعنيدة كالحسرات. وكان خطّ كئيب من أشجار الحور يغوص في الظلام، وتُشاهَد هاماتُها المنتصبة خلف كنيسة وردية اللّون؛ ودون أن تمسّ الأشعةُ الأخيرة جذوعَها، كانت تلوّن أغصانها وتربط مَشابك الظلمة هذه بقلائد من النور. وكان النسيم يمازج الروائح الثلاث المنبعثة من البحر ومن الأوراق الرطبة ومن الحليب. لم يلطّف ريفُ سيلفانيا من قبلُ أسى المساء بملذّة كهذه.

«- أحببتُكَ حبّاً جماً، ولكنّني لم أمنحك إلّا اليسير، يا صديقي المسكين، قالت له.

«- ماذا تقولين يا أوليفيان؟ كيف، أنتِ منحتني اليسير؟ لقد جُدتِ عليّ حقّاً أكثر ممّا طلبت، وبأكثر ممّا لو كان للشهوات الجسدية متّسع في عاطفتنا. أثيريّةً كمريم العذراء، ورقيقةً كأمّ مرضعة، أحببتكِ بشغفٍ وأنتِ هدهدتِني. أحببتكِ بعاطفة لا تشوبها أيّة متعة حسّية تعطّل نباهتها الرهيفة. ألم تقدّمي لي في المقابل صداقة لا مثيل لها، وشاياً لذيذاً، وحديثاً

مزيّناً دون تكلّف؟ وكم قدّمت لي باقاتٍ من الورود الغضة؟ أنت وحدكِ استطعت بيديكِ الأموميتين العارفتين أن ترطّبي جبيني المحموم، وأن تسكبي العسل بين شفتيّ الذاويتين، وأن تزرعي في حياتي صوراً نبيلة».

«يا صديقتي العزيزة، أعطيني يديك كي ألثمهما...».

كان عدم اكتراث بيا (Pia) وحده- وهي أميرة من سيراكوزا أحبّها بكلّ مشاعره وصميم فؤاده، وشُغفت بكاستروشيو (Castruccio) وكنّت له حبّاً جامحاً لا يقاوَم- يذكّره أحياناً بواقع مرير، ولكنّه جاهد لينساه. وحتّى الأيّام الأخيرة، كان يرتاد أحياناً بعض الحفلات، ظانّاً- وهو يتبختر متأبّطاً ذراعها- أنه يُذلّ خصمَه؛ ولكنّه، بينما كان يمشي قربها، كان يشعر بعينيها العميقتين شاردتين تفكرّان في حبّ آخر تحاول إخفاءه عن المريض الذي تعطف عليه. وآنئذٍ، لم يعد بوسعه أن يخفي أنّه ما كان يقوى على الخروج. ولكنّها غالباً ما كانت تأتي لتزوره، كما لو أنّها شاركت في التواطؤ العاطفيّ الكبير؛ كانت تكلّمه برقّة لبقة لم تعد تكذّبها كما في الماضي صيحةُ لا مبالاتها أو الإفصاح عن غضبها. وأكثر من تلطّفات الآخرين كلّها، كان يشعر بأنّ ما في رقّتها تلك من قدرة على التهدئة يتملّكه ويسحره.

ولكنّه ذات يوم، بينما ترك كرسيّه ليذهب إلى غرفة الطعام، دُهش خادمه لرؤيته يمشي أفضل. فاستدعى الطبيب الذي انتظر كي يبدي رأيه. وفي اليوم التالي صار يمشي بشكل جيّد. وبعد ثمانية أيّام، سُمح له بالخروج من البيت. فعقدَ أقاربه وأصدقاؤه أملاً كبيراً. وظنّ الطبيب أنّ مرضاً عصبياً بسيطاً ربّما، وقابلاً للشفاء، قد أدّى أولاً إلى أعراض الشلل العامّ التي الآن بدأت تزول. وعرض مظانّه لبلدازار كما لو كانت يقيناً،

وقال له:

«لقد نجوتَ!»

وتبدّت على المحكوم عليه بالموت علائم الفرح المتأثّر عندما بُلِّغَ بالعفو. ولكنّه، بعد أن تحسّنت صحته بمدة، راح القلق الحادّ يخترق فرحه الذي أوهنته عادةٌ قصيرة جدّاً. تجنّباً لتقلبّات الحياة، في هذا الجوّ المؤاتي من الرقّة المحيطة ومن الهدوء الإلزاميّ ومن التأمل الحرّ، بدأت الرغبة في الموت تنبت عنده، بصورة غامضة. لقد نأى بنفسه عن الشكّ في ذلك، وشعر فقط بهلع مبهم من فكرة معاودته الحياة، وتكبّده الضربات التي اعتاد نسيانها وإضاعة الملاطفات التي أحيط بها. وشعر أيضاً شعوراً مبهماً أنّه لن يروقه الانغماس في المتعة أو في العمل، لا سيّما وأنّه الآن تعرّف على ذاته، تعرّف على الغريب الأخويّ الذي تحدّث معه لساعات في قرارة نفسه وكان نائياً ودانياً، بينما كان يتطلّع إلى الزوارق وهي تمخر البحر. كأنّي به الآن شعر بحبّ ولاديّ جديد ومجهول الهويّة يستيقظ فيه، شأنه شأن شابّ قد خُدع في موطنه الأوّل، فشعر بحنين إلى الموت أحسّ بأنّه يسير نحوه كما يسير إلى منفى خالد.

أعرب عن فكرته، وناقضه فيها بعنف جان غالياس الذي كان يعلم بشفائه، وسخرَ منه. وكانت أخت زوجته تزوره صباحاً ومساء لمدّة شهرين، ولكنّها الآن بقيت يومين دون أن تأتي لتراه. لقد طفح الكيل! فمنذ أمد طويل لم يعد معتاداً تحمّلَ مكدّرات الحياة، ولم يشأ أن يعود إليها. ذلك أنّها لم تستهوه مباهجُها من جديد. عادت قواه، وعادت معها جميع رغائبه في العيش، فخرج من بيته، وراح من جديد يعيش ومات مرّة ثانية إزاء نفسه. وبعد ذلك بشهر، عادت أعراض الشلل العامّ، وشيئاً فشيئاً، كما في الماضي، أصبح المشي عنده صعباً ومستحيلاً، وتدرّج بسرعة

بحيث لم يستطع أن يعتاد إيابَه إلى الموت وتأمين الوقت الكافي ليُعرض عنه. ولم تسعفه النكسة كما فعلت عندما هاجمه المرض للمرّة الأولى التي في نهايتها بدأ يتجرّد عن الحياة، لا ليراها في واقعها أيضاً، بل لينظر إليها كلوحة فنية. أمّا الآن، وعلى العكس من ذلك، فأصبح أكثر اعتداداً بنفسه، وغضوباً، تنهشه الحسرة لمسرّات لم يعد يقوى على تذوّقها.

وكانت أخت زوجته، التي أحبّها بحنان، تزرع وحدها شيئاً من الرقّة في أيّامه الأخيرة، إذ كانت تزوره عدّة مرّات في اليوم بصحبة ألكسي.

وفي أصيل أحد الأيّام، بينما كانت قادمة لترى الفيكونت، وقبيل وصولها إلى بيته، جفل حصانا عربتها، فسقطت أرضاً سقطة عنيفة، فدهسها فارس كان يعدو فوق حصانه، ونُقلت إلى منزل بالداسار مغشيّاً عليها بجمجمة مفجوجة.

فأتى الحوذيّ، الذي لم يُجرح في الحادث، وأخبر الفيكونت فوراً بما حصل، فامتقع لون وجهه. وصرف بأسنانه وجحظت عيناه البارقتان، فصبّ جام غضبه طويلاً على الحوذيّ؛ ولكن بدا أن شظايا عنفه حاولت أن تخفي نداء أليماً تخلّلها وتبدّى بهدوء. كأنّ ثمة مريضاً شاكياً كان قرب الفيكونت الساخط. وسرعان ما كتمت هذه الشكوى الواهنة أوّلاً صيحاتِ غضبه، فتهاوى على كرسيّ منتحباً.

ثمّ أراد أن يُغسَل له وجهُه كي لا تقلق أخت زوجته من علائم حزنه. فهزّ الخادم رأسه بحزن، لأنّ المريضة لم تُفق من غيبوبتها. فأمضى الفيكونت يومين وليلتين محمّلتين باليأس قرب أخت زوجته. كان بوسعها أن تموت في كلّ لحظة. وفي اللّيلة الثانية أُجرِيت لها عملية خطيرة. وفي صباح اليوم الثالث هبطت الحمّى، ونظرت المريضة إلى بلداسار مبتسمة، فلم يتمالك دموعَه وراح يبكي من الفرح دون توقّف.

وعندما تقدّم الموت نحوه خطوةً خطوةً، لم يشأ أن يراه؛ وفجأةً وجد نفسه أمامه. لقد راعه أن يهدّد أعزّ شخص لديه؛ توسّل إليه فانصاع له.

شعر بأنّه قويّ وحرّ، وفخور بأنّ حياته لم تكن أعزّ من حياة أخت زوجته، وبأنّه يحتقر موته بعد أن حرّك الموتُ الآخرُ شفقتَه. فتفرّس آنذاك في الموت دون أن يبالي بالمشاهد التي ستحيط بموته. أراد أن يبقى كما هو حتّى النهاية دون أن يعاوده الكذب الذي، بإعداده احتضاراً جميلاً ورفيعاً له، فاقَمَ ربّما استباحاته، مدنِّساً أسرار موته، كما كان هذا الكذب قد سلبه أسرار حياته.

IV

«غداً، وغداً، وغداً، وكلّ غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً إثر يوم، حتّى المقطع الأخير من الزمن المكتوب، وكلّ آماسِنا قد أنارت للحمقى المساكين الطريقَ الى الموت والتراب. ألا انطفئي يا شمعةً وجيزة! ما الحياة إلّا ظلّ يمشي، ممثّل مسكين يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح، ثمّ لا يسمعه أحد؛ إنّها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف، ولا تعني أيّ شيء.»[1]

(شكسبير، مكبِث)

انفعالات بلداسار ومتاعبه أثناء مرض أخت زوجته قد سرّعت وتيرة

---

(1) ترجمة جبرا ابراهيم جبرا.

مرضه. وعلم للتوّ من الكاهن الذي تلقّى اعترافاته أنّه لن يعيش أكثر من شهر؛ كانت الساعة العاشرة صباحاً، وكان المطر يهطل مدراراً. توقّفت عربة أمام القصر. وكانت الدوقة أوليفيان. وكان هو قد قال وقتئذ إنّه سيزيّن باتّساقِ مشاهدَ جنازته:

«ستُقام في أمسية صافية. ستكون الشمس قد غربت، وسيكون البحر المرئيّ بين أشجار التفاح بنفسجيّاً. وستطفو في الأفق سحب صغيرة زرقاء ووردية، خفيفةً كأكاليل بهيّة ذاوية ودائمة الأوراق كالحسرات...». وصلت الدوقة أوليفيان الساعة العاشرة صباحاً في طقس مكفهرّ وكالح ينهمر فيه المطر غزيراً؛ ولأنّ المرض قد كدّه، ولأنّه كان منهمكاً بأمور رفيعة، ولأنّه لم يعد يشعر بطلاوة الأشياء التي كانت تبدو له في الماضي ذات قيمة وسحر وشأن ارتبطت بلطائف الحياة، طلب أن يقال للدوقة إنّ المرض اشتدّ عليه. فأصرّت، ولكنّه لم يشأ أن يراها. ولم يكن رفضه ناجماً عن واجب: بل إنّها لم تعد تمثّل شيئاً لديه. بسرعةٍ فصم الموت تلك العلاقات التي خشي منذ أسابيع أن تصبح عبودية. وعندما حاول التفكير فيها، لم يرَ شيئاً يلتمع في عيني عقله: ذلك أنّ عيون خياله وعُجْبه كانت قد انغلقت.

ولكن، قبل وفاته بحوالى أسبوع، أُعلِن عن حفلة راقصة عند دوقة بوهيميا، وفيها كان على بيا (Pia) أن تدير رقصة «الكوتيّون» مع كاستروشيو (Castuccio) الذي كان سيذهب الى الدانمارك في اليوم التالي، ممّا أثار غيرة بالداسار أيّما إثارة. فطلب إحضار بيا؛ ولكنّ أخت زوجته قاومت ذلك قليلاً، فظنّ أنّهم يمنعونه من رؤيتها وأنّهم يضطهدونه، فغضب، ولئلا يُقسى عليه، طلبوا منها أن تأتي فوراً.

وعندما وصلت، كان هادئاً جدّاً، ولكنّ حزنه كان عميقاً. جذبها

قرب سريره وكلّمها فوراً عن حفلة الرقص عند دوقة بوهيميا. قال لها: لو لم تجمعنا قرابة لمنعتكِ من ارتداء ثياب الحداد عليَّ، ولكنّ لي طلباً عندك: لا تذهبي إلى هذه الحفلة، إقطعي وعداً بذلك.

فحدّق كلّ منهما بعينَي الآخر، وكشفا من طرف البؤبؤ عن روحيهما، روحيهما الكئيبتين والملتاعتين اللّتين لم يستطع الموت أن يجمع بينهما.

أدرك تردّدها، فزمّ بألم على شفتيه وقال لها برفق:

- أواه! لا تعديني بالأحرى! لا تخلفي بوعد يُقطع لشخص مشرف على الموت. إذا كنتِ غير واثقة من نفسك، فلا تعدي.

- لا أستطيع ان أعدك، لم أره منذ شهرين وقد لا أراه قطّ من جديد. سأبقى دون عزاء إلى الأبد إن لم أحضر هذه الحفلة.

- أنتِ مُحقّة، بما أنّك تحبّينه، فأنا أستطيع أن أموت... بينما أنت ستعيشين بكلّ ما أوتيتِ من قوّة... ولكنّك ستفعلين شيئاً ولو صغيراً من أجلي؛ من المدّة التي ستقضينها في هذه الحفلة، اقتطعي الوقت الذي كنتِ ستقضينه معي لتلافي الشبهات. وجّهي دعوة إلى روحي كي تستذكر ما بيننا ولو للحظات، فكّري فيّ قليلاً.

- أكاد لا أجرؤ على أن أعدكَ. لن تطول الحفلة. إن لم أغادرها فسأراه لفترة وجيزة. سأخصّك بوقتٍ خلال جميع الأيّام القادمة.

- لن تستطيعي، ستنسينني؛ ولكن بعد سنة، وا حسرتاه! أو ربّما أكثر، إنْ جعلتْكِ قراءة محزنة، أو خبر موت، أو أمسية ماطرة تفكرين فيّ، ستؤدين لي صدقة! لن يسعني من بعد أبداً، أبداً أن أراكِ إلّا في الروح، ولذا يجب أن يفكّر أحدنا في الآخر. أنا سأفكّر فيك دائماً كي تنفتح أمامك روحي دائماً إن طاب لك أن تدلفي إليها. ولكنّ المدعوّة ستتأخّر طويلاً في المجيء! ستفسد الزهور المركونة فوق

قبري، وسيحرقها شهر حزيران وستبكي روحي دائماً من اللهفة. آمل أن توجّه رؤيةُ إحدى الذكريات، أو عودة عيد ميلاد، أو منحدر أفكارك، أن توجّه ذاكرتكِ صوب ديار عاطفتي الرقيقة؛ عندئذ سأكون كأنّني سمعتكِ ولمحتكِ، وستُزهر نشوةٌ في قلبي لمجيئك. فكّري في من سيموت. ولكن أيسعني، يا حسرتي، أن آمل بأنّ الموت وجاذبيتك سيحقّقان ما لم تستطع أن تحقّقه الحياة بهمّتها، ودموعنا، ومسرّاتنا، وشفاهنا؟

V

«ها إنّ قلباً نبيلاً قد تحطّم»
«عِمْ مساءً، أيها الأمير اللّطيف ولتهدهدْ جوقاتُ الملائكة مُنشِدةً سباتَك»

(شكسبير، هاملت)

بيد أنّ حمّى عاتية مصحوبة بهذيان لم تعد تفارق الفيكونت؛ لقد وضعوا سريره في الغرفة المستديرة الفسيحة التي شاهده فيها ألكسي عندما كان في الثالثة عشرة، ورآه جذِلاً، ومنها كان بوسع المريض أن ينظر إلى البحر وإلى رصيف الميناء، وفي الطرف الآخر إلى المراعي والغابات. بين الفينة والأخرى، راح يتكلّم؛ ولكنّ كلامه لم يعد يحمل أثر الأفكار السامية التي طهّرته زيارتُها، خلال السنوات الأخيرة. وفي اللّعنات التي صبّها على شخص غير مرئيّ سخر منه، ما فتىء يكرّر أنه الموسيقيّ الأول في هذا القرن وأنّه سيّد أسياد الكون. وفجأةً، بعد أن هدأ روعه، قال لحوذيّه

أن يأخذه إلى إحدى الحانات المشبوهة وأن يُسرج الأحصنة للصّيد. وطلب ورق رسائل ليدعو إلى العشاء جميع ملوك أوروبا بمناسبة زواجه من أخت دوق بارما؛ ولذعره من عجزه عن تسديد دين في القمار، أخذ قطّاعة الورق الموضوعة قرب السرير وصوّبها نحوه كمسدّس. وبعث برُسلٍ ليستعلموا إن كان الشرطيّ الذي أدّبه هو اللّيلة الفائتة قد مات، وتفوّه ضاحكاً بكلمات ماجنة أمام شخص ظنّ أنه يمسك بيده. ومَلاكا الإبادة هذان اللّذان يُسَمَّيان «إرادة» و«فكراً» ما عادا هنا ليمكّنا الأرواح الشريرة المعشِّشة في حواسّه والانبعاثات الخسيسة لذاكرته من العودة إلى الظلام. وبعد ذلك بثلاثة أيّام، وحوالى الساعة الخامسة صباحاً، استيقظ كأنّه خارج من كابوس لم يفتعله وكان يتذكّره بشكل غامض. فسأل إن كان بعض أصدقاء أقاربه قربه في تلك الساعات التي لم يُسفِر فيها إلّا عن الجزء الوضيع والأكثر قدماً وموتاً من ذاته، وطلب- إن عاوده الهذيان- أن يخرجوهم فوراً وألّا يُدخلوهم إلّا بعد أن يستعيد صوابه.

وجال بعينيه في أرجاء الغرفة ونظر مبتسماً إلى قطّه الأسود الذي اعتلى مزهرية صينية وراح يداعب زهرة أقحوان ويشمّها ويزمّ أنفه. ثمّ أخرج الجميع واختلى طويلاً بالكاهن الذي كان يساهره. ولكنّه رفض تناول القربان بعد أن طلب من الطبيب أن يقول إنّ معدته لم تعد في وضع يتحمّل القربان المقدس. وبعد ساعة نودي لأخت زوجته ولجان غالياس كي يدخلا. وقال:

- أستسلمُ لمشيئة الله، وأنا سعيد بأن أموت وأمثُل أمام الله.

كان الجوّ لطيفاً، ففُتحِت النوافذ المطلّة على البحر دون أن يراه المريض، وبسبب الهواء العاصف تُركت النوافذ المقابلة له والتي تَطلّ على المراعي والغابات مغلقةً.

فطلب بلداسار أن يُجرّ سريرُه قرب النوافذ المفتوحة. وكان ثمّة مركبٌ أنزله البحّارة إلى البحر وكانوا يشدّون الحبل من الرصيف، ثمّ انطلق. وانحنى نوتيّ وسيم يُناهز الخامسة عشْرة بجسمه من طرف البحر؛ وكلّما وصلت موجة كان مَن شاهدوه يظنّون أنه سيسقط في الماء، ولكنّه كان راسخاً على ساقيه المتينتين. كان يشدّ الشبكة ويجذب السمك نحوه ويدخّن غليوناً ساخناً بين شفتيه اللّتين ملّحتهما الريح. وهذه الريح نفسها التي نفخت في الأشرعة رطّبت خدي بلداسار وطيّرت ورقة في الغرفة. فأشاح بنظره كي لا يشاهِد من جديدٍ تلك الصورة السعيدة للمسرّات التي عشقها ولن يعود يتذوّق طعمها. نظر إلى المرفأ: كانت سفينة بثلاث سَوارٍ تتهيّأ للإقلاع.

- هذه هي السفينة التي تبحر نحو الهند، قال جان غالياس.

لم يكن بلداسار يميّز الأشخاص الواقفين على جسر السفينة والذين يرفعون المناديل، ولكنّه كان يستشفّ تعطشَهم إلى المجهول الذي يزرع الرغبة في عيونهم؛ كان أمامهم سنوات طويلة ليعيشوا ويعرفوا ويشعروا. رُفعت المرساة، دوّى صوت، وتهادت السفينة فوق البحر الداكن واتّجهت نحو الغرب، وكان الضوء- في ضباب مذهّب- يمازج بين القوارب والغيوم ويهمس في آذان المسافرين بوعود مبهمة لا تقاوَم.

فأمر بلداسار بأن تُغلق النوافذ من هذه الجهة من الغرفة الدائرية، وبأن تفتح تلك المُطِلّةُ على المراعي والغابات. فنظر إلى الحقول، ولكنّه ما زال يسمع الأصوات العالية التي تودّع سفينة السواري الثلاث، ويرى النوتيّ وغليونه بين أسنانه وكيف يشدّ شباكه.

وكانت يدا بلداسار ترتعشان محمومتين. وفجأةً سمع صوتاً فضيّ الجرس، صوتاً خافتاً وعميقاً هو أشبه بدقّات القلب. كان صوت

نواقيس تقرع في قرية نائية، حمله الهواء النقيّ في ذلك المساء والنسيم المؤاتي، مجتازاً فراسخَ السهول والجداول قبل أن يصل إليه وتلتقطه أذنه المرهفة. كان صوتاً حاضراً وعتيقاً، ثمّ بدأ يسمع قلبه يخفق متجاوباً مع تحليق النواقيس المتساوق، ويتوقّف عندما تبدو وكأنّها تمتصّ الصوت، ثمّ يتصادى معها بعدئذٍ مديداً وخافتاً. طيلة حياته، ما إن كان يسمع صوت النواقيس النائي، حتّى يتذكّر رغماً عنه طلاوتَها في هواء المساء، عندما كان في طفولته المبكّرة يعود إلى القصر من جهة الحقول.

وفي تلك اللّحظة، طلب الطبيب من الجميع أن يقتربوا وقال:

- إنّها النهاية!

كان بلداسار يستريح مغمض العينين، وكان قلبه يصغي إلى النواقيس التي لم تعد أذناه تسمعانها بعد أن شلّها الموتُ الوشيك. وتراءت له أمُّه وهي تقبّله بعد عودته، ثمّ عندما كانت تُرقده في سريره وتدفيء رجليه براحتيها وتبقى قربه إن لم يستطع أن يغفو؛ تذكّر كتاب «روبنسون كروسو» الذي كان يقرأه، وتذكّر أماسي البستان التي كانت أختُه تغنّي فيها، وأقوال مربّيه الذي تنبّأ قائلاً إنّه سيصبح ذات يوم موسيقيّاً كبيراً، وتذكّر تأثُّر والدته التي حاولت عبثاً إخفاءه. لكن لم يعد الوقت مناسباً لتحقيق طموح أمّه وأخته الحماسيّ الذي خذله هو دون رحمة. ورأى من جديد شجرة الزيزفون الكبيرة التي أُعلنت تحتها خطوبتُه، ويومَ فسَخَ خطوبته، وكانت أمّه المرأة الوحيدة التي عرفت كيف تواسيه. ظنّ أنه قبّل خادمته العجوز وأمسك بآلة كمانه الأولى. استعاد كلّ هذا في أفق قصيّ مضيء وناعم وحزين، شأنُه شأنُ النوافذ المطلّة على الحقول التي تنظر إليه دون أن تراه.

لقد استعاد هذا كلّه، ولكن لم تمض ثانيتان بعد أن استمع الطبيب إلى

دقّات قلبه، حتّى قال هذا الأخير:

- إنّها النهاية!

ونهض قائلاً:

- انتهى كلّ شيء.

فجثا ألكسي وأمّه وجان غالياس ودوق بارما الذي وصل لتوّه. وكان الخدم يبكون أمام الباب المفتوح.

أكتوبر 1894

فيولانت أو المجتمع المخمليّ

«لا تخالطْ كثيراً شبّان العالم وأشخاصه... وتجنّبِ الظهور أمام العظماء».

(**الاقتداء بيسوع المسيح**[1]، 54، الكتاب الأوّل، الفصل الثامن)

الفصل الأول
طفولة فيولانت التأمّلية

كانت فيكونتيسة ستيريا كريمة ورقيقة ومفعمة بسِحرٍ آسر. وكان ذهن الفيكونت زوجها متوقّداً، وكانت سيماء وجهه منتظمة رائعة. ولكنّ أدنى تمثالٍ خشبيّ مبرنَق لجنديّ سيكون أرقّ منه وأقلّ خشونة. في المزرعة الريفية الواقعة في منطقة ستيريا ربّيا ابنتهما فيولانت بعيداً عن العالم، وكانت جميلة وحيوية كأبيها وخيّرة وذات جاذبية سرّية كأمها، وبدا أنّها جمعت خصال أبويها بنِسَبٍ متّسقة تماماً. ولكنّ تطلّعات قلبها وذهنها المتقلّبة لم تجد عندها إرادةً توجّهها- دون أن تحدّ منها -، وتمنعها من أن تصبح لعبتها الفاتنة والهشّة. وكانَ وهنُ إرادة فيولانت سيجعلُ والدتَها تشعر بقلق متزايد، لولا أنّ الفيكونتيسة وزوجها هلكا في حادث صيد مروّع، تاركَين فيولانت يتيمة في عمر ناهز الخامسة عشرة. فعاشت

(1) كتاب باللاتينيّة منسوب إلى الراهب توما آ كمبيس Thomas a Kempis (1380؟- 1471؟).

وحيدة نوعاً ما، في ظلّ الحراسة الساهرة والخرقاء لأوغوستان العجوز، مربّيها ومدبّر شؤون قصر ستيريا؛ ولأنّها افتقرت إلى الأصدقاء، جعلت من أحلامها أصحاباً لطفاء وعدتهم بأن تبقى مخلصة لهم طيلة حياتها. كانت تجوّلهم في ممرّات الحديقة، وعبرَ الحقول، وتُجلسهم على الشرفة المطلّة على البحر حيث تنتهي مزرعة ستيريا. هم ربّوها وجعلوها تتخطّى ذاتها، فشعرت بما هو مرئيّ كلّه واستشفّت ما لا يُبصَر. لم يعرف سرورها الحدود، ولكنْ شابته أحزان كانت تمرّر السرور بتؤدة.

الفصل الثاني
الشهوانيّة

«لا تتوكّأ على قصبة تحرّكها الريح ولا تضع فيها ثقتك لأنّ كلّ جسد هو أشبه ما يكون بعشب. ويذهب مجدُه كما تذهب زهرة الحقول».

(الاقتداء بيسوع المسيح)

لم تكن فيولانت ترى أحداً، ما عدا أوغوستان وبضعة أطفال من المنطقة. وحدها خالة لها أصغر من أمّها، وتسكن في قصر جوليانج الواقع على مسافة بضع ساعات من ستيريا، كانت تزور فيولانت. وفي أحد الأيّام الذي ذهبت فيه لتزور ابنة أختها، رافقها أحد أصدقائها. واسمه أونوريه وكان يناهز السادسة عشرة. فلم يعجب فيولانت، ولكنّه عاد مراراً. وبينما كانا يتجولّان في أحد ممرّات الحديقة، علّمها أشياء غير لائقة لم تكن تخطر ببالها. فشعرت بمتعة ناعمة جدّاً، ولكنّها خجلت

منها فوراً. وبعد أن مشيا طويلاً وغربت الشمس، جلسا على مقعد، ربّما لينظرا إلى تموّجات السماء الوردية وهي تلطّف البحر، فاقترب أونوريه من فيولانت كي لا تشعر بالبرد وأغلق بتؤدة أريبة عروة معطف الفرو ليحمي عنقها، واقترح عليها أن تطبّق بإشرافه النظريات التي لقّنها إيّاها في الحديقة. وحاول التحدّث إليها همساً فأدنى شفتيه من أذن فيولانت دون أن تُبعدها؛ ولكنّهما سمعا صوتاً في الأجمة. فقال أونوريه بغُنج: «لا شيء»، فردّت فيولانت: «إنّها خالتي». وكانت الريح. ولكنّ فيولانت التي نهضت، بعد أن أنعشتها تلك الريح، لم ترد أن تجلس ثانيةً واستأذنت من أونوريه، رغم رجائه. وأحسّت بالندم وشعرت بتأزّم أعصابها، وبقيت ليلتين متعاقبتين تجاهد كي تنام. وتماهت ذكراه مع وسادة مُحرقة تقلّبها دون انقطاع. وغداة اليوم الثاني، طلب أونوريه أن يراها. فقالت للخدم أن يقولوا له إنّها ذهبت في نزهة. فلم يصدّق أونوريه شيئاً من ذلك ولم يجرؤ على العودة من بَعد. وفي الصيف التالي، عادت لتفكر برقّة في أونوريه، وحزنت لأنّها عرفت أنّه صار بحّاراً على متن إحدى السفن. وعندما غربت الشمس في البحر، جلست على المقعد الذي قادها إليه قبل عام، وحاولت أن تتذكّر شفتي أونوريه الممطوطتين نحوها، وعينيه الخضراوين شبه المغمضتين، ونظراته المرتحلة كأشعّة انصبّت عليها ومنحتها نوراً حيّاً دافئاً. وفي اللّيالي الناعمة، واللّيالي الفسيحة والسرّية، وعندما كانت تتيقّن من أنّ أحداً لا يراها، كانت رغبتها تحتدم وتسمع صوت أونوريه يهمس في أذنها أشياء محظورة. كانت تستذكره بكامل قامته، كهاجس يدعوها إلى الغواية. وذات مساء أثناء العشاء، نظرت إلى مربّيها الجالس أمامها وتنهّدت قائلة له:

- إنّني شديدة الحزن. لا أحد يحبّني.

فأردف أوغوستان:

- ولكنّني منذ ثمانية أيّام عندما ذهبت إلى قصر جوليانج لأنظّم المكتبة سمعت أحدهم يقول عنكِ: «ما أجملها!».

- من قال هذا، سألت فيولانت بأسى.

فلاحت ابتسامةٌ خجولٌ انزلقت على طرف فمه، كما لو أنّ أحدهم حاول أن يفتح ستارة كي يُدخل إشراقة الصباح.

- قالها ذلك الشابّ الذي زارنا العام الماضي، السيّد أونوريه.

- ظننته يجوب البحار، قالت فيولانت.

- لقد عاد، قال أوغوستان.

فنهضت فيولانت فوراً، وكادت تتهاوى وهي تذهب إلى غرفتها لتكتب إلى أونوريه كي يأتي ليراها. عندما أخذت الريشة، انتابها شعور بالسعادة والقوّة المبهمة، شعور بأنّها ستنظّم شؤون حياتها كما يطيب لها وحسب مزاجها ومن أجل لذّاتها، وبأنّها تستطيع أن تدفع قُدماً دوّامة مصيريهما التي بدت وكأنّها بآلاتها تفصل ما بينهما، وبأنّه سيظهر في اللّيل على الشرفة لا فحسبُ في النشوة العاتية لرغبتها الظمأى، وبأنّ صبابتها الصمّاء- حكايتها الداخلية الدائمة- والأشياء لها فعلاً مساراتٌ مفتوحة ستنطلق هي فيها نحو المستحيل الذي إن خلقته فستجعله قابلاً للعيش. في اليوم التالي استلمت رسالة جوابيّة من أونوريه راحت تقرأها بارتعاش على المقعد الذي قبّلها عليه.

«يا آنستي، استلمتُ رسالتك قبل إبحار سفينتي بساعة. لم ترسُ إلّا لثمانية أيّام، ولن أعود إلّا بعد أربع سنين. أرجوك أن تحفظي ذكرى من يكنّ لك الاحترام والمودّة» (أونوريه).

تفرّست في الشرفة التي لن يأتي إليها ولن يستطيع أحد فيها أن

يغمر شوقها، وحدّقت أيضاً في ذلك البحر الذي أبعده عنها وأعطاها عوضه، في متخيّل الفتاة، شيئاً من سِحره السرّي والحزين الطاغي، سِحر الأشياء التي ليست لنا، والتي تعكس سماوات جمّة وتخشى سواحل جمّة، فأجهشت فيولانت بالبكاء.

وفي المساء قالت:

- يا عزيزي أوغوستان المسكين، وقعت عليَّ مصيبة كبرى.

ونشأ أوّل احتياج للبوح لديها من الخيبات الأولى لصبابتها، كما تنشأ بمنتهى الطبيعيّةِ أشكالُ الرضى الأولى للحبّ. لم تكن قد عرفت الحبّ بَعد. وبُعَيد ذلك، عرفت التباريح، وهي الطريقة الوحيدة التي بها يتعلّم المرء أن يعرفه.

الفصل الثالث
عناء الحبّ

أصبحت فيولانت عاشقة، أي أن شابّاً إنكليزياً اسمه لورانس استحوذ لشهور عديدة على أزهَد أفكارها، وصار هدفاً لأهمّ أفعالها. رافقها ذات مرّة في رحلة صيد ولم تفهم لماذا سيطرت الرغبة في رؤيته على تفكيرها وجُعلتْ تدفعها إلى طرق الالتقاء به وأبعدت عنها النوم وقوّضت راحتها وهناءها. غدت متيّمة، فاستُخِفّ بها. كان لورانس يحبّ العالم المخمليّ فأحبّته هي كي تحذو حذوه. ولكن لورانس ما هفا قلبه لتلك الفلاّحة التي كانت في العشرين من عمرها. فمرضت كمداً وغيرة، وحاولت أن تزجّ لورانس في بحيرة النسيان، ولكن كرامتها جُرحت، إذ فُضّلتْ نساء كثيرات عليها مع أنّهنّ لا يضاهينها، فقرّرت-

لتنتصر عليهنّ- أن تستجمع كلّ مزاياهنّ.

- أغادرك يا عزيزي الطيب أوغوستان لأذهب إلى بلاط مملكة النمسا.

- حمانا الله منه، قال أوغوستان. لن تعود صدقاتك تغمر فقراء هذا الإقليم إن عشتِ وسط جمهور أولئك الأشخاص الأشرار كلّهم. لن تعودي تلاعبين أطفالنا في الغابات. من سيعزف على الأُرغُن في الكنيسة؟ لن نراك بَعدُ ترسمين في الحقول، ولن تلحّني لنا الأغاني.

- لا تقلقْ يا أوغوستان، قالت فيولانت، حافظْ فقط على جمال قصري وفلاحيَّ في ستيريا كي يبقوا رائعين ومخلصين. العالم الراقي في نظري ليس إلّا وسيلة. إنه يعطي أسلحة تافهة ولكنّها لا تُقهَر، وإذا أردتُ ذات يوم أن أحبّ فلا بدّ لي من امتلاك هذه الأسلحة. لديّ فضول يدفعني إليه أيضاً، وكأن لديّ حاجة إلى أن أعيش حياة أكثر واقعية نوعاً ما، وأقلّ حصافة من حياتي الآن. ما أبغيه هو الراحة والتعلّم. وما إن أحقّق هدفي وتنتهي إجازتي، حتّى أغادر العالم الراقي لأعود إلى الريف وإلى أناسنا البسطاء الطيّبين وإلى ما أفضّله على كلّ شيء: أغانيّ. وفي لحظة معيّنة قريبة، سأتوقّف في هذا السفح وأعود إلى أرض ستيريا، أرضنا، لأعيش قربك، يا عزيزي.

- هل ستستطيعين ذلك؟ قال أوغوستان.

- يستطيع المرء ما يريده، قالت فيولانت.

- ولكنّك عندئذ لن تريدي ربّما الشيء ذاته، قال أوغوستان.

- لماذا؟ سألت فيولانت.

- لأنّك تكونين قد تغيّرتِ»، قال أوغوستان.

الفصل الرابع
الحياة المخمليّة

نساء العالم المخمليّ هنّ على درجة عالية من التفاهة، بحيث لم يكن على فيولانت سوى أن تتنازل وتختلط بهنّ لتكسف أغلبهنّ. الأكابر الذين يتعذّر الوصول إليهم والفنّانون الأكثر وحشية تقرّبوا منها وغازلوها. هي وحدها التي كانت تتمتّع بذكاء وذوق ومشية توقظ الفكرة القائلة بأنّها كاملة الأوصاف. أطلقت ملهاواتٍ وعطوراً وفساتين. والتمست الخياطاتُ حظوتَها، وكذا فعل الكتّاب والحلّاقون. ورجتْها أشهر مصمّمة أزياء في النمسا أن تكلّفها بتفصيل ثيابها. وطلب منها أعظم أمراء أوروبا أن تأذن له بأن يُلَقّب عاشقاً لها. فرأت من واجبها أن تحجب هاتين المكرمتين عنهما لأنّهما كانتا ستكرّسان مقامهما إلى الأبد. ومن بين الشبّان الذين طلبوا مقابلة فيولانت، تميّز لورانس بإلحاحه. فبعد أن سبّب لها حزناً عميقاً، شعرت تجاهه بشيء من التقزّز. فاستبعدتها عنه خِسّتُه أكثر ممّا فعلت جميع ازدراءاته، وحدّثت نفسها قائلة: «لا يحقّ لي أن أسخط. لم أحبّه لشهامته وشعرت تماماً بأنّه خسيس، دون أن أجرؤ على الاعتراف بذلك. ولم يمنعني هذا من حبّه، بل فقط من حبّ شهامته بالقدر ذاته. ظننتُ أن المرء يستطيع أن يكون نذلاً ولطيفاً في آن. غير أنّنا ما إن نفقد الحبّ لأحدٍ حتّى نعود لنفضّل أصحاب القلوب. كان هوى هذا النذل غريباً لأنّه صدر عن الرأس فقط، ولا يشفع فيه أن أضلّته الحواسّ. قيمة الحبّ الأفلاطونيّ زهيدة جدّاً». وسنرى أنّها لاحقاً، تمكّنت من اعتبار

الحبّ الحسّيّ أقلّ قيمةً هو الآخر.

جاء أوغوستان ليراها وأراد أن يعيدها إلى ستيريا. فقال لها:

- لقد فتحتِ مملكةً حقيقية. ألا يكفيكِ هذا؟ ليتكِ تعودين فيولانت الزمن الغابر.

فأردفت فيولانت:

- لقد فتحتُها فعلاً يا أوغوستان، اتركني على الأقلّ أمارس السلطة فيها لبضعة شهور.

ووقعت حادثة لم يتوقّعها أوغوستان حالت لزمن دون أن تفكّر فيولانت في العودة. فبعد أن صدّت عشرين عاهلاً من أصحاب السموّ، ومثلهم من الأمراء العظيمي الشأن، وأحد العباقرة، ممّن طلبوا يدها، تزوّجت دوق بوهيميا الذي كان على جانب كبير من الجاذبيّة بالإضافة إلى الخمسة ملايين دوكا التي يملكها. وكاد خبر عودة أونوريه يبطل الزواج الذي عُقد قبل ذلك بيوم. ولكنّه كان مصاباً بمرض شوّه جسمه وجعل فيولانت تمقتُ مؤانسته. فبكت لتفاهة رغباتها الملتهبة التي كانت تحملها إلى ذلك الجسد الذي كانت بالأمس تبدو براعمه والذي ذوى إلى الأبد. وبقيت دوقة بوهيميا ساحرة كما كانت فيولانت ستيريا، وما كان من شأن ثروة الدوق الطائلة إلّا أن تكون إطاراً يليق بالتحفة الفنية التي تُجسّدها. وتحوّلت من رائعة فنّية إلى تحفة باذخة بمقتضى هذا القانون الطبيعيّ الذي يجعل أشياء هذا العالم تنحدر إلى الدركات السفلى عندما لا يقيم أيّ جهد نبيل توازنها أعلى من ذاتها. وكان أوغوستان يَعجب من كلّ ما يسمعه عنها. فكتب لها: «لماذا تتحدّث الدوقة دائماً عن أشياء كانت فيولانت تحتقرها أيّما احتقار؟».

فردّت عليه فيولانت: «لأنّ بريق الإعجاب قد يخبو مع اهتمامات

تكون بباعثٍ من رفعة مقامها مكروهة لا يفهمها الناس الذين يعيشون في المجتمع الراقي. ولكنّني أشعر بالملل، يا عزيزي أوغوستان».

وأتى لزيارتها، فشرح لها لماذا كانت تشعر بالملل:

- إنّ ولعكِ بالموسيقى والتفكير والأعمال الخيرية والوحدة والريف، تفتقرين الآن إليه. أنت منهمكة بنجاحك وتأسرك المتعة. ولكنّ المرء لا يجد السعادة إلّا عندما يمارس ما يحبّ ويحقّق الرغائب العميقة لروحه.

- كيف تعرف ذلك، وأنت لم تعشْ؟ قالت فيولانت.

قال أوغوستان:

- فكرتُ وهذا يعني أنّني عشت تماماً. ولكنّني آمل أن تَقرفي عما قريب من هذه الحياة التافهة.

وازداد ملل فيولانت، وفقدت مرحها. عندئذ سيطر عليها التفكير في فساد أخلاق هذا العالم المخمليّ، الذي لم تعبأ به سابقاً، وأثخنها بالجراح، كما تسحق قسوةُ الفصولِ الأجسادَ التي يجعلها المرض عاجزة عن المقاومة. وذات يوم، بينما كانت تتنزّه وحدها في أحد الشوارع العريضة شبه الموحشة، نزلت امرأة من عربة لم تلمحها في البداية، وتوجّهت مباشرةً نحو فيولانت. وبادرتها سائلة إن كانت هي فعلاً فيولانت دو بوهيميا، وقالت لها إنّها كانت صديقة أمّها وإنّها رغبت في أن ترى ثانيةً فيولانت الصغيرة التي كانت هي أجلستها في حضنها. وقبّلتها بشغف وطوّقت خصرها وراحت تكثر من تقبيلها، فأفلتت منها فيولانت وحثّت الخطى دون أن تودّعها. وفي مساء اليوم التالي، حضرت فيولانت حفلة أقيمت على شرف أميرة ميسينا، التي لم تكن هي تعرفها. وأدركت أنّ الأميرة هي تلك السيّدة المقيتة. وقالت لها عجوز من المجتمع الراقي

كانت فيولانت تقدّرها:

- هل تريدين أن أقدّمك إلى أميرة ميسينا؟

- لا، لا، قالت فيولانت.

- لا تخجلي، قالت لها. إنّني متأكدة أنّك ستعجبينها. إنّها تحبّ النساء الجميلات كثيراً.

ومنذ ذلك اليوم، صار لها عدوّتان لدودتان، أميرة ميسينا وهذه العجوز اللّتان صوّرتاها كوحش متعجرف ومتهتّك. وعلمت فيولانت بذلك، فبكت على حالها وعلى خبث النساء، هي التي كانت منذ مدّة طويلة، قد عرفت كيف تجابه خبث الرجال. ثمّ في إحدى الأماسي قالت لزوجها:

- سنذهب بعد غد إلى موطني، ستيريا، ولن نبرحها.

ثمّ شغلتها عن ذاك حفلةٌ ربّما أعجبتها أكثر من غيرها، أو فستانٌ ربّما كان أجمل من سواه وأكثر استحقاقاً لأن ترتديه. إنّ حاجتها العميقة إلى الخيال والإبداع والعيش وحدها والاستسلام إلى التفكير والتضحية، مع معاناتها من أنّ هذه الحاجة لم تُشبَع، ومع أنّها كانت تمنعها من أن تجد في هذا العالم الراقي أيّ بريق فرح، قد أصابها الوهنُ ولم تعد قادرة على جعلها تغيّر حياتها وتتخلّى عن العالم الراقي لتحقّق قدَرها الحقيقيّ. واستمرّت في عرض المشهد الباذخ والموحش لوجودٍ صُنع للّانهاية وكاد يقصر تدريجيّاً على العدم، وتبدّت لها فقط الظلال الكئيبة لقدَر نبيل كان بوسعها أن تحقّقه وتناءت عنه أكثر فأكثر. وإنّ التحرّك الكبير لمحبّة طافحة قادرة على غسل قلبها كما يغسل المدّ الشاطئ، وعلى تسوية جميع أشكال التفاوت البشريّ الذي يسدّ قلب المجتمع المخمليّ، قد حال دونه ألف سدّ وسد من سدود الأنانيّة والغُنج والطموح. ولم تعد الطيبة

تروق لها إلّا كأناقة. صحيح أنّها كانت ما تزال مستعدّة لأن تتصدّق بشيء من مالها وعنائها ووقتها، ولكنّ جزءاً كاملاً من ذاتها بقي محجوزاً، ولم تعد تمتلكه. كانت تقرأ وتحلم صباحاً وهي في سريرها، ولكن بذهنٍ زائفٍ صارَ يتوقّف عند الأشياء من الخارج وينظر في ذاته لا ليعمّقها وإنما ليُعجب بها بتلذّذ ودلال كما لو أنّها كانت أمام مرآة. وإنْ أُخبرت بزيارة لها لم تكن تجد لديها إرادة لصرفها كي تستمرّ في أحلامها وقراءتها. وبلغ بها الأمر إلى حدّ فقدان استمتاعها بالطبيعة إلّا بحواسّ منحرفة؛ وتلاشى لديها سحر الفصول إلّا ليعطّر أفانين أناقتها ويعطيها ألوانها. وتحوّل سِحر الشتاء إلى متعة الشعور بالبرد، وأغلقت بهجةُ الصيد قلبَها على أحزان الخريف. وأحياناً، بينما تمشي وحدها في الغابة، كانت تبغي استعادة المصدر الطبيعيّ للمسرّات الحقيقية. ولكنّها في الأجمات الحالكة، كانت تتّشح بفساتين متلألئة. ومتعة الأناقة كانت تقطع فرحها بأنّها وحدها وبأنّها تحلم.

سألها الدوق:

- هل نسافر غداً؟

- بعد غد، أجابت فيولانت.

ثمّ كفّ الدوق عن سؤالها. وكتبت لأوغوستان المنتحب إثرَها: «سأعود متى تقدّمتُ في السنّ».

- «آه، أجابها، ستمنحينهم طوعاً شبابك، لن تعودي البتّة إلى قصرك في ستيريا».

ولم تعد إليه قطّ. في شبابها، بقيت في العالم الراقي لتمارس سلطة أناقتها الملكية التي حصلت عليها في مقتبلِ صِباها. وعندما شاخت، بقيت فيه كي تدافع عنها. ولكن عبثاً، لأنّها فقدتها. وعندما توفّيت كانت لا تزال

تحاول أن تستعيد هذه الأناقة. لقد راهن أوغوستان على إمكان أن تتقزّز فيولانت من العالم الراقي فتغادره. ولكنّه لم يحسب حسابَ قوّة عندما تتغذّى في البدء بالغرور تنتصر على التقزّز والاحتقار والملل أيضاً، ألا وهي العادة.

أغسطس 1892

شذرات من كوميديا إيطالية

«مثلما يفقد السرطان والحَمَل والعقرب والميزان والدلو كلّ خِسّتها عندما تظهر رموزاً في دائرة البروج، كذلك يستطيع المرء أن يرى دون غضبٍ عيوبَه الخاصّة في شخوص بعيدين عنه...».

(إميرسون[1])

1
عشيقات فابريس

كانت عشيقة فابريس ذكيّة وجميلة؛ ولم يستطع أن يجد سلوى من ذلك، فكان يهتف منتحباً: «لا بدّ أنّها لا تفهم نفسها! جمالُها أفسدَه عليَّ ذكاؤها؛ هل سأظلّ شغوفاً بالجوكوندا عندما أنظر إليها، إذا كان عليّ في الوقت ذاته أن أسمع ديباجة أحد النقاد، وإن يكن رائعاً؟» فهجرها واتّخذ له عشيقة أخرى كانت جميلة وحمقاء. ولكنّها كانت تمنعه دائماً من الاستمتاع بجمالها بسبب قلّة ذوقها الفاحشة. ثمّ طمحت إلى الذّكاء، فقرأت كثيراً، وأصبحت متحذلقة وصارت مثقّفة مثل عشيقته الأولى، ولكن بسلاسة أقلّ وبارتكابها أفعالاً خرقاء مضحكة. فطلب منها أن تسكت: فحتّى

(1) كان بروست في شبابه شديد الإعجاب بكتاب مقالات في الفلسفة الأمريكية لإميرسون. واستشهد به مرّات عديدة في هذا الكتاب. أمّا المواضيع الإيطالية فكانت شائعة في عصر بروست.

عندما لم تكن تتكلّم، كان جمالها يعكس غباءها بصورة فاجعة. ثمّ تعرّف على امرأة لم يكن ذكاؤها يفضحه إلّا جمالٌ أكثر فطنة، وكانت قانعة بحياتها لا تبدِّد في أحاديث شديدة الدقّة سرَّ طبيعتها الساحر. كانت وادعة كالحيوانات الجميلة والرشيقة، وكان لها عينان عميقتان، نافذتا الأثر كما تكون في الصباح الذكرى الهائمة والقويّة لأحلامنا. ولكنّها لم تكلِّف خاطرها بأن تفعل له ما فعلته العشيقتان الأخريان: أي أن تحبّه.

2
صديقات الكونتيسة ميرتو (Myrto)

ميرتو امرأة نبيهة وطيّبة وجميلة وتبدو متأنّقة، وتفضّل بارتينيس (Parthénis) على صديقاتها الأخريات، فهي دوقة وألمع منها؛ بيد أنّها تروقها صحبةُ لالاجيه (Lalagé)، التي تضاهيها تماماً في الأناقة؛ كما لم تكن ميرتو غير آبهة بمَلاحة كليانتيس (Cléanthis) الغامضة التي لا تصبو لمقام لامع. ولكنّ ميرتو لم تكن تُطيق دوريس (Doris)، التي كان وضعها بين علْية القوم أدنى بقليلٍ من وضع ميرتو، وكانت تتقرّب من هذه، مثلما كانت ميرتو تتقرّب من بارتينيس بباعثٍ من علوّ أناقتها.

وإذا لاحظنا عند ميرتو أشكال التفضيل والنفور هذه، فلأنّ الدوقة بارتينيس لم تكن صحبتها تزيد مزايا ميرتو فحسبُ، بل هي أيضاً لم تكن تقدِر على حبّها إلّا لذاتها؛ ولأنّ لالاجيه تستطيع أن تحبّها لذاتها، وكذلك لأنّهما تزاملتا وكانتا في المقام نفسه، فكانتا تحتاجان إحداهما للأُخرى؛ وأخيراً لأنّ ميرتو إذا كانت أحبّت كليانتيس فلأنّ هذا يُشعرها بزهوٍ بأنّها قادرة على التجرّد وعلى اكتساب ذوق حقيقيّ وعلى الفهم والحبّ، وبأنّها

على جانب من الأناقة بحيث تستطيع - إذا اقتضى الأمر - أن تستغني عن الأناقة. أمّا دوريس فكانت تنشد رغباتها في التأنّق، دون أن تقوى على تلبيتها؛ وإن أتت إلى ميرتو ككُليبٍ مهارشٍ قرب كلب سلوقيّ تحصي أضلاعه فلكي تجسّ نبض هؤلاء الدوقات كي تخطف واحدة منهنّ إن استطاعت؛ وإذ كانت تعاني كميرتو تفاوتاً شنيعاً بين مقامها والمقام الذي تصبو إليه، فهي كانت أخيراً تُريها صورة ما تفتقر إليه. فالصداقة التي كانت ميرتو تكنّها لبارتيتيس، كانت ميرتو تراها بانزعاج في المراعاة التي تظهرها لها دوريس. وكانت لالاجيه وحتّى كليانتيس تذكّرانها بأنّ أحلامها كانت طموحة، وبدأت بارتينيس على الأقلّ بتحقيقها: في حين أنّ دوريس لم تكن توحي لها إلّا بوضاعة مقامها. ولاغتياظ ميرتو من أن تلعب دور الحامية المسلّي، كانت تشعر تجاه دوريس بالمشاعر ذاتها التي كانت بارتينيس تكنّها لميرتو فعلاً، لو لم تكن بارتينيس مترفّعةً عن النّفاجة: إنّها تمقتها.

3

إلديمون وأديلجيز وإركول

(Heldémone, Adelgise, Ercole)

شهدت إركول حادثاً على جانب من الخفّة، ولكنّها لم تجرؤ على روايته للدوقة أديلجيز، بيد أنّها لم تتورّع عن قصّه للغانية إلديمون. فصاحت أديلجيز:

- يا إركول، ألا تظنّين أنّني قادرة على سماع هذه القصّة؟ آه! إنّني متأكدة من أنّك ستفعلين شيئاً مختلفاً مع الغانية إلديمون، إنّكِ

تحترمينني ولكنّك لا تحبّينني.

فهتفت إلديمون:

- يا إركول، ألا تخجلين من أن تحجبي عنّي هذه القصة؟ احكمي أنتِ بنفسك، أتتصرّفين هكذا مع الدوقة إديلجيز؟ إنّك لا تحترمينني: إذن أنت لا تحبّينني.

4
المتقلّب

إنّ فابريس الذي أراد أن يحبّ بياتريس حبّاً أبديّاً، والذي اعتقد ذلك حقّاً، خامره الاعتقاد ذاته عندما أحبّ لستّة أشهر كلّاً من هيبوليتا وبربارا وكليليا. عندئذ حاول أن يجد في الخصال الحقيقية لبياتريس سبباً يجعله يؤمن بأنّه، بعد أفول غرامه، سيستمرّ في التردّد إليها، ظنّاً منه أنّ حياته دون أن يراها ذات يوم لا تتوافق مع شعور يتوهّم أنّه خالد. ثمّ إنّه لم يشأ، كرجل أنانيّ فطنٍ، أن يضحّي بنفسه كاملة، بما فيها من أفكار وأفعال ومقاصد تشمل كلّ دقيقة من حياته، وبما فيها من مشاريع لجميع فترات المستقبل، أن يضحّي بهذا كلّه لخليلة يرافقها لبضع ساعات فقط؛ ولكنّ بياتريس كانت على جانب من الفطنة والحكمة: «عندما سأكفّ عن حبّها، سأشعر بمتعة التحدّث إليها عن الأخريات، وعنها هي، وعن حبّي الراحل لها...» (الذي سينبعث بالتالي من قبره ويتحوّل إلى صداقة أكثر ديمومة، كما كان هو يأمل). ولكن بعد أن انتهى غرامه ببياتريس، بقي سنتين دون أن يذهب إلى منزلها، ودون أن يرغب في ذلك، ودون أن يتألّم من فقدان هذه الرغبة. وعندما أُجبر ذات يوم على أن يذهب

ويراها، تبرّم وبقي عشر دقائق عندها. ذلك أنّه كان يهجس ليلَ نهارَ بجوليا العديمة الفطنة بشكل فريد، والتي كان شعرها الشاحب يفوح برائحة زكيّة كعشب ناعم، والتي كانت عيناها بريئتين كزهرتين.

5

***[1]

الحياة سهلة ورقيقة بغرابة مع بعض الأشخاص المتميّزين في طبيعتهم والفطنين والمفعمين حناناً، ولكنّهم قادرون على جميع السيّئات مع أنّهم لا يُقْدِمون على أيّة واحدة منها علناً، ولا يستطيع أحد تأكيدها عنهم. إنّهم يتمتّعون بشيءٍ مرنٍ وسرّي. ثمّ إنّ فسادهم يطبع بالإثارة مشاغلهم الأكثر براءة، كالتنزّه أثناء اللّيل في الحقول مثلاً.

6

شموع ضائعة

I

رأيتكِ يا سيداليز (Cydalise) منذ قليلٍ للمرّة الأولى، وأعجبني أوّلاً شعركِ الأشقر الذي يشبه قبّعة ذهبية تعتلي رأسك الطفوليّ الطّاهر الأسيان. وكان ثوبك المخمليّ الأحمر الباهت يلطّف ذلك الرأس الفريد الذي بدت فيه جفونك المنغلقة كأنّها تخفي سرّه إلى الأبد. ولكنّك رفعتِ

(1) كلّ نصّ مستهلّ بنجميّات كهذه هو في الأصل بلا عنوان.

ناظريكِ، فوقعا عليّ يا سيداليز، وفي العينين اللّتين رأيتُهما عندئذٍ بدا لي أنّني كنتُ ألمحُ صفاء الصباحات النّضِر، والمياه المنسابة إبّان النهارات الجميلة الأولى. كانتا كمثْلِ عينين لم تَبصرا قطّ شيئاً ممّا اعتادت جميع العيون البشرية أن تعكسه، عينين عذراوين ما زالتا تجهلان التجربة الأرضية. ولكن عندما أمعنتُ النظر فيكِ، بدا لي أنّك تعبّرين بخاصّة عن عنصر محبّ ومتألّم، لفتاةٍ رفضت الجنيّات أن يهبنها ما ابتغته، قبل أن تولَد. والثياب التي تلبسينها بالذّات لها رونق أليم، وتكتئب فوق ذراعيك بخاصّة، ذراعيكِ اللّتين خارت عزيمتُهما فبقيتا بسيطتين وساحرتين. ثمّ تصوّرتكِ أميرة قَدِمَتْ من البعيد البعيد وعبرتِ القرون، أميرة تشعر هنا بالسأم الدائم وتذعن له، أميرة تتسربل بثيابٍ ذات انسجام قديم ونادر وسرعان ما يتحوّل التأمّل فيها بالعينين عادة رائقة ومُسْكِرة. حبّذا لو حكيتِ لي أحلامَكِ وسأمكِ. حبّذا لو رأيتكِ تمسكين بيدكِ جاماً أو بالأحرى أحد هذه الأباريق ذات الشكل السامق والحزين، التي تقف الآن فارغةً في متاحفنا، فيما ترفع بأناقةٍ لا طائل فيها كأساً منهَكةً كانت في الماضي مثلك تثير الصبابة النديّة في ولائم مدينة البندقية، وكأنّ آخِر أزهار البنفسج والورد ما زالت تطفو فوقها في التيّار الرقراق للكأس الراغية المتعكّرة.

II

«كيف تستطيع أن تفضّل هيبوليتا على الخمس الأخريات اللّواتي تكلّمتُ عنهنّ منذ قليل واللّواتي لا يداني جمالَهنّ أيّ شكّ في مدينة فيرونا؟ أوّلاً أنفها طويل جدّاً ومعقوف جدّاً».- أضف إلى ذلك أنّ

بشرتها شديدة النعومة، وأنّ شفتها العليا شديدة الرقّة وتشدّ فمها إلى الأعلى عندما تضحك فيُشكل زاوية حادّة جدّاً. بيد أنّ ضحكتها تذهلني، وتجعلني أعطافُ النساءِ الرائقةُ بارداً بالمقارنة مع خطّ أنفها المعقوف أكثر ممّا ينبغي حسب رأيك، في حين أراه أنا مؤثّراً ويذكّر بمنقار الطائر. ورأسها فيه هو أيضاً شيء من رأس الطير، فهو متطاول من جبينها حتّى رقبتها الفاتحة اللّون، يضاف إلى ذلك أنّ عينيها حادّتان وناعمتان. وغالباً ما تسند مرفقها في المسرح إلى متّكأ المقصورة؛ وذراعها التي تلبس قفازاً أبيض، تشرئبّ لتصل إلى ذقنها الذي تدعمه سلاميّات يدها. وجسمها الكامل الأوصاف ينفخ الشفّ الأبيض المعتاد كأجنحة مبسوطة. فنحسبه طائراً يحلم فوق قائمة أنيقة ورفيعة. ومن السّحر بمكانٍ أن نرى مروحتها المصنوعة من الريش تختلج قربها وتحرّك جناحها الأبيض. لم أتمكن قطّ من الالتقاء بأبنائها أو أبناء إخوتها الذين أنوفهم جميعهم معقوفة وشفاههم رقيقة وعيونهم نافذة وبشراتهم ناعمة جدّاً، دون أن أضطرب لكوني أتعرّف في سيمائهم على سلالتها المتحدّرة ربّما من إلهة أو طائر. وعبر التحوّل الذي يجتذب اليوم بعض الرغبة نحو هذا الشكل النسائيّ، أتعرّف على الرأس الملكيّ للطاووس الذي لم يعد ينساب من خلفه العبابُ الأزرق أو الأخضر للبحر، أو زبد ريشه الأسطوريّ. إنّها توحي بكائن خرافيّ يختلج فيه الجمال.

7
النفّاجون

I

لا تخفي المرأة حبّها للحفلات الراقصة وسباق الخيل وحتّى للقمار. تصرّح بذلك أو تعترف به ببساطة أو تزهو به. ولكن لا تحاولوا أن تدفعوها إلى القول إنّها تحبّ الترف، فستحتدّ وتغضب من ذلك. هذا هو الضعف الوحيد الذي تخفيه بكلّ ما استطاعت من قوّة، ربّما لأنّه وحده يصفع غرورها. تقبل بأن يسترقّها ورق اللّعب وليس الذّوقات. ولأنّها ترتكب أشياء جنونيّة، فهي تحسب أنّها ليست أدنى من أحد؛ بيد أنّ نفاجتها تقضي على العكس من ذلك بأنّه يوجد أناس هي دونهم أو يمكن أن تصبح دونهم، إن لم تتمالك نفسها. قد تصرّح امرأة من هذا الصّنف بأنّ الترف ضرب من الغباء المستفحل وتسخّر من أجله رهافة وذكاء وبصيرة تستطيع أن تكتب بفضلها حكاية جميلة أو تبرع في تنويع ملذّات عشيقها ومنغّصاته.

II

ترتاع النساء الأريبات من أن يتمكّن أحدهم من اتّهامهنّ بحبّ الترف، الذي لا يذكرنه أبداً باسمه؛ فيهرعن في الحديث إلى الخوض في أسلوب الكناية لتجنّب ذكر ذلك العشيق الذي قد يورّطهنّ. فيتهافتن عند الحاجة إلى كلمة «أناقة» التي تُبعد الشبهات وتبدو وكأنّها على الأقلّ

سبب فنيّ في ترتيب حياتهنّ، ولا شأن له بالغرور. وحدهنّ اللّواتي لم يفزن بالتّرف أو اللّواتي فقدنه، يذكرن اسمه في غلواء العاشقات المتعطّشات أو المهجورات. وعلى هذا النحو فإنّ بعض النساء الشابّات اللّواتي يُقْدمن على البحث عنه أو بعض النساء المسنّات اللّواتي يعاودن السقوط فيه يتكلّمن تلقائياً عن التّرف الذي حصلت عليه الأخريات، والأدهى، عن ذلك الذي لم يحصلن عليه. والحقّ، فلئنْ كان التكلّم عن التّرف الذي لم تحصل عليه الأخريات يُمْتعهنّ أكثر، فإنّ التكلّم عن ذلك الذي حصلت عليه الأخريات يغذّيهنّ أكثر ويزوّد خيالهنّ المسعور بغذاء أكثر واقعية. رأيت بعضهنّ يُثير فيهنّ التفكير في خواتم إحدى الدوقات ارتعاشاتِ متعةٍ أكثر من نار الغيرة. ويبدو أنّ في الريف صاحبات دكاكين تحبِس أدمغتهنّ- كما في قفص ضيّق- رغباتِ ملتهبة نحو التّرف كتلك التي للضّواري. يأتيهنّ ساعي البريد بجريدة الغولوا *Gaulois*. فيلتهمن أخبار الأناقة بسرعة البرق. وهنا تبدو الريفيّات القلقات وقد شبعنَ فتلتمع في حدقاتهنّ المحملقة لفرط المتعة والإعجاب نظرات مفعمة انشراحاً لساعة بأكملها.

III
ضدّ امرأة نفّاجة

إذا لم تكونوا تنتمون إلى المجتمع المخمليّ، وحدّثكم أحدهم قائلاً إنّ إليانت (Elianthe) الشابّة الجميلة والغنيّة التي يحبّها أصدقاؤها وعشّاقها كما هي، قطعت صلتها بهم فجأةً، وتوسّلت دون انقطاع أن تنال حظوة لدى الرجال وعانت دون نفاد صبرٍ جفاء الرجال، القُبَحاء أو المسنّين

والأغنياء الذين لا تكاد تعرفهم، وقامت بالأفعال الشاقّة كي تعجبهم، وجُنّت بهم وتمثّلته بحكمةٍ وصارت بطول أناتها صديقتهم، وسندهم إن كانوا فقراء، وعشيقتهم إن كانوا شهوانيّين، فستفكّرون قائلين: أيّة جريمة ارتكبت إليانت إذن، ومن هم هؤلاء القضاة التي ينبغي عليها بأيّ شكل من الأشكال أن ترشيَهم وأن تضحّي في سبيلهم بصداقاتها وبغراميّاتها وبحرية تفكيرها وكرامة حياتها وثروتها ووقتها واشمئزازاتها الحميميّة كامرأة؟ بيد أنّ إليانت لم ترتكب أيّة جريمة. والقضاة الذين تصرّ على إفسادهم لم يفكّروا قطّ فيها وكانوا سيتركونها تطوي بهدوءٍ حياتها الجذلى والطاهرة. ولكن نزلت عليها لعنة هائلة: إنّها نفّاجة.

IV

إلى امرأة نفّاجة

إنّ روحكِ- إن أمكن استخدام كلمات تولستوي- هي دغل مظلم. ولكنّ أشجاره من نوع خاصّ، إنّها أشجار أنساب. هل قيل لكِ إنّ الدغل لا طائل فيه؟ ولكنّ الكون بأسره ليس فارغاً أمامكِ، إنه مليء بشعارات النبالة. وهذا مفهوم من مفاهيم العالم البرّاقة والرمزيّة إلى حدّ ما. أليس لكِ استيهاماتك التي هي بشكل الضواري التي تُرسم على شعارات الأنساب، وبِلونها؟ ألستِ متعلّمة؟ من الحوليّات «تو باري» و«غوتا» و«هاي لايف» عرفت بوجود كتاب بوبّيه[1]. عندما قرأتِ

(1) كانت الحوليّتان *Tout Paris* («كلّ باريس») و*High-Life* («الحياة الراقية») تقدّمان أخبار المجتمع الباريسيّ [أو كلّ ما يجب أن يعرفه المرء حول باريس ومجتمعها ومهنها والأعمال فيها...]. الحوليّة *Gotha* كانت تصدر في ألمانيا وتتكلّم عن أنساب العائلات الارستقراطية والأوساط الدبلوماسية في أوروبا. أمّا بوبّيه Bouillet فكان أستاذاً =

أخبار المعارك التي انتصر فيها الأجداد، وجدتِ أسماء أحفادهم الذين كنتِ تدعينهم للعشاء، وبهذه الطريقة في الاستذكار جعلتِ تاريخ فرنسا برمّته يدوّي. وهذا أدّى إلى نوع من العظمة في حرّيتكِ، ومن الأحلام الطموحة التي ضحّيتِ من أجلها بحرّيتكِ، وبساعات انشراحكِ وتفكيركِ، وبصداقاتكِ، وحتّى بالحبّ. ذلك أنّ صورة أصدقائك الجدد ترتبط في تخيّلكِ بسلسلة طويلة من بورتريهات الأجداد. وشجرات العائلة التي تنمّينها بحرص شديد، والتي منها تقطفين ثماراً بهيجة في كلّ عام، تضرب جذورها عميقاً في أقدم أرض في فرنسا. وبحلمكِ هذا يتكافل الحاضر مع الماضي. وروح الحروب الدينية تُنعش عندك الوجوه التافهة المعاصرة، وإذا قرأتِ بصورة محمومة دفاتر الزيارة التي تستعيدينها، ألا تشعرين بأنّ فرنسا الغابرة الباذخة تستيقظ أمام كلّ اسم تستعرضينه وترتعش وتكاد تطرب، كامرأة ميتة رُفعَ رفاتها من تحت بلاطة نُقش عليها شعارُكِ؟

8

أورانت (Oranthe)

ألم تنم هذه اللّيلة وألم تغتسل بعد هذا الصباح؟

لماذا تجهر بذلك، يا أورانت؟

أتظنّ، أنت المتألّق الموهبة، أنّك بذلك لا تتميّز كثيراً عن سائر الناس وأنّه ينبغي عليك أن تواصل تمثيل دور شخصيّة رثّة؟

= فرنسيّاً عالماً بالألفاظ، وضع كتباً عديدة بينها «المعجم العالميّ للتاريخ والجغرافية» (1842) والأرجح أنّه هو الذي يقصده بروست.

دائنوكَ يطاردونك، وخياناتك الزوجية تدفع بزوجتك إلى حافّة اليأس، وارتداؤكَ ملبساً هو في نظركَ ارتداء ملابس الخدم، ولا أحد يستطيع أن يرغمك على الظهور في العالم المخمليّ إلّا مشعّث الشعر. عندما تجلس خلف مائدة العشاء لا تنزع قفّازيك كي تُظهِر للآخرين أنّك لا تأكل، وفي اللّيل إذا وافتك الحمى، تُسرج عربتك الفيكتورية لتذهب إلى غابة بولونيا.

لا تستطيع أن تقرأ لامارتين إلّا في ليلة مُثْلجة، ولا يمكنك الاستماع إلى فاغنر إلّا إذا أحرقت عوداً من الكافور.

ولكنّك إنسان شريف المحتد، وثروتك تؤهّلك لعدم مراكمة الديون إلّا إذا وجدتها ضرورية لعبقريتك؛ وإنّك على جانب من الرقّة بحيث تتألم من أنّك تسبّب الحزن لزوجتك وترى أنّ من الخصال البورجوازية أن تجنّبها إيّاه، وأنت لا تنفر من لقاءات المؤانسة، وتعرف كيف تُثير فيها الإعجاب، وذهنك الأريب- دونها حاجةٍ إلى خصلات شعرك الطّوال- يشار إليه فيها بالبنان. شهيّتك جيّدة، وتأكل جيّداً قبل الذهاب إلى المطعم في المدينة، ومع ذلك تستشيط غيظاً لأنّك تبقى فيه على الريق. وفي اللّيل أثناء الزيارات التي يضطرّك تميّزك إلى القيام بها، تصاب فقط بالأمراض التي تعاني منها. رحبٌ خيالُك عندما تُسقِط الثلج أو عندما تُحرق أعواد الكافور، دون أن تكون ثمة حاجة للشتاء أو لمحرقة المعّطرات! وأنّك لعلى جانب من الأدب والموسيقى بحيث تحبّ لامارتين وفاغنر حقّاً وحقيقة. ولكن ماذا! إلى روح الفنّان فيك تضيف أنتَ جميع الأفكار البورجوازية المسبقة التي لا ترينا إلّا معكوسها، دون أن تُفلح في أن تخدعنا.

9
ضدّ الصراحة

من الحكمة بمكان أن يخشى المرء كلّاً من بيرسي (Percy) ولورانس (Laurance) وأوغوستان (Augustin). فلورانس ينشد أشعاراً، وبيرسي يلقي محاضرات، وأوغوستان يتفوّه بحقائق. وهذا الأخير هو شخص صريح، وما يميّزه أنّه صديق حقيقيّ.

يدخل أوغوستان إلى صالون؛ الحقّ أقول لكم، يجب أن تأخذوا جانب الحذر ولا تنسوا أنّه صديقكم الحقيقيّ. ينبغي أن تعلموا أنّه، على غرار بيرسي ولورانس، لا يأتي جزافاً، ولا يتأخّر في المجاهرة ببعض حقائقكم التي تطلبونها منه، تماماً كما يفعل لورانس عندما يشرع أمامكم في مناجاة ذاتيّة، أو بيرسي عندما يبدي لكم رأيه في الشاعر فيرلين. فهو لا يفسح المجال لا للانتظار ولا للمقاطعة، لأنّه صريح، كما أنّ لورانس هو محاضِر، ولا تكون صراحتُه لصالحكم بل من أجل متعته هو. صحيح أنّ امتعاضكم يؤجّج متعته، كما يؤجج انتباهُكم متعةَ لورانس، ولكنّهما قد يستغنيان عن هذه المتعة إذا اقتضى الأمر. أمامنا إذن ثلاثة متهوّرين خبثاء ينبغي علينا أن نرفض لهم أيّ تشجيع أو أيّة لذّة، وإلّا لكنّا نغذّي عيوبهم. سوى أنّهم عندهم جمهورهم الخاصّ الذي منه يعتاشون. وجمهور أوغوستان قوّال الحقيقة هو جمهور واسع حقّاً. وهذا الجمهور الذي أعمته بسيكولوجيا المسرح التقليديّة والحكميّات العبثية مثل «من ضربكَ أحبّكَ» يتجنّب الاعتراف بأنّ المداهنة ليست أحياناً سوى الاستفاضة في العواطف، وبأنّ الصراحة ليست سوى استشاطة المزاج السيّئ. يكفي أن يصبّ أوغوستان خبثه على صديق له، حتّى يخلق هذا

الجمهور في ذهنه معارضة غامضة بين الجلافة الرومانية والنفاق البيزنطيّ ويهتف بإباء- وبعيونٍ تلمع بالجذل لشعوره بأنّه أفضل الجماهير طرّاً، وأشدّها خشونة وفظاظة: «لا تنتظروا منه أن يكلّمكم برقة... فلنُكْرِمْه: يا له من صديق حقيقيّ!...».

10

***

الوسط الأنيق هو الوسط الذي يتكوّن فيه رأي الفرد من رأي الآخرين. لو كان نقيضاً لرأي الآخرين لكان ذاك وسطاً أدبيّاً.

* * *

مطالبة الماجن بالعذرية هي أيضاً شكل من التكريم الأبديّ الذي يبديه الحبّ للنقاء.

* * *

عندما تغادر عائلةً، وتذهب لزيارة عائلة أُخرى، ينكشف الغباء والخبث والوضع البائس للعائلة الأولى. وإذا أذهلتكَ البصيرةُ الثاقبة للعائلة الثانية، خجلتَ لأنّك أبديتَ شيئاً من الاحترام لسابقتها. ولكنّك إن عدتَ إلى هذه، فإنّها تقدح العائلة الأُخرى دون هوادة، وبالطرق نفسها تقريباً. الانتقال من هذه إلى تلك هو أشبه ما يكون بزيارة لمعسكرين عدوّين. ولكن بما أنّ هذه لا تسمع إطلاق النار من تلك، تظنّ أنّها وحدها تملك السلاح. وعندما ندرك أنّ السلاح واحد وأنّ القوى ومواقع الضعف متساوية إلى حدّ ما، نكفّ عندئذ عن إعجابنا بمن يطلق النار وعن احتقار من يُصَوَّب إليه. وهذه هي بداية الحكمة. ولكنّ عين

الحكمة هي أن نقطع الصلة بكلتيهما.

11
سيناريو

يجلس أونوريه في غرفته. ينهض وينظر إلى شكله أمام المرآة:

ربطة عنقه: مرّات عديدة رَبَطْتَني بخمول، وحللتَ- وأنت ساهم- عقدتي اللّافتة للنظر والسائبة قليلاً. أنت إذن عاشق يا صديقي؛ ولكن لماذا أنت حزين؟...

ريشته: نعم، لماذا أنتَ حزين؟ يا معلّمي منذ أسبوع وأنت تُجهدني، مع أنّني غيّرتُ سلوكي! ظننتُ أنّني منذورة لمهمّات جليلة، وأراني الآن لا أكتب سوى قصاصات رقيقة، إذا نظرتُ إلى ورقة الرسائل التي تريدني أن أخطّها. ولكنّ هذه القصاصات الرقيقة بائسة، كما تنبئني ضروب يأسك المتوتّر عندما تمسك بي وتعيدني فجأةً إلى مكاني. أنت عاشق يا صديقي، ولكن لماذا أنت حزين؟

الورود والسحلبياتَ والأرطنسيات وشعرات الفول والحوضيات، التي تعجّ بها الغرفة: أحببتَنا دائماً، ولكنّك لم تستدْعِنا قطّ إلى إثارة إعجابك بترتيبنا البهيّ والناعس، وبحركتنا البليغة وصوت أريجنا المغناج. صحيح أنّنا نمثّل لكَ المفاتن الخلاّبة للحبيبة. أنت عاشق، ولكن لماذا أنت حزين؟

الكتب: كنا دائماً مستشاريك النبهاء، وكنتَ تستشيرنا دائماً ودائماً لا تستمع إلينا. ولكن إن لم نحرّكْكَ فإنّنا أفهمناك، ومع ذلك هرعتَ إلى الهزيمة؛ ولكنّك لم تقاتل في الظلام أو كما يقاتل بعضهم في الكوابيس، وهذه تُحسب لك: لا تطرحْنا جانباً كما يُفعل بالمربّين المسنين الذين

يُستغنى عن خدماتهم. لقد أمسكتْ بنا يداك الطفوليّتان. وذُهلتْ عيناك النقيّتان وقتئذ وأنت تتأمّلنا. إن كنتَ لا تحبّنا لذاتنا، فأحبِبْنا لكلّ ما نذكّرك به عن نفسك، وعن ماضيك كلّه، وعن كلّ ما كان يمكن أن تكونه، وعندما تفكّر في الأمر أفلا يعني نيلُكَ إمكانَ أن تكونه أنّك صرتَه ولو قليلاً؟ تعالَ واستمع إلى صوتنا الأليف والمرشِد؛ لن نقول لك لماذا أنت عاشق، وإذا كان طفلنا يائساً ويبكي، فسنروي له قصصاً، ونهدْهد سريرَه كما كان صوتُ أمّك في الماضي ينصاع لكلامنا، أمام النار المتأججة بكلّ شراراتها، بكلّ آمالها، بكلّ أحلامها.

أونوريه: أحبّها وأظنّ أنّها ستحبّني. ولكن قلبي يحدثني أنّني أنا الشديد التقلّب سأحبّها إلى الأبد، وجنيّتي الطيّبة تعلم أنّني لن أُحَبّ إلّا لمدّة شهر. ولذا، قبل الولوج إلى جنّة هذه المسرّات القصيرة، أقف على عتبتها لأمسح عينيّ.

جنيّته الطيّبة: يا صديقي العزيز، إنّني قادمة من السماء لآتيك النعمة التي طلبتَها، وستتوقّف سعادتُه عليك. فخلال شهر، إذا جازفتَ بأن تُفسدَ بالحِيَل التاليةِ المسرّاتِ التي التمستَها في بدايات هذا الحبّ، وازدريتَ تلك التي تحبّها، وعرفتَ كيف تتغنّج وتتصنّع اللّامبالاة، ولم تحترم الموعد الذي حدّدتَه أنت وأبعدتَ شفتيك عن صدرها الذي ستبْسطه لك كباقة من الورود، فسَيُشيَّد حبُّك المخلص والمتبادل إلى الأبد على قاعدة صبركَ التي لا تشوبها شائبة.

أونوريه، وهو يقفز من الفرح: يا جنيّتي الطيبة، إنّني أعشقك وسأنصاع لأوامرك.

الساعة الدقّاقة المصنوعة في مدينة ساكس: صديقتك غير دقيقة، لقد تجاوزت عقاربي الدقيقةَ التي حلمتَ بها دهراً والتي كان على الحبيبة أن

تصل فيها. جلُّ ما أخشاه هو أن أنغّم لمدّة طويلة بدقّاتي الرتيبة انتظارَك الكئيبَ الماتِع؛ ومع أنّني خبيرة في شؤون الوقت، إلّا أنّني لا أفقه شيئاً في شؤون الحياة، لأنّ الساعات الحزينة تحلّ محلّ الدقائق البهيجة وتختلط فيّ كالنحل في خليّته... ها قد قُرِع الجرس؛ وذهب أحد الخدم ليفتح الباب.

الجنيّة الطيّبة: لا تنسَ أن تنصاع لي لأنّ ديمومة حبّك منوطة بذلك.

راحت الساعة الكبيرة تدقّ محمومة، واضطرب أريج الورود ومالت السحلبيات القلقة نحو أونوريه. وبدت إحداها شرّيرة. ونظرت إليه ريشته الهامدة بحزن من لا يستطيع الحركة. ولم تقطع الكتب دمدماتها الصارمة. وقال له كلّ شيء: «اِسمع كلام الحورية وفكّر في أنّ ديمومة حبّك منوطة بذلك...».

أونوريه، دون تردّد: ولكنّني سأسمع الكلام، كيف يمكنكم أن تشكّوا فيَّ؟

ودخلت الحبيبة؛ وارتعشت الورود والسحلبيّات وكزبرة البئر والريشة والقرطاس، والساعة الدقّاقة المصنوعة في مدينة ساكس، وأونوريه اللّاهث، وارتعش الكلّ كأنّه يتناغم معها، فهرع أونوريه إلى ظبيته صارخاً: «إنّنيَ أحبّك!...».

خاتمة: وكان كما لو أنّه قد نفخ على نيران الرغبة عند حبيبته. إذ تظاهرت بأنّ بذاءة هذا الأسلوب قد صدمتها، فولّتَ هاربة ولم يعد يرى منها إلّا نظرة لا مبالية وصارمة تعذّبه...

12
مروحة

يا سيّدتي إنّني رسمتُ لكِ هذه المروحة اليدويّة.

عساها تذكّرك، في اعتكافِك، وبمقتضى رغبتك، بالأشكال العبثيّة والساحرة التي كانت تملأ صالونكِ الذي كان يعجّ عندئذ بالحياة الرغيدة والذي انغلق الآن إلى الأبد.

النّجفات التي تحمل كلّ فروعها أزهاراً كبيرة شاحبة، تنير تحفاً فنية من جميع العصور ومن جميع البلدان. في روح عصرنا كنتُ أفكّرُ عندما استعرضتُ بريشتي النظراتِ الفضوليةَ تلقيها هذه النّجفات إلى شتّى تحف الزينة لديكِ. على غرارها، تأملتْ ريشتي مجلّدات الفكر أو حياة القرون التي عرفها العالم. ووسّعتْ بإفراطِ دائرةَ نسائجها. وبمتعة، وبملل، نوّعَتْها كما تُنوَّع النزهات، والآن- بعد أن فترتْ همّتُها، لا في إيجاد الهدفِ وهو أمرٌ عسيرٌ، بل الطريق السويّ، وبعد أن شعرتْ بأنّ قواها تخور وبأنّ شجاعتها تخونها- أسندتْ رأسها إلى التراب كي لا ترى من بعدُ شيئاً، كأنّها خشبة عجماء. هذا مع أنّني رسمتُ بحنانٍ أشعّةَ نجفاتك، وهي التي دغدغت بأسىً ملتاع أشياء وأشياء وكائنات وكائنات، والآن خبا بريقها إلى الأبد. رغم الأبعاد الصغيرة للإطار، لعلّك ستعرفين أشخاص الصفّ الأول الذين أبرزَهم الرسّام النزيه ووضَعَهم على قدم المساواة، كما أبرز وُدّكِ الدائم، وأبرز الأسيادَ العظام والنساءَ الجميلات والرجال العباقرة. إنّه توفيق جَسورٌ في نظر العالم، وقاصرٌ وغير منصفٍ في نظر العقل، ولكنّه جعل من مجتمعكِ عالماً صغيراً قليل الانقسام وأكثر انسجاماً من الكون الآخر، عالماً ينبض بالحياة مع ذلك ولن يُرى ثانيةً.

ولذا لا أودّ أن ينظر إلى مروحتي شخص لا مبالٍ لم يتردّد إلى الصالونات التي تشبه صالونك وقد يَستغرب من أن يرى «التهذيب ورقّة الحاشية» وهما يجمعان دوقات غير متغطرسين وروائيّين غير أدعياء. ولكنّ هذا الغريب لن يفهم ربّما خُبثَ هذا التقارب الذي لن يسهّل غلوّه في نهاية المطاف إلّا تبادلاً، هو تبادل التفاهات المضحكة. لا شكّ أنّه سيرى واقعيّةً متشائمةً في المشهد الذي تقدّمه الأريكة المرسومة على اليمين، حيث يظهر كاتب كبير له سيماء الحذلقة وهو يستمع إلى سيّد كبير يتشدّق على ما يبدو حول القصيدة التي يتصفّحها وينمّ تعبير نظراته- إن أنا أفلحتُ حقّاً في جعلها بلهاء بما فيه الكفاية- عن أنّه لا يفهم شيئاً.

قرب الموقد ستعرفين ك...

إنه يفتح قارورة ويشرح لجارته أنه ركّز فيها أقوى العطور وأغربها.

وليأس ب... من إمكانية منافسته، ظنّاً منه أنّ الطريقة الفضلى لاستباق الموضة هي التخلّي السافر عنها، استنشق عطراً مصنوعاً من أزهار البنفسج مقابل قرشين وألقى على ك... نظرة ازدراء.

ألست أنت من أنصار هذه العودات المصطنعة إلى الطبيعة؟ بودّي، لو أنّ هذه التفاصيل التي هي أصغر من أن تكون متمايزة، وردت في زاوية قصيّة من مكتبتك الموسيقية آنذاك بين السمفونيات الأوبرالية لفاغنر وسمفونيات فرانك (Franck) وإندي (Indy) المهملة على الرفوف، وبعض الدفاتر التي ما زالت مفتوحة لهايدن (Hayden) وهاندل (Haendel) وباليسترينا (Palestrina) فوق آلة البيانو التي لك.

لم أخشَ أن أرسمك وأنت جالسة على الكنبة الزهرية. يجلس ت... قربكِ، ويصف لك غرفة نومه الجديدة المطلية بالقطران لتوحي له بأنه في رحلة بحرية، ويكشف لك كلّ خواصّ غرفة هندامه وأثاثها.

وتشهد ابتسامتك المزدرية على أنّك لا تقدّرين كثيراً هذا الخيال السقيم الذي لا تكفيه غرفة عارية ليمرّر فيها جميع رؤى الكون، والذي يرى الفنّ والجمال بطريقة ماديّة يرثى لها.

صديقاتك الرائعات هنّ هنا. وهل سيغفرن لي إن أنت أريتَهنّ المروحة؟ لا أعلم. الفاتنة بينهنّ التي كانت ترسم أمام أنظارنا المذهولة كأنّها الرسّام ويستلر (Whistler) بُعثَ حيّاً[1]، قد لا تتعرّف على نفسها وتُعجَب بها إلّا في بورتريه لها رسمته ريشة بوغرو. النساء يحقّقن الجمال دون أن يفقهنه.

قد يقلن: «ببساطة نحن نحبّ جمالاً ليس جمالك». لماذا يكون ذلك الجمال أدنى رتبة من جمالك؟

ليدعنني أقول على الأقلّ: كم هنّ نادرات أولئك النساء اللّواتي يفهمن المنحى الجماليّ الذي يحملن رايته! فمثلاً عذراء بوتيشيلي[2] (Botticelli) قد تجد، لولا الموضة، هذا الفنّان أخرق وبعيداً كلّ البعد عن الفنّ.

تقبّلي يا سيّدتي هذه المروحةَ بحِلْم. وإذا أبكاك ظلّ من الظلال التي حطّت عليها بعد أن حوّم في ذاكرتي وكان له قديماً نصيبه في الحياة، فتعرّفي عليه دون امتعاض معتبرةً أنّه ظلّ وأنّه لن يعكّر صفاءكِ من بعد.

(1) جيمس ويستلر (1834–1903) رسام أمريكي مارس شتّى أنواع الرسم، ودرس في باريس وصادق كوربيه ودوغا ومانيه، وتأثر بالواقعيّين والانطباعيّين الفرنسيين، وتميّز بتعامله الدقيق مع الضوء.

(2) ساندرو بوتيشيلي (1445–1510) من كبار فناني عصر النهضة الإيطالية، اقتبس عدداً من مواضيع لوحاته من التراثين الإغريقي والروماني، بالإضافة إلى المواضيع الدينية المسيحية، والمعروف عنه أنه خلق توازناً بين الضوء والمادة والحركة.

ببراءة تمكّنتُ من نقل هذه الظلال إلى هذه الورقة السقيمة التي تعطيها حركتَكِ أجنحةً لأنّها أكثر خُلّبيةً وضعفَ شخصيّة من أن تتمكّن من الإيذاء.

ربّما هي كذلك كما كانت عليه في العهد الذي استدعيتِ فيه هذه الظلال إلى المجيء لبضع ساعات كي تسبق الموت وتعيش عيش الأشباح الباطل، في البهجة المصطنعة لصالونكِ، وتحت النجفات التي تغطّت فروعها بأزهار كبيرة شاحبة.

13
أوليفيان

لماذا يا أوليفيان تُشاهَد كلّ مساء وأنت ذاهب إلى مسرح الكوميدي فرانسيز؟ ألا يمتلك أصدقاؤك روح النكتة أكثر من بانتالون (Pantalon) وسكاراموش (Scaramouche) وباسكاريلّو (Pascarello)؟[1] ألا يكون هذا ألطف لو تعشيتَ معهم؟ ولكنّك تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك. إذا كان المسرح هو مصدر الثرثارين الذين أصدقاؤهم خرسٌ وعشيقاتهم تافهات، فإنّ الكلام، وحتّى الكلام الرائع، هو بهجة الرجال الذين يفتقرون إلى الخيال. ما ليس ضرورياً أن يظهر للعيان عند الرجل النبيه، لأنّه يراه وهو يثرثر، نضيّع وقتنا ونحن نحاول أن نقوله لك، يا أوليفيان. فصوتُ الخيال والروح هو الوحيد الذي لحسن الحظّ يعصف بالخيال والروح كلّها، وإنّ الوقت الذي تقتله في محاولة إرضاء الغير، إنْ أنت

(1) شخصيّات طريفة في المسرح الإيطالي القديم صارت أنماطاً للطرافة في المسرحيات الكوميدية الخفيفة.

غذّيتَه بقراءةٍ أو بسروحِ فكرٍ قرب النار أثناء الشتاء، وفي الحديقة أثناء الصيف، لحفظتَ ذكرى غنيّة عن ساعاتٍ أعمق وأكثف. تشجّعْ واحمل الفأس والمجرفة. ذات يوم ستُسعد باستنشاق رائحة زكية تنبعث من ذاكرتك، كأنّها خرجت من نقّالة بستانك الملأى حتّى الطفح.

لماذا تسافر كثيراً؟ تنقلك العربات ببطء شديد إلى حيث ينقلك حلمك بسرعة البرق. لتكون على شاطئ البحر ما عليك إلّا أن تغلق عينيك. أترك الذين ليس لهم إلّا عيون جسدية ينقلون حاشيتهم كلّها ويقيمون معها في مدينتي بوزولي أو نابولي. أتقول إنّك تريد فيهما أن تنتهي من كتابة كتاب؟ أين تجد المكان الأنسب إلّا في المدينة الكبيرة؟ فبين جدرانها تستطيع أن تركّب أرحب الديكورات التي تروق لك؛ وبأسهلَ ممّا لو كنتَ في بوزولي، ستتجنّب غداءات أميرة برغامو، وفي المدينة الكبيرة لا يخطر في بالك كثيراً أن تذرع الشوارع دون أن تفعل شيئاً. لماذا تستقتل في إقبالك على التمتّع بالحاضر، وتبكي إن لم يتحقّق؟ كرجل وافر الخيال، لن تستطيع الاستمتاع إلّا في التحسّر والانتظار، أي في الماضي والمستقبل.

لذا يا أوليفيان أنت مستاء من عشيقتكَ ومَصايفك ومن نفسك. وربّما أدركتَ سبب هذه البلايا، ولكنّك تستطيبُها بدل البحث عن الاستشفاء منها! السبب يا أوليفيان هو أنّك شديد البؤس. لم تكن صرتَ بَعدُ رجلاً، وإذا بك تريد أن تكون رجلاً أديباً!

14

شخصيّات من كوميديا المجتمع المخمليّ

في المسرحيات الكوميدية، مثلما نرى أنّ سكاراموش هو دائماً متبجّح وأن أرلكان هو دائماً أخرق، وأن تصرّف باسكينو قائم على الدسائس وسلوكَ بنتالون قائماً على البُخل والتصديق الساذج، كذلك قرّر المجتمع أنّ غويدو (Guido) طريف وخبيث، وأنّه لا يتردّد، من أجل نكتة من النكات، في التضحية بصديق؛ وقرّر أنّ جيرولامو (Girolamo) يكدّس، خلف مظاهر الصراحة الفظّة، كنوزاً من الحساسية؛ وأنّ كاستروشيو (Castruccio) الذي يمكن النيل من عيوبه، هو الصديق والأب والابن الأرقّ؛ وأنّ ياغو (Iago)، على الرغم من كتبه العشرة العميقة، ليس إلّا هاوياً، في حين أنّ بضعة مقالات صحفية سيّئة قد كرّست فوراً إركولي (Ercole) كاتباً؛ وأنّ تشيزاري (Cesare) يجب أن يتشبّث بالشرطة وأن يكون صحفيّاً أو جاسوساً. كاردينيو (Cardenio) نفّاج، وبيبو (Pippo) يتظاهر بالطيبة، مع إصراره المتكرّر على الصداقة. أمّا فورتوناتا (Fortunata) فطيّبة، وهذا متّفق عليه دائماً. فتكويرة بطنها تضمن نوعاً ما طيب معشرها: أبوسع سيّدة بهذه الضخامة أن تكون شخصاً شرّيراً؟

ثمّ إنّ كلّ واحد من هؤلاء تختلف طبائعه التي راح المجتمع يبحث عنها في المستودع العامّ لبذلاته وصِفاته وينسبها إليه دفعة واحدة، وهو يبتعد عنها لا سيّما وأن التصميم المسبق لخصاله، إذ يفتح له رصيداً وافراً من شتّى العيوب، يخلق لصالحه نوعاً من الحصانة. فشخصيّة كاستروشيو الثابتة كصديق بعامّة تمكّنه من خيانة كلّ صديق من أصدقائه على وجه الخصوص. ووحده الصديق يعاني من ذلك: «لا بدّ أن يكون هذا الرّجل

مجرماً كبيراً كي يتخلّى عنه كاستروشيو الذي هو في العادة صديق شديد الوفاء!» وبوسع فورتوناتا أن تهيل نماءها كالسيل العرِم. أهناك شخص يضربه الجنون فيروح ينقّب عن مصدر ذلك في طيّات حمّالة صدرها التي تستطيع بحجمها الواسع أن تخفي كلّ شيء؟ ويقدر جيرولامو أن يُداهنَ دون خشية، إذ إن صراحته المعتادة تسبغ على مداهنته شيئاً ساحراً ليس في الحسبان. يستطيع أن يطوّر جلافته ضدّ أحد الأصدقاء لتصل إلى حدّ الضراوة، لأنّ من مصلحته تعنيفَه، كما يتّضح. يسألني تشيزاري عن حال صحّتي، كي يقدّم تقريراً للدوج[1] (doge). لم يطلب منّي ذلك في السابق؛ كم هو بارع في إخفاء لعبته! يبادرني غويدو (Guido) ويمتدحني على عافيتي. «لا أحد أدهى منه، ولكنّه شديد الخبث حقّاً»، يهتف الأشخاص الحاضرون معاً. وهذا التباين بين كاستروشيو وغويدو وكاردينيو وأركولي وبيبو وتشيزاري وفورتوناتا والأنماط التي يجسّدونها حتماً في عيون المجتمع اليقِظة، ليس خطيراً عليهم لأنّ المجتمع لا يريد أن يرى هذا التباين. ولكنّه ليس دون نهاية. فمهما فعل جيرولامو، فإنه يبقى فظّاً نافعاً. ومهما قالت فورتوناتا، فإنّها تبقى طيّبة. فالمثابرة العبثية الساحقة الثابتة للنمط الذي يستطيع هذان وأمثالهما الابتعاد عنه دائماً دون تشويش ثباتِه الصافي، هذه المثابرة تفرض نفسها مع الوقت بقوة متنامية جاذبة لهؤلاء الأشخاص الذين يفتقرون إلى الابتكار الراسخ والسلوك المتّسق، والذين يفتنهم في النهاية ذلك الهدف المتمتّع وحده بالرّسوخ وسطَ تحوّلاتهم الشاملة. فعندما يصارح جيرولامو صديقاً بـ «أخطائه»، فإنه يمتنّ له لأنّه خدَمه كممثّل ثانويّ ومكّنه- بعد «زجرٍ يكون لمصلحته»- من تمثيل دور أساسيّ، دور مبهر قاربَ الآن أن يكونَ

---

(1) الدوج رئيس منتخب في جمهوريتي البندقية وجنوة سابقاً.

صادقاً. وتراه يمزج عنف تقريعه بشفقة سمحاء مطبوعة يكنّها لمرؤوس يُبرز مجده هو؛ ويشعر هو نحوه بعرفان حقيقيّ، ويحسّ أخيراً بطيبة القلب التي نسبَها العالم له منذ أمد بعيد واحتفظ بها أخيراً. وفورتوناتا التي لا يكترث كثير من الناس ببدانتها المتنامية التي لا تُذوي بصيرتها ولا تُفسد جمالها بل توسّع مجال شخصيتها، تشعر بأنّ فظاظتها تَرِقّ بعد أن كانت وحدها تمنعها من أن تؤدّي عن جدارةٍ المهمّاتِ الجليلةَ والساحرة التي كلّفها بها العالم. إن روح بعض الكلمات كـ «العطف» و«الطيبة» و«تكوير الجسم» التي تتكرّر أمامها، ويُهمَس بها خلفها، راحت تتشرّب قاموسها التقريظيّ الآن عادةً والذي تغدق استدارتُها الرحبة عليه سلطة مثيرة للزهو. لديها شعور مبهم وعميق بأنّها تمارس مهنة قضاء جليلة وسلميّة. ويُهيّأ لها أحياناً أن تتجاوز حدود شخصيتها، فتظهر عندئذ كأنّها هيئة عامّة صاخبة ومترهّلة مع ذلك، لقضاة حسني النوايا تتزعّمهم هي وتهتاج لإذعانهم... وفي أماسي السهر، عندما يرتّب كلّ واحد- دون أن يضطرب لتناقضات سلوك هذه الشخصيّات، ودون أن يلاحظ تكيّفها البطيء مع النموذج المفروض- أقول يرتّب ترتيباً دقيقاً أفعالها ويضعها مكانَها داخل الخانة المحدّدة لها حسب طابعها المثاليّ، يشعر كلّ واحد برضاً لافت أنّ مستوى الحديث ارتفع حتماً. ولكن سرعان ما ينقطع حبله كي لا يثقل الحديث على تلك الرؤوس التي لم تتعوّد كثيراً على التجريد فتستسلم للنوم (لأنّها تنتمي إلى المجتمع المخمليّ). وبعد أن يتهكّموا من نفاجة هذا، وخبث ذاك، ومجون ثالثهم أو قسوته، يفترقون، وينصرف كلّ منهم- بعد أن دفع بسخاءٍ ضريبة حسن النية والطهارة والمحبة- ودون ندم وبِراحة ضمير أثبتت وجودها للتوّ، ينصرف للفجور الرفيع الذي راكمه.

إنّ هذه الأفكار المستوحاة من مجتمع مدينة برغامو، والمطبّقة على مجتمع مدينة أخرى، قد تفقد جزءاً من حقيقتها. فعندما غادر الممثّل أرليكان مسرح مدينة برغامو، ولجأ إلى المسرح الفرنسيّ، انتقل من الغلاظة إلى النباهة. ففي بعض المجتمعات، يُنظر إلى لوديفينا (Ludivina) كامرأة عالية الشأن، وإلى جيرولامو كرجل نبيه. ويجب أن نضيف أيضاً أنّنا نصادف أحياناً رجلاً لا يقدّم له المجتمع طابعاً مكتملاً أو على الأقلّ طابعاً مُتاحاً، لأنّ شخصاً آخر يضطلع بالدَّور. يعرض عليه المجتمع بادئ ذي بدء أدواراً لا تناسبه. فإذا كان رجلاً أريباً بالفعل، ولا أحد يعلو عليه، فإنّ المجتمع، العاجز عن محاولة فهمه، والذي لا يجد له طابعاً يناسبه، سرعان ما يستبعده؛ إلّا إذا تمكّن من أن يمثّل بأناقة أدوار الفتيان العاشقين الذي يُفتقَر إليه دائماً.

المجتمع المخمليّ
وهواية الموسيقى

بوفار وبيكوشيه[1] [2] (Bouvard et Pécuchet)

1
المجتمع المخمليّ

- بعد أن تحسّنت أحوالنا الآن، قال بوفار، لماذا لا ندلف إلى العالم الراقي؟

كان هذا أيضاً رأي بيكوشيه، ولكن يجب التمكّن من التألّق، ولذا لا بدّ من دراسة المواضيع المتداولة فيه.

الأدب المعاصر يحتلّ مكان الصدارة.

فاشتركا في مجلّات عديدة تنشر هذا الأدب، وكانا يقرآنها بصوت عالٍ، ويجتهدان في تدبيج بعض الانتقادات، باحثين بخاصّة عن سلاسة الأسلوب وخفّته، واضعين نصبَ أعينهما الهدف الذي رسماه.

اعترض بوفار قائلاً إنّ أسلوب النقد، وإن يكن مكتوباً بمسحة من الهزل، لا يتناسب مع المجتمع المخمليّ. وشرعا في أحاديث تتعلّق بما قرآه، كما يفعل معشر الناس في المجتمع الراقي.

---

(1) رواية كتبها فلوبير سنة وفاته (1880) ولم تكتمل، يندّد فيها بأدعياء العلم الذين يخلطون الحابل بالنابل في كلّ المجالات الفكرية والعلمية.

(2) بالطبع ليست الآراء التي نسبهاُ فلوبير لبطليه هي آراء بروست (الناشر الفرنسيّ).

كان بوفار يتكئ إلى طرف المدفأة، ويماحك قفّازين أبيضين وضعهما قصداً، ودون أن يوسّخهما، فأطلق على بيكوشيه لقب «مَدام» أو «الجنرال»، كي يستكمل الإيهام.

وغالباً ما كانا يكتفيان بهذا؛ وعندما كان أحدهما يتحمّس لكاتب ما، كان الآخر يحاول عبثاً أن يوقفه. وفضلاً عن ذلك كانا يحقّران كلّ شيء. كان لوكونت دو ليل (Leconte de Lisle) شاعراً لا ينفعل في نظرهما، وفيرلين (Verlaine) كان مفرط الإحساس. كانا يحلمان بالموقف الوسط، دون أن يجداه.

- لماذا بيير لوتي (P. Loti) يكرّر الشيء ذاته دائماً؟
- لماذا رواياته مكتوبة كلّها على النغمة نفسها؟
- كنّارته ليس فيها إلّا وتر واحد، اختتم بوفار.
- ولكن أندريه لوري (A. Laurie) ليس مُقْنعاً أكثر منه، لأنّه يجوّلنا كلّ سنة في أماكن أخرى ويخلط بين الأدب والجغرافيا. فقط أسلوبه يحظى بشيء من القيمة. أمّا هنري دو رينييه فهو دجّال أو مجنون، ليس ثمة خيار آخر.
- اسحب نفسك من هنا، يا عزيزي، قال بوفار، فتُخرج الأدب المعاصر من مأزق وعِر.
- لماذا نُجبر هذه الأمهار؟ قال بيكوشيه مثلَ ملك دمث الأخلاق، ربّما كانت من النوع الأصيل. لنترك لها الحبل على الغارب: الخشية الوحيدة هي أن تتجاوز الهدف إذا دبّ فيها الحماس؛ ولكنّ المُستَهجَن بالذات هو دليل على طبيعة غنيّة.
- أثناء ذلك، صاح بيكوشيه، ستتحطّم الحواجز (وراح يملأ الغرفة المنعزلة باستنكاراته، إذ كان يحمى كمثْل رياضيّ). في جميع

الأحوال، قلْ كما يطيب لك إنّ هذه الخطوط المتفاوتة الطول هي أبيات شعرية، فأنا أصرّ على أنّني لا أرى فيها إلّا نثراً، ونثراً دون معنىً أيضاً.

مالارميه ليس موهوباً أكثر منهم، ولكنّه محدِّث بارع. من المصائب الكبرى أن يعتري الجنون رجلاً موهوباً مثله كلّما أخذ الريشة في يده. يا له من مرض غريب، مرض يبدو لهم مستغلَقاً على الشرح. ماترلنك (Maeterlinck) مرعِب بوسائله المادية الشائنة في المسرح؛ فالفنّ مؤثّر شأنه شأن الجريمة، يا للفظاعة وفعلاً فإنّ تركيب عباراته بائس.

وانتقداه بطرافة وقلّدا حواره مستخدمين تصريف الفعل: «قلتُ إن المرأة دخلت.- قلتَ إن المرأة دخلت.- قلتم إن المرأة دخلت.- لماذا قيل إن المرأة دخلت؟».

أراد بيكوشيه أن يرسل هذه المقطوعة لمجلّة *Revue des Deux Mondes*، ولكنّ بوفار رأى أنّ من الأفضل الاحتفاظ بها ليُلقيها في أحد صالونات الموضة، فقد ينالان من الضربة الأولى الجائزة الكبرى، ويستحقّانها. وبعدئذ بوسعهما إعطاؤها لإحدى المجلّات. وبعد أن يقرأها المتلقّون الأوائل لهذه النفحة الأريبة، سيتفاخرون بأنّهم اطّلعوا عليها قبل الآخرين.

ولوميتر (Lemaitre) مع كلّ ذكائه، بدا لهما متناقضاً وغير جدير بالاحترام، فتارةً هو متحذلق، وطوراً بورجوازيّ، وغالباً ما كتب الاعتذاريّات. وأسلوبه بخاصّة هو أسلوب منفلش، ولكنّ صعوبة الارتجال عنده في أوقات ثابتة ومتقاربة يجب أن تشفع له. أمّا أناتول فرانس (A.France) فيكتب جيّداً ولكنّه يفكر بطريقة سيّئة؛ وعلى النقيض، بول بورجيه (P.Bourget) عميق، ولكن يُرثى لحال أسلوبه.

وكانت ندرة الموهبة المكتملة تخلق الأسى في نفسيهما.

ورأى بوفار أنّ التعبير الواضح عن الأفكار ليس عسيراً، مع كلّ ذلك. ولكنّ الوضوح لا يكفي، يجب أن تتوفّر الأناقة (المشفوعة بالقوّة)، والحيوية، والسموّ، والمنطق. وأضاف بوفار التهكّم أيضاً. وارتأى بيكوشيه أنّه ليس ضرورياً، لأنّه غالباً ما يُتعِب ويحيّر القارئ دون طائل. قصارى القول إنّهم جميعهم يكتبون بشكل سيّئ. وحسب بوفار، يجب إلقاء التهمة على البحث المفرط عن الابتكار؛ وحسب بيكوشيه، يجب إلقاء التهمة على انحطاط الأخلاق.

- فلنتشجّعْ ولنُخْفِ استنتاجاتنا عن العالم المخمليّ، قال بوفار؛ وإلّا اعتُبرنا من الثالبين، وبترويعِنا كلّ كاتب، يستكرهنا جميعهم. فلنطَمْئنْ بدل أن نُقلق. إنّ تفرّدنا سيلحق بنا ضرراً كبيراً. لا بل ينبغي أن نحاول إخفاءها. حبّذا لو امتنعنا هناك عن الخوض في الأدب.

ثمة أشياء أخرى على جانب من الأهمية.

كيف يجب إلقاء التحية؟ أبالجسم كلّه أو بإيماءة من الرأس فقط، أبسرعة أم على عجل، أبالوضعية التي نحن فيها أم بإدناء الكاحلين أحدهما من الآخر، أبتقدّمنا أم مِن حيث نحن، أبقامة منتصبة أم بقامة مكوَّرة؟ أيجب على اليدين أن تستقيما على طول الجسم، أينبغي إبقاء القبّعة على الرأس، أيحبّ ترك القفّازين في اليدين؟ أينبغي على الوجه أن يبقى جادّاً أم أن يبتسم أثناء إلقاء التحيّة؟ ولكن كيف يجب استعادة التجهّم فوراً بعد التحيّة؟

التعريف بالناس صعب أيضاً.

باسمِ من يجب أن نبدأ؟ هل ينبغي الإشارة باليد على الشخص الذي

ندلّ عليه أم نكتفي بإيماءة من الرأس، أم عدم تحريك الجسم وإجراء التعريف بصورة لا مبالية؟ هل علينا أن نسلّم بالطريقة نفسها على شخص مسنّ وشابّ وصانع أقفال وأمير وممثّل مسرحيّ وقامة من قامات الأكاديمية الفرنسية؟ تماشى الردّ بالإيجاب مع مبادئ العدالة التي كان يأخذ بها بيكوشيه، ولكنّها صدمت الحسّ السليم لبوفار.

كيف يجب التعامل مع الألقاب؟

يطلق الناس كلمة «السيّد» على البارون والفيكونت والكونت؛ ولكنّهم إذا قالوا «صباح الخير أيها السيّد المركيز» يبدو لهم ذلك تافهاً، وإذا قالوا «صباح الخير يا مركيز» يرون ذلك صفيقاً، ولا يناسب العمر. سيكتفون بالقول: «يا أمير» و«أيّها السيّد الدّوق» مع أنّ اللقب الأخير بدا لهما منفّراً. وعندما وصلوا إلى تعبير «صاحب المعالي»، انتابهم الاضطراب؛ ولزهوّ بوفار بعلاقاته المستقبلية، فإنه تصوّر ألف جملة تظهر فيها هذه الصيغة بشتّى أشكالها؛ وكان يُلحقها بابتسامة صغيرة محمرّة خجلاً وبانحناءة طفيفة للرأس وبعض النطنطات. ولكنّ بيكوشيه صرّح بأنه سيضيع بين ألقاب السموّ فتختلط عليه الأمور دائماً أو أنّه سيقهقه مستهزئاً من الأمير. وقصارى القول إنّهما- تلافياً للارتباك- لن يذهبا إلى ضاحية سان جيرمان. ولكنّ اللّقب يدخل إلى كلّ مكان، ويبدو من بعيد فقط كلاًّ متراصّاً وفريداً!... ثمّ إنّ موظفي المصارف الكبرى مازالوا يحترمون هذه الألقاب؛ أمّا حديثو النعمة فهم كثر لا يُحصَون. ولكن بيكوشيه رأى أنه يجب التشدّد مع النبلاء المزيّفين والسعي إلى إلغاء خصائص نبالتهم حتّى على مغلّفات الرسائل أو عند مخاطبة خدّامهم. ولأنّ بوفار كان شكّاكاً أكثر من بيكوشيه، فلم يجد في ذلك إلّا نمطاً من التهكّم حديث العهد، ولكنّه أكثر مدعاة للاحترام من تهكّم الأسياد في

الماضي. وفعلاً كانا يريان أنّ النبالة اندثرت منذ أن فقدت امتيازاتها. فهي مرتبطة برجال الدين، ومتخلّفة، ولا تقرأ، ولا تعمل، بل تتسلّى كالبورجوازية؛ فوجدا أنّ من العبث احترامها. أمّا الاختلاط بها فقط فكان ممكناً، لأنّه لا يستبعد الاحتقار. وصرح بوفار أنّهما، إن أرادا أن يعرفا أين يختلطان بها، وإلى أيّة ضاحية سيجازفان بالسفر مرّة واحدة في العام، وأين سيتعرّفان على عاداتها وعيوبها، فَعَليهما أوّلاً أن يرسما مخطّطاً صحيحاً عن المجتمع الباريسيّ. ورأى أنّ هذا المجتمع يشمل ضاحية سان جيرمان، والمال والأعمال، وحديثي النعمة، والمجتمع البروتستنتيّ، وعالم الفنون والمسارح، والعالم الرسميّ والوسط العلميّ. وفي رأي بيكوشيه كانت الضاحية تخفي تحت مظاهرها الصارمة مجون العهد [المَلَكيّ] البائد. فكلّ فرد من طبقة النبلاء له عشيقات، وله أخت راهبة، ويحوك الدسائس مع الإكليروس. النبلاء طيّبون، ويستدينون الأموال، ويجلدون المرابين ويجعلونهم يُفلسون، وهم حتماً أبطال الشرف والمروءة. يحكمون بواسطة الأناقة، ويخترعون موضات عجيبة غريبة، وهم أنجال مثاليّون، يحِنّون على الشعب ويقسون على أصحاب المصارف. وسيوفهم دائماً ممتشقة، ونساؤهم دائماً على صهوات الخيول، ويحلمون بعودة المَلَكية، وهم كسالى بشكل مريع، ولكنّهم لا يتفاخرون أمام الناس البسطاء، وبدفعهم الخونة إلى الهرب وبشتم الجبناء، فإنّهم يستحقّون- بمسحة من الفروسية تميّزهم- تعاطفَنا الراسخ.

على العكس، نرى أنّ الأموال الطائلة والمتجهِّمة تُثير الاحترام والكراهية في آن. فرجل المال يحمل همومه إلى حفلات الرقص الأكثر جنوناً. ودائماً يأتي أحد أجرائه العديدين يعطيه آخر أخبار البورصة، حتّى في الساعة الرابعة صباحاً؛ ويخفي على امرأته خبطاته الباهرة

النجاح، وأيضاً أفدح كوارثه. لا نعرف البتّة إن كان هو من أقطاب رجال الأعمال، أو إن كان نصّاباً؛ هو مرّة هذا ومرّة ذاك دون أن نشعر؛ وعلى الرغم من ثروته الطائلة، فإنه يَطرد شرّ طردةٍ المستأجرَ الصغير الذي تأخّر في دفع الأجرة المُسبقة، إلّا إذا أراد أن يحولّه إلى جاسوس أو أن يضاجع ابنته. وهو بالفعل دائماً في عربته، ويرتدي ملابس غير باهرة، ويضع نظّارتين دون ماسكتين.

ولم يشعرا بحبّ عارم للمجتمع البروتستنتي؛ فهو بارد ومصطنع، ولا يتصدّق إلّا على فقرائه، ويتألف حصراً من قُسسُ. ومعبده هو عبارة عن بيت، والبيت كئيب كالمعبد. العائلة البروتستنتية عندها دائماً قسيس على الغداء؛ والخدم يؤنّبون الأسياد وهم يستشهدون بآيات من الإنجيل؛ وجلّ ما يريعهم هو الجذل، وإلّا لما بقي لهم شيء يُخفونه، ويُشعرون الكاثوليك أثناء تحدّثهم معهم بضغينة دائمة ورثوها من إلغاء مرسوم نانت[1] ومن مذبحة سان بارتيلمي.

وعالَم الفنون، على اتّساقه، هو عالم شديد الاختلاف؛ فكل فنّان هو بهلول مختلف مع عائلته، ولا يعتمر بتاتاً قبّعة عالية، وينطق بلغة خاصّة. حياة الفنانين أشبه ما تكون بألاعيب بينهم وبين الشرطة التي تأتي لاعتقالهم، وهم الذين يصنعون الأقنعة المضحكة في حفلات الرقص التي توضع فيها الأقنعة. ومع ذلك، فإنّهم ينتجون دائماً تحفاً فنيّة؛ وعند معظمهم يُعتبر الإفراط في معاقرة الخمرة وإتيان النساء شرطاً

(1) عام 1598 وقّع هنري الرابع ملك فرنسا، مرسوماً أطلق عليه «مرسوم مدينة نانت»، منح فيه البروتستنت حريّة العبادة والمواطنة، وألغى بذلك الحروب الدينية. ولكن لويس الرابع عشر عام 1685 ألغى هذا المرسوم، مما أدّى إلى التعصب الدينيّ وهجرة البروتستنت إلى بلدان الشمال في أوروبا. أمّا مذبحة سان بارتيليمي فوقعت في باريس ليلة 23–24 أغسطس عام 1572 وراح ضحيّتها كثير من البروتستنت.

أساسياً للإلهام، بل للعبقرية. إنّهم ينامون في النهار، ويتنزّهون في اللّيل، ويعملون لا نعرف متى، رؤوسهم دائماً تميل إلى الخلف، فيتركون الريح تداعب ربطات أعناقهم المحلولة، ويلفّون سجائرهم بأيديهم دائماً.

ويكاد عالم المسارح لا يختلف عن العالم الآنف الذكر، وفيه لا توجد حياة عائلية إطلاقاً؛ رجال المسرح نزويّون، وسخاؤهم لا يعرف الحدود. ومع أنّ الممثّلين متعجرفون وغيورون، فإنّهم لا يبخلون بتقديم الخدمات لزملائهم، ويصفّقون لنجاحاتهم، ويتبنّون أطفال الممثّلات المسلولات أو المفجوعات، ولهم شأن كبير في العالم؛ ومع أنّهم لم يحصلوا على تعليم [كافٍ] فهم في الغالب متديّنون ودائماً متطيّرون. ومسرحيّو المسارح التي تنال مساعدات من الدولة هم فئة مختلفة، ويستحقّون إعجابنا الكامل، ويستحقّون أيضاً أن يجلسوا في الموائد قبل الجنرالات والأمراء، ولهم في قرارة أنفسهم العواطف التي عبّروا عنها في الروائع التي مثّلوها فوق خشبات مسارحنا الكبرى. ذاكرتُهم هائلة وهندامهم لا غبار عليه.

أمّا بالنسبة لليهود، فإن بوفار وبيكوشيه لم ينبذاهم (إذ يجب على المرء أن يكون متسامحاً)، إلّا أنّهما صرّحا بأنّهما يمقتان الالتقاء بهم؛ كانوا كلّهم قد باعوا في ألمانيا أثناء شبابهم نظّارات دون ماسكات، وحافظوا في باريس - كأناس ورعين ومستقيمين ويقيمون العدل - على ممارسات خاصّة وعلى مفردات غير مفهومة، كما كان لهم لحّامون من بني جلدتهم. أنوفهم كلّهم معقوفة، ويتمتّعون بذكاء خارق، ولكنّ نفوسهم وضيعة ومتهالكة على المال. أمّا نساؤهم فهنّ، على العكس منهم، جميلات وبضّات ولكنهنّ قادرات على التعبير عن أقوى العواطف. كم يجب على الكاثوليكيات أن يقتدين بهنّ! ولكن لماذا كانت ثرواتهم دائماً ثروات لا تحصى وخفيّة؟ ثمّ

إنّهم شكّلوا مجتمعاً سرّياً رحباً، كاليسوعيين والماسونيين. كانوا يملكون، في مكان ما، كنوزاً لا تنضب وضعوها في خدمة أعداء مبهمين، لتحقيق هدف مريع وسريّ.

II
هواية الموسيقى

بعد أن قرف بوفار وبيكوشيه من الدرّاجة وفنّ الرسم، انكبّا على الموسيقى. ولكن بيوكوشيه، الذي كان على الدوام صديقاً للتقليد والنظام، أضحى آخر أنصار الأغاني البذيئة وأوبرا «القناع الأسود» الثورية بامتياز[1]؛ أمّا بوفار فيجب القول إنه «أبدى ولعه بموسيقى فاغنر». والحقّ، إنّه لم يكن مطّلعاً على أيّ توزيع موسيقيّ «لحمار برلين الناهق» (كما سماه بيكوشيه بفظاظة، الذي هو دائماً مواطن مخلص وقليل المعرفة)، لأنّ أعماله لا تُسمع في فرنسا، حيث تقتل الرتابةُ المعهدَ الأعلى للموسيقى المنشطر بين قائد الأوركسترا ادوار كولون (Colonne) المتلعثم وشارل لامورو (Lamoureux) المبتدئ، ولا تُسمع في ميونيخ حيث ضاع التراث، ولا في بايروت[2] التي دنّسها النفّاجون أيّما تدنيس. ومن العبث تجريبها على البيانو: لأنّ وهم المسرح ضروريّ، وكذلك طمْر الأوركسترا وظلمة الصالة. ولكنّ استهلال الدراما الموسيقية

(1) أوبرا كوميدية ألفها دانيال فرانسوا اسبري أوبير (1782–1871) (Aubert) وقلّد فيها أسلوب بومارشيه في «حلّاق إشبيلية».

(2) بايروت Bayreuth: مدينة ألمانية في شمال بافيريا، معروفة خصوصاً بالمسرح الذي أنشأه فيها فاغنر وفق متطلّباته الفنّية، وصار يُعقد فيه انطلاقاً منذ 1876 مهرجان لأعماله يرتاده هواة حقيقيّون لموسيقاه ونفّاجون من العالم كلّه.

«بارسيفال» (Parsifal) [لفاغنر] كان مفتوحاً بشكل دائم- وجاهزاً لصعْق الزوّار- فوق حامل التوزيع على آلة البيانو التي يعزف عليها، بين الصور الفوتوغرافية لحامل أقلام سيزار فرانك ولوحة «الربيع» لبوتيشيلي:

ومن تنويطة أوبرا «فالكيري» (Walkyrie) لفاغنر، انتُزع بعنايةٍ قسم «أغنية الربيع»، وفي القطع الأوبرالية لفاغنر شُطب بالقلم الأحمر على الصفحة الأولى من «لوهنغرين» (Lohengrin) و«تانهاوسر» (Tannhäuser)، وكان التشطيب ساخطاً. وحدها «راينتسي» (Reinzi) بقيت سليمة من بين الأعمال الأوبرالية. الاستنكار صار عاديّاً، وحان الوقت للمباشرة بالرأي المعاكس؛ هذا ما استشفّه بوفار برهافة. كان الموسيقيّ شارل غونو (Gounod) يُضحكه، وجيوزيبي فيردي (Verdi) يدفعه إلى الصراخ. صحيح أنّ استنكارهما كان يقلّ عن استنكار اريك ساتي (Erik Satie)، من يستطيع أن يقول العكس؟ بيد أنّ بيتهوفن بدا له شامخاً كالمسيح المخلِّص: وكان باستطاعة بوفار نفسه، ودون أن يشعر بالمهانة، أن يرى في باخ رائداً من التّلف. وكان يردّد أن كاميّ سان سانس (Saint-Saëns) موسيقيّ يفتقر على العكس إلى مضمون، وأنّ جول ماسنيه (Massenet) يحتاج إلى الشكل المناسب، في حين يرى بيكوشيه بالعكس أنّ سان سانس لم يكن لديه سوى المضمون وأنّ ماسنيه لم يكن لديه سوى الشّكل.

- لهذا فإنّ أحدهما يعلّمنا والآخر يسحرنا، دون أن يعلّمنا، كان يقول بيكوشيه بإصرار.

ورأى بوفار أنّ أعمالهما كانت محتقرة سواء بسواء. فقد التقط ماسنيه بعض الأفكار، ولكنّها الأفكار المبتذلة، مع العلم أنّ الأفكار صارت

بالية. لسان سانس بعض الأسلوب، ولكنّه الأسلوب الذي أكل الدهر عليه وشرب. ولأنّهما كانا قليلَي الاطّلاع على غاستون لومير (Lemaire)، ويلجآن إلى التناقض عندما يطيب لهما ذلك، كانا يجدان معارضة وجيهة بين إرنست شوسون (Chausson) وسيسيل شاميناد (Chaminade). ومع تقزّز بيكوشيه من بعض جماليّات هذه الأخيرة، فإنّه، وكذلك بوفار، إذ كلّ فرنسيّ يتمتّع بروح فروسيّة ويهتمّ بالنساء قبل كلّ شيء، تركا لها، أي لشاميناد، بكياسةٍ، مكانَ الصدارة بين موسيقيّي اليوم.

كان بوفار الديمقراطيّ يتفوّق على الموسيقيّ الذي فيه، في نبذ موسيقى شارل لوفاديه (Levadé)؛ أليس التوقّف عند أشعار مدام دو جيراردان[1] هو مقاومة للتقدّم في عصر الآلات البخارية والاقتراع العامّ والدرّاجة؟ ولأنّ بوفار كان يتبنّى نظرية الفنّ للفنّ والعزف غير المرهف والغناء الباهت فإنّه لم يكن ليطيق سماعها، وقد وجد فيها نمط الفرسان الأقدمين وأساليب الاستهزاء وضروب التأنّق السهل الخاصّ بالمشاعر البالية.

ولكنّ أعنف مناقشاتهما هي تلك الدّائرة حول رينالدو هان[2] (Hahn). فمن جهةٍ كانت صلته الحميمة بماسنيه تجعل بوفار يصبّ عليه جام غضبه وتصيّر منه بضراوة ضحيّة لتفضيلات بيكوشيه الحماسيّة؛ ومن جهة أخرى فإنّ هان كان موهوباً في إغاظة بيكوشيه لإعجابه بفرلين، علماً بأنّ بوفار كان يشاطره هذا الإعجاب. وكان بيكوشيه يضيف بحماس وطنيّ: «اعكفوا على جاك نورمان وسولّي برودوم والفيكونت دو بوريلّي. الحمد

(1) السيّدة ديلفين دو جيراردان (1804—1855) أديبة فرنسية أدلت بدلوها في الشعر والمسرح والرواية. وتعتبر من الأدباء المتوسّطي المستوى.

(2) رينالدو هان (1875—1947)، ملحّن فرنسي تتلمذ على يد ماسنيه، وألّف عدداً من الأغاني والأعمال الأوبرالية وبعض الكتب النظرية حول الموسيقى.

لله أنّ الشعراء كثر في بلاد الشعراء الجوّالين». وحائراً بين الرّنين الألمانيّ لاسم «هان» وبين الخاتمة الجنوبيّة لاسمه الأوّل «رينالدو»، ومفضّلاً أداءه كرهاً بفاغنر بدلاً من أن يغفر له إكراماً لفيردي، كان يختم كلامه الحازم مخاطباً بوفار:

- رغم الجهد الذي بذله جميع أسيادكم الكرام، فإنّ بلدنا الجميل فرنسا هو بلد الوضوح، وستكون الموسيقى الفرنسية واضحةً أو لا تكون؛ قال هذا وضرب بيده على الطاولة ليعزّز قوله.

وأضاف وهو يلقي على بوفار نظرة ثابتة صارمة ومليئة بالمضمَرات:

- تبّاً لغراباتكم التي تجاوزت بحر المانش، وضبابكم الذي تخطّى نهر الراين، لا تنظروا دائماً إلى الطرف الآخر من منطقة الفوج (Vosges)، إلّا إذا كان ذلك للدفاع عن الوطن. هل بوسع أوبرا فالكيري أن تثير الإعجاب حتّى في ألمانيا؟ أشكّ في ذلك... ولكنّها ستكون دائماً للآذان الفرنسية تنكيلاً جهنّمياً ماحقاً مليئاً بالنشاز! ويجب أن نضيف أنّها أكبر إذلال لكبريائنا الوطنيّة. إنّها أيضاً تُراكم النغمات الشنيعة المتنافرة وتدفع إلى التقزّز كفجور المحارم. يا سيّدي إن موسيقاكم تعجّ بالمسوخ، كأنّ الفنانين فقدوا القدرة على الابتكار. في الطبيعة بالذات- وهي مع ذلك أمّ البساطة- البشاعة وحدها هي التي تعجبكم. ألم يؤلّف السيّد دولافوس (Delafosse) أنغاماً رخيمة حول الوطاويط، حيث جاء شططه كملحّن ليخرّب سمعته العريقة كعازف بيانو؟ لماذا لم يختر طائراً لطيفاً آخر؟ على الأقلّ، قد تكون الأنغام الرخيمة لعصافير الدوريّ فرنسية أكثر؛ للسنونو رشاقته وأناقته؛ والقبّرة هي طائر فرنسيّ بامتياز، بحيث أنّ يوليوس قيصر، كما يقال، كان يأمر بتعليقها مشويّةً على خوَذ جنوده[1].

---

(1) هنا مبالغة من بروست، أو لعلّه خلطَ بين العبارة السائرة «كمن ينتظر أن تسقط القبّرات =

أمّا الوطاويط، أعوذ بالله! الفرنسيّ الذي ينهل دائماً من نبع الصراحة والوضوح سيمقت دائماً هذا الحيوان الديجوريّ. في أشعار السيّد دو مونتيسكو (M. de Montesquou)، نغضّ الطرف ونقول إنّها من نزوات سيّد كبير محبط، ونجيز ذلك له، أمّا أن ينتقل الأمر إلى الموسيقى! فمتى إذن سيُعزف «جنّاز الكناغر»؟... فتنبسط أسارير بوفار بفضل هذه المزحة الجميلة. فيقول له بيكوشيه (دون غطرسة تُحسَب عليه، لأنّ إحساس الناس النبهاء بمزاياهم شيء مقبول):

- اعترفْ بأنّني أضحكتكَ، اضربْ يدك بيدي، لقد أفحمتُكَ!

= بين يديه مشويّة»، ومعناها معروف، وكون يوليوس قيصر كان بالفعل قد أنشأ فرقة من الجند الغاليّين (أسلاف الفرنسيّين) سمّاها «فرقة القبّرات» وزوّد محاربيها بخوَذ تحمل كلّ منها جناحَي قبّرة.

الاصطياف الكئيب للسيّدة دو بريف (De Breyves)

«آريان، أختاه، يا للحبّ الذي أدماكِ
فمتِّ مهجورةً على الشّواطئ!»[1]

1

تردّدتْ فرانسواز دو بريف طويلاً هذا المساء، لتعرف إن كانت ستذهب إلى حفلة الأميرة اليزابيت دو A... التي تقيمها في الأوبرا، أو أنّها ستذهب لتشاهد المسرحية الكوميدية لليفري (Livray).

لقد خرج مدعوّو أصدقائها من العشاء منذ ساعة ونيّف. كان عليها أن تتّخذ قرارها.

صديقتها جنيفييف التي كان عليها أن تعود معها أصرّت على حفلة السيّدة دو A...، في حين أنّ مدام دو بريف كانت تفضّل، دون أن تعرف السبب، أن تختار بين ذينك الأمرين، أو بالأحرى أن تفضّل الثالث، وهو العودة إلى البيت لتنام. أُعلِن عن وصول عربتها. ولكنّها ما زالت دون قرار.

- «حقاً إنّك لستِ لطيفة، قالت جنيفييف، فأنا أعتقد أنّ رِزْكيه (Rezké) سيغنّي وأنّني سأُسعَد بغنائه. يُخيّل للمرء أنّ الذهاب عند أليزابيث يُلحق بكِ ضرراً. أولاً، سأقول لكِ إنّك لم تذهبي ولو لمرّة واحدة هذه السنة إلى حفلاتها الكبرى، مع أنّ بينكما مودّة. هذا ليس لطيفاً منكِ».

(1) جان راسين، فيدر، الفصلُ الأوّل، المشهد الثالث.

بعد أن مات زوج فرانسواز منذ أربع سنوات، وتركها أرملة في العشرين من عمرها، لم تكن تفعل أيّ شيء تقريباً بدون جنيفييف وكانت تحبّ إرضاءها. فلم تقاوم طلبها طويلاً. وبعد أن ودّعت أصحاب البيت والمدعوّين المتحسّرين على أنّهم لم يُسعَدوا إلّا قليلاً بلقاء هذه المرأة التي تتحدّث عنها باريس كلّها، قالت لسائسها:

- إلى أميرة دو A...

2

كانت سهرة الأميرة مملّة جدّاً. وأثناءها سألت مدام دو بريف صديقتها جنيفييف:

- من هو ذاك الشابّ الذي أخذك إلى طاولة السفرة؟
- هو السيّد دو لالياند ولم يسبق لي أن عرفتُه. هل تريدين أن أعرّفك عليه؟ هو طلب مني ذلك، فأجبته بكلمات مبهمة لأنّه تافه ومملّ، وبما أنه وجدكِ جميلة، فإنه لن يتركك البتّة.
- كلاّ، قالت فرانسواز، إنه أيضاً على جانب من البشاعة ومبتذل، مع أنّ عينيه جميلتان.
- أنتِ محقّة، قالت جنيفييف. ثمّ إنّك ستلتقين به كثيراً، قد تنزعجين لو تعرّفتِ عليه.

وأضافت مازحة:

- ولكن الآن إذا أردتِ أن تكوني حميمة معه، فستفقدين مناسبة سانحة جدّاً.
- نعم مناسبة سانحة جدّاً، قالت فرانسواز. وراحت تفكّر في شيء

آخر.

- على كلّ حال، قالت جنيفييف نادمة على أنّها لم تكن وسيطاً وفيّاً وعلى أنّها حرمت ذلك الشابّ مجّاناً من متعة ما. هذه هي إحدى الأمسيات الأخيرة في هذا الموسم، ولن يكون الأمر خطيراً جدّاً، وربّما سيكون ذلك ألطف.

- فليكن كذلك، إن عاد صوبَنا.

لم يعد. كان في القسم الأخير من الصالون، مقابلهما.

- يجب أن نغادر، قالت جنيفييف بعد هنيهة.

- تمهّلي قليلاً، قالت فرانسواز.

وبمزاجيّة وخصوصاً بغنج إزاء هذا الشابّ الذي لا بدّ أنّه وجدها جميلة فعلاً، راحت تنعم النظر فيه ثمّ تُشيح بعينيها ثمّ تثبّتهما عليه. وعندما كانت تنظر إليه كانت تجتهد لمداعبته ببصرها دون أن تعرف السبب، لا لشيء، للمتعة، لمتعة الإحسان والكبرياء قليلاً واللّاجدوى أيضاً، متعة أولئك الذين يكتبون اسماً على ساق شجرة من أجل عابر سبيل لن يروه أبداً، أو متعة من يُلقون بقارورة إلى البحر. ومرّ الوقت وتأخّر؛ وتوجّه السيّد دو لاliاند نحو الباب الذي بقي مُشْرعاً بعد خروجه، وأبصرته مدام در بريف من آخر غرفة الملابس وهو يقدّم رقمه للخادم. فقالت لجنيفييف:

- يجب الآن أن ننصرف.

ونهضتا. ولكن شاءت الصدفة أنّ أحد أصدقاء جنيفييف استوقفها ليقول لها كلمة، فبقيت فرانسواز في غرفة الملابس. ولم يكن فيها وقتئذ إلّا السيّد دو لالي
اند الذي لم يجد عكّازه. فتلهّت فرانسواز للمرّة الأخيرة بالنظر إليه. مرّ هو قربها، وحرّك مرفقه بحيث يلامس مرفق فرانسواز

برفق، فلمعت عيناه ولمّا صارا وجهاً لوجه قال وهو يتصنّع البحث:

- تعالي إلى بيتي، 5، شارع روايال.

لم تكن تتوقّع ذلك، وبينما استمرّ السيّد دو لالياند في البحث عن عكّازه، لم تعرف هي على وجه الدقّة لاحقاً إن كان ما حدث هلوسة. لقد كانت خائفة جدّاً بخاصّة؛ وفي تلك الأثناء مرّ الأمير دو A... الذي كان يتكلّم بطلاقة، فنادته لتتّفق معه على نزهة في اليوم التالي. وأثناء حديثهما انصرف السيّد دو لالياند. وصلت جنيفييف بعد لحظات وغادرت السيّدتان. لم ترو مدام دو بريف شيئاً ممّا حدث وبقيت تحت وقع الصدمة والزهوّ في آنٍ، ولكنّها في المحصّلة كانت غير مبالية. وبعد يومين، تذكّرت ما حدث عن طريق الصدفة، فطفقت تشكّ في صحّة ما قاله السيّد دو لالياند. وحاولت تذكّره، فلم تستطع ذلك تماماً، وظنّت أنّها سمعت كلامه كما في الأحلام وقالت لنفسها إنّ حركة المرفق كانت غير مقصودة. ثمّ لم تعد تفكّر بعفويّة في السيّد دو لالياند، ولكنّها عندما كانت تسمع اسمه عن طريق الصدفة، كانت تتذكّر وجهه بعد أن نسيت تقريباً ما حدث في غرفة الملابس والذي كان أشبه ما يكون بهلوسة.

ورأته ثانية في آخر حفلة أقيمت في تلك السنة (وكان شهر يونيو يقارب على الانتهاء)، ولم تجرؤ على الطلب من أحدهم أن يقدّمه لها؛ ومع أنّها وجدته دميماً إلى حدّ ما وعرفت من بعضهم أنّه غير ذكيّ، كان بودّها أن تتعرّف عليه. فاقتربت من جنيفييف وقالت لها:

- بوسعك أن تقدمّي لي السيّد دو لالياند. لا أحبّ أن أكون قليلة الأدب. ولكن لا تقولي إنّني أنا التي طلبت ذلك. هذا يورّطني.

- بعد قليل إن رأيناه، ليس هو الآن هنا.

- ابحثي عنه إذن.

- ربّما انصرف.
- كلّا، قالت فرانسواز بسرعة، لا يمكن أن يكون انصرف، الوقت مبكّر جدّاً. أوه! حان منتصف اللّيل. يا صغيرتي جنيفييف ليس الأمر عسيراً؛ في الأمسية السابقة، أنت أردتِ ذلك. أرجوك، للأمر أهميّة عندي.

فنظرت إليها جنيفييف بشيء من الدهشة وذهبت تبحث عن السيّد دو لالياند؛ كان قد غادر.

- ترين أن الحقّ معي، قالت جنيفييف وهي تعود إلى مقربة من فرانسواز.
- أموت ضجراً هنا، قالت فرانسواز، رأسي يؤلمني، أرجوكِ، لننصرفْ فوراً.

3

لم تتغيّب فرانسواز من بَعدُ عن الأوبرا مرّة واحدة، وقبلت بأمل مبهم جميع دعوات العشاء التي دُعيت إليها. ومرّت خمسة عشر يوماً ولم تلمح من جديدٍ السيّد دو لالياند، وأحياناً كانت تستيقظ ليلاً من نومها وتفكّر في الوسائل التي تمكّنها من رؤيته ثانيةً. وبينما كانت تكرر لنفسها أنه مملّ وغير جميل، انشغلت به أكثر من جميع الرجال الأكثر ذكاء وسحراً. وبعد أن انتهى الموسم، غابت المناسبة لرؤيته من جديد، فصمّمت على خلق مناسبة وبحثت.

ذات مساء، قالت لجنيفييف:

- ألم تقولي لي إنّك تعرفين رجلاً اسمه دو لالياند؟

- جاك دو لاليّاند؟ نعم ولا، لقد قدّمه أحدهم لي، ولكنّه لم يترك بطاقة زيارة، ليس لي أيّ اتصال به.

- ما سأقوله لك هو أنّني، بباعثٍ من أشياء لا تخصّني ولا يُسمح لي بكشفها لك قبل شهر (خلال هذه المدّة تكون قد اتّفقت مع أحدهم على كذبة معينة، كي لا يفتضح سرُّها، وفكرة السرّ هذه التي ستجمعهما وحدهما، راقت لها)، لي مصلحة صغيرة، لا بل كبيرة، في التعرّف عليه ومقابلته. أرجوكِ، حاولي أن تجدي وسيلة لأنّ الموسم قد انتهى، ولن يكون من بَعدُ أيّ شيء ولن يتمكّن أحد من تقديمه لي.

إنّ علاقات الصداقة الوثيقة، المطهِّرة عندما تكون صادقة، ستحمي جنيفييف، وكذلك فرانسواز، من فضولٍ أحمق هو اللّذة الشائنة لمعظم المنتمين إلى المجتمع المخمليّ. فراحت جنيفييف تبحث بكلّ جوارحها، دون أن تصمّم أو أن ترغب لحظة واحدة أو أن يخطر ببالها أن تسأل صديقتها، وكانت تغضب فقط لأنّها لم تجد.

- المؤسف أنّ مدام A... سافرت. ولكن ثمّة السيّد دو غروميلو (de Grumello)، ولكن لن يفيدنا بشيء في المحصّلة، ماذا أقول له؟ آه، عندي فكرة، السيّد دو لاليّاند يعزف على الفيلونسيل بشكل سيّئ، ولكن لا مشكلة في ذلك. السيّد دو غروميلو معجب به، وهو على جانب كبير من الغباء وسيكون سعيداً جدّاً إن أفرحكِ. ولكنّك أنت التي استبعدتِه دائماً وأنت التي لا تريدين أن تتركي الناس بعد استخدامك إيّاهم، لن تودّي أن تكوني مجبرة على دعوته السنة القادمة.

ولكنّ فرانسواز التي تضرّج وجهُها فرحاً صاحت:

– ولكنّ الأمر سواء بالنسبة لي، سأدعو جميع حديثي النعمة في باريس إن لزم الأمر. افعلي ذلك بسرعة، يا صغيرتي جنيفييف، كم أنتِ لطيفة!

وكتبت جنيفييف:

«يا سيّدي، تعلم كم أنّني أبحث عن جميع المناسبات كي أرضي صديقتي السيّدة دو بريف التي التقيتَ بها دون شكّ. وعبّرتْ لي مرّات عديدة، أثناء حديثنا عن الفيولونسيل، عن أسفها لأنّها لم تسمع عزف السيّد دو لالياند صديقك. هل يمكن أن تدعوه للعزف أمامها وأمامي؟ والآن وقتنا حرّ تماماً، وآمل ألّا يزعجك طلبنا كثيراً إن تلطّفتَ بقبوله. أرسل لك أجمل ذكرياتي.

أليريوفر بويفْر»

«خذ هذه الرسالة فوراً إلى السيّد دو غروميلو، قالت فرانسواز لأحد الخدم؛ لا تنتظر الجواب، بل اجعل الرسالة تُسلّم له أثناء حضورك».

في اليوم التالي أرسلت جنيفييف إلى السيّدة دو بريف جواب السيّد دو غروميلو التالي:

«يا سيّدتي،

لن تتصوّري كم أنّني سعيد بتلبية رغبتك ورغبة السيّدة دو بريف التي لا أعرفها كثيراً وأكنّ لها ألطف مشاعر الاحترام وأقواها. ولكن يؤسفني كثيراً أن أقول إنّ ظرفاً سيّئاً جعل السيّد دو لالياند يذهب منذ يومين إلى بياريتز ليقضي فيها– لسوء الحظّ– أشهراً عديدة.

تفضلي يا سيّدتي بقبول...

«غروميلو»

وهُرعت فرانسواز التي امتقع لونها نحو الباب فأغلقته بالمفتاح. وسرعان ما انداحت تأوّهاتها وسالت عبراتها. وانصبّ حينئذٍ كلّ اهتمامها على تصوّر أخبارٍ تنبئها بأنّها ستراه وستتعرّف عليه، وعلى تيقّنها من أن يكون لها ذلك ما إن شاءت، فلقد عاشت تلك الرغبة وذلك الأمل دون أن تدرك ربّما الأمر. لقد انغرست فيها تلك الرغبة عبر آلاف الجذور التي لم تلحظها هي، والتي تسلّلت إلى دقائق السعادة والأسى كلّها التي لم تعِها، وبثّت فيها نسغاً جديداً لم تدرِ من أين أتى. وها هو القدَر ينتزعها ويزجّها في المستحيل. فشعرت بأنّها ممزّقة، وأمضّ ألمٌ مضنٍ كيانَها كلّه الذي اقتُلِع من جذوره فجأةً؛ وعبر أكاذيب أملها التي انقشعت فجأةً، وعبر عمق أساها، رأت حقيقة حبّها.

4

انسلّت فرانسواز أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم من جميع المباهج. إلى تلك المباهج الباذخة التي كانت تشعر بها في دخيلتها مع أمّها ومع جنيفييف أثناء الساعات التي تقضيها في الموسيقى أو القراءة أو النزهة، لم تعد تُعير إلّا قلباً سكنه الحزن الغيور الذي لم يعد يبارحها لحظة واحدة. ونجمَ عناؤها اللّامحدود عن استحالة ذهابها إلى بياريتز وعن تصميمها المطلق- لو كان ذلك ممكناً- على عدم تعريض هيبتها كلّها للخطر في نظر السيّد دو لالياند، إنْ هيَ أقدمت على هذا المسعى المجنون. ولأنّها لم تعلم لماذا استبدّ العذاب بهذه الضحيّة الصغيرة المسكينة، ذُعرت لاعتقادها أنّ هذا الداء يمكن أن يستمرّ شهوراً وشهوراً قبل إيجاد الدواء، وأنّه سيمنعها من أن تنام بهدوء ومن أن تسرح بأحلامها. وقلقت أيضاً من عدم معرفتها

مروره بباريس، وربّما قريباً، دون أن تدري. وشجّعها خوفها من تفويت الفرصة على سعادتها الوشيكة مرّة ثانية، فأرسلت أحد الخدم ليستعلم من بوّاب السيّد دو لالياند. ولكنّه لم يكن يعلم شيئاً. وعندما أدركت أن لا بصيص أمل يلوح في أفق كآبتها العارمة، وبدا لها أنّه تلاشى وانتهى العالم، شعرت بأنّها ستقدم على خطوات جنونية مبهمة، فالكتابة له ربّما كانت بمثابة علاج يهدّئ من ألمها؛ وأجازت لنفسها أن تُعلمه بأنّها أرادت أن تراه وكتبت الرسالة التالية للسيّد دو غروميلو:

«سيّدي

«السيّدة دو بويفر حدّثتني عن نبيل أفكارك.

«كم أنا ممتنّة ومتأثرة! ولكن ثمّة شيء يقلقني. أخشى أن يكون السيّد دو لالياند فكّر في أنّني فضولية! إذا كنت لا تعلم ذلك، اسأله وجاوبني، عندما تطّلع على الحقيقة كلّها. إنّني متشوّقة إن أسعدتّني بمعرفتها. شكري لك يا سيّدي؟

«وتقبّل أجمل عواطفي.

فوراجين بريف»

وبعد ذلك بساعة حمل لها أحد الخدم هذه الرسالة:

«لا تقلقي يا سيّدتي، لم يعرف السيّد دو لالياند أنّك تريدين الاستماع إلى عزفه. لقد سألته عن الأيّام التي يستطيع فيها المجيء إلى منزلي ليعزف، دون أن أقول له لمن. فأجابني من بياريتز أنّه لن يعود قبل شهر يناير. لا تشكريني مجدّداً. يسعدني كثيراً أن أقدّم لك النزر اليسير... إلخ».

غروميلو»

انسدّت السبل. لم تفعل من بَعد شيئاً، لقد ازداد حزنها، وندمت لحزنها على هذا النحو ولتكدير أمّها. فذهبت إلى الريف لتُمضي بضعة أيّام، ثمّ سافرت إلى تروفيل. وسمعت فيها عن الطموحات المخملية للسيّد دو لالياند، وعندما قال لها أحد الأمراء، بعد أن قدح زناد فكره: «ما عساي أن أفعل لإرضائك؟» فسرّها أن تتصوّر كم سيُذهَل لو أنّها أجابته بصراحة، ولتستمتع بذلك راكمت كلّ المرارة المُسكِرة الكامنة في سخرية ذلك التناقض القائم بين جميع الأشياء الصعبة التي عملها الآخرون لها لإبهاجها، وبين هذا الشيء الصغير السّهل جدّاً والمستحيل الذي كان بوسعه أن يعيد إليها هدوءها وصحّتها وسعادتها وسعادة ذويها. لم تكن تشعر بالانشراح إلّا بين خدمها الذين يكنّون لها أعظم الإعجاب ويخدمونها دون أن يتجرّأوا على مخاطبتها، لشعورهم بفرط كآبتها. وكان صمتهم التوقيريّ وحزنهم يكلّمها عن السيّد دو لالياند. كانت تتمتّع بالإصغاء إلى هذا الصمت، وكانت تجعلهم يقدّمون لها غداءها بتؤدة كي تؤخّر مجيء صديقاتها الذي سيجبرها على كبح شهيّتها. كان بودّها أن تُبقي طويلاً في فمها تلك المرارة العذبة لكلّ ذلك الحزن المحيط بها بسببه. كان بودّها أن يحبّ هو مزيداً من الكائنات، وارتاحت لشعورها أن ما يكنّه قلبه سيشمل قليلاً ما يحيط بها، وكانت ترغب في الاستئثار بحيوانات متحفّزة لأن تشاطرها عِلّتها. ولقنوطها، كانت تريد أن تكتب إليه أو أن يكاتبها وأن تتلوّث سمعتها وألّا «تبالي بأيّ شيء». ولكن كان من الأفضل لها، وحتّى لمصلحة حبّها، أن تحافظ على مكانتها في المجتمع المخمليّ الذي قد يعطيها مزيداً من السلطة لتنتصر عليه ذات يوم، إن أتى ذلك اليوم. وإن كان على العلاقة الحميمة معه أن تكسر السحر الذي ألقاه عليها (ولم تشأ أو لم تستطع أن تصدّق ذلك، وحتّى أن تتصوّره لحظة

واحدة؛ ولكنّ بصيرتها الحادّة أدركت ذلك القدَر الوبيل الذي يعتمل في متاهات قلبها)، فلن يبقى لها أيّ سند في هذا العالم. وإذا ما دهمها حبّ آخر، فستفقد كلّ إمكاناتها التي ما زالت في متناولها الآن، وتلك القوّة التي تسهّل عليها، عند عودتها إلى باريس، أن تتحمّل العاهات التي قد تلمّ بالسيّد دو لالياند. ولكي تفصل بينها وبين عواطفها ولكي تُنعم النظر فيها وتمحّصها، حدّثت نفسها قائلة: «أعلم أنّه تافه وأنّني وجدته دائماً كذلك. هذا رأيي فيه، ولم يتغيّر. ولكنّ الاضطراب تسلّل بعدئذ ولم يقوَ على تبديل هذا الحكم. هذا نزر يسير، ولهذا النزر أعيش. أعيش من أجل جاك دو لالياند!» ولكنّها فوراً بعد أن لفظت اسمه، وبتخاطر أفكار غير إراديّ وغير خاضع للتحليل من جانبها، رأته من جديد وشعرت بهناء جمّ وبألم جمّ، فأحسّت بأنّ هذا النزر اليسير الذي كانه هو لم يكن ذا قيمة كبرى لديها، لأنّه أشعرها بتباريح ومسرات لا وزن للآخرين أمامها. وعلى تفكيرها في أنّ هذا كلّه سيزول ما إن تعرفه معرفة أفضل، كانت تهب ذلك السراب كلَّ واقعِ ألمه وكلَّ لذاذته. ثمّة جملة في أوبرا «المبتزّون» [لفاغنر] سمعتْها في حفلةَ أميرة A... كان لها الفضل في استذكار السيّد دو لالياند بدقّة فائقة تقول:

Dem Vogel der heut sang dem war der Schnabel hold gewachsen.

[العصفور الذي سمعناه لتوّنا/ منقاره جميل وجناحاه عريضان]. ودون قصدٍ منها، جعلتها اللّازمة الموسيقيّة الحقيقية للسيّد دو لالياند، ولدى سماعها ذات يوم في حفلة موسيقية أقيمت في مدينة تروفيل، أجهشت بالبكاء. ومن وقت لآخر- وليس كثيراً كي لا ينتابها الملل- كانت تعتكف في غرفتها التي أمرت بأن يُنقل البيانو إليها- كانت تعزف

مغمضة العينين كي تحسن رؤيته؛ وكان هذا العزف هو فرحها الوحيد المُسْكِر، الذي يعرف غالباً نهاياتٍ تنقشع فيها أوهامها، وكان أيضاً بمثابة مخدّر لا تستطيع الاستغناء عنه. وعندما كانت تتوقّف عن العزف أحياناً لتسمع انسياب وجعها كما ينحني الناس ليسمعوا الهمسات الرقيقة والمستمرّة لينبوع من الينابيع، وعندما كانت تفكّر في الخيار المبرّح بين عارها القادم الذي سيزرع اليأس في قلوب ذويها وبين حزنها الأبديّ (إذا هي لم تستسلم لهواها)، كانت تلعن نفسها لأنّها عرفت أن تُعايرَ المتعةَ والغمّ في حبّها بمثل هذه الدقّة بحيث لم تستطع لا أن تنبذه أوّلاً كما يُنبذ السمّ الزعاف، ولا أن تبرأ منه لاحقاً. وبادئ ذي بدءٍ لعنت عينيها، وربّما لعنت قبلهما عقلها الشنيع المتهافت على التأنّق والغرائب الذي جعل عينيها تتفتّحان كالزهور كي تغويا ذلك الشابّ، ثمّ عرّضها إلى نظرات السيّد دو لالياند التي كانت كالسهام الرقيقة الناعمة الشبيهة بحقنات المورفين. ولعنت أيضاً خيالها الذي غذّى بحنانٍ شديدٍ حبَّها، حتّى إنّ فرانسواز تساءلت إن لم يكن خيالها وحده قد اختلقه، هذا الحبّ الذي راح يسيطر الآن على أمّها ويعذّبها. ولعنت أيضاً رهافتها التي ابتكرت ببراعةٍ وسوءٍ في آنٍ كثيراً من الأخيلة التي تمكّنها من رؤيته ثانية والتي كانت استحالتها المخيَّبة تشدّها أكثر فأكثر إلى بطلها؛ ولعنت طيبتها ورقّة قلبها اللّتين، لو استسلمتْ، لأفسدتا بالندم والعار بهجة هذا الحبّ الآثم؛ كما لعنت إرادتها العاتية والهائجة والمتجرّئة على تخطّي العقبات عندما تقودها رغباتها إلى المستحيل، والواهنة والرخوة والمنكسرة، ليس فقط عندما يترتّب عليها أن تعصاها، بل أيضاً عندما يقودها إحساس آخر. ولعنت أخيراً فكرها بشتّى صنوفه الالهية، أو تلك الموهبة السامية التي أُسبِغت عليها جميع الأسماء، عندما فاتهم أن يجدوا لها اسمها الحقيقيّ-

سواء تمثّلَ بحدس الشاعر أو بوجْد المؤمن أو بالمشاعر العميقة للطبيعة والموسيقى- هذا الفكر الذي خلق لحبّها قمماً وآفاقاً لا متناهية سربلها بأنوار سحره السامية وأضفى على هذا الحبّ جزءاً منه ودفع أعلى ما في حياتها الجوّانية وأعمق ما فيها إلى أن يُعنى بهذا الحبّ ويتضامن معه، ويكرّس له- كما لو كان كنز كنيسة منذورة لمريم العذراء- أنْفَس جواهر قلبها وخاطرها، هذا القلب الذي كانت تصغي إلى نحيبه في أماسيها أو تستمع إليه على الشاطئ الذي غدت كآبته وحزنها هي من ألّا ترى بطلها أختين متلازمتين: لعنت ذلك الشعور المبهم بأسرار الأشياء التي يغرق فيها عقلنا ويُشرق ببهاء الشمس الغاربة فوق البحر، لأنّ هذا الشعور قد عمّق حبّها وجسّده ووسّعه وجعله لا متناهياً، دون أن يخفّف من تباريحه؛ فكما قال بودلير، في معرض حديثه عن نهايات أماسي الخريف: «ثمة مشاعر لا يُقصي غموضُها حدّتَها، وما من حربةٍ أكثر حدةً من حدّة اللّامتناهي».

5

«وكان [فيلومينوس، عاشق غالاتيا] يشتعل منذ أن أشرق النهار على حشائش الشاطئ، حاملاً في صميم القلبِ الجرحَ الحارقَ لكبريس العظيمة كأنّه سهم اخترق الكبد.»

ثيوكريتوس، **السيكلوب**

وجدتُ مدام دو بريف ثانيةً في مدينة تروفيل، وكنت من قبلُ

رأيتها أكثر سعادة. لا شيء يستطيع أن يشفيها. لو كانت تحبّ السيّد دو لالياند لوسامته أو لذكائه، لاستطعنا لنروّح عنها أن نجد شابّاً أذكى وأوسم. ولو كانت طيبته وحبّه لها هما اللّذان جعلاها تتعلق به، لتمكّن شخص آخر من محاولة حبّها بإخلاص أكبر. ولكنّ السيّد دو لالياند ليس بالوسيم ولا بالذكيّ. ولم تُتح له الفرصة ليُثبت لها إن كان رقيقاً أو قاسياً، كريماً أو مخلصاً. إنّها إذن تحبّه هو بالذات لا سجاياه أو مفاتنه التي يمكننا أن نجدها عند أشخاص آخرين وبدرجة عالية؛ إنّها تحبّه هو على الرغم من نقائصه وتفاهته؛ لقد كُتبَ عليها إذن أن تحبّه رغم كلّ شيء. هل كانت تعلم ما كان هوَ؟ ما كانت تعرف سوى أنّه يثير عندها رعشات من الأسى أو الغبطة بحيث لم يعد لحياتها أيّة قيمة؟ إنّ الوجه الأكثر جمالاً، والذكاء الأكثر إبداعاً، لن يحظيا بمثْلِ ذلك الجوهر الخاصّ والمبهم والفريد الذي يمكن لشخص بشريّ أن يحظى بنظيره التامّ في العوالم اللّامتناهية وفي سرمدية الزمن. لو لم تقدها جنيفييف دو بويفر بكلّ براءة إلى مدام A... لما حدث كلّ هذا. ولكنّ الأحداث تعاقبت واعتقلتها ضحيةً لداء دون دواء، لأنّ علّته مجهولة. صحيح أنّ السيّد دو لالياند الذي كان يُمضي وقته على شاطئ بياريتز حياة تافهة ويحلم أحلاماً سقيمة، سيُذهَل لو عرف بالوجود الآخر المحتدم بغرابة شديدة بحيث يُخضِع إليه كلَّ شيء ويلغي كلّ شيء في الكون ما عداه، هذا الوجود الذي ناله هو في روح السيّدة دو بريف، والذي كان يتماشى مع وجوده الشخصيّ ويترجَم بأفعال ولا يتمايز إلّا بوعي أثرى وأكثر حدّة وأقلّ تقطّعاً. سيتعجّب لو عرف أنّه، هو الذي لا يعير وجودَه بالعادة أيّ اهتمام، يُستذكَر فجأةً في كلّ مكان ترتاده مدام دو بريف، وفي أوساط أناسٍ يفوقونه موهبةً، وفي الصالونات المغلقة بإحكام، وفي

البيئات التي تكتفي بذاتها؛ وإذا بهذه المرأة المعشوقة فقدت كلّ عاطفة وتفكير واهتمام، إلّا لذكرى ذلك الدخيل الذي يتلاشى أمامه كلّ شيء، كما لو أنّه كان الإنسان الوحيد الذي له وجود، وكما لو كان الأشخاص الآخرون يذهبون هباء كالذكريات والظلال.

سواء تنزّهت مدام دو بريف مع شاعر أو تناولت الغداء مع أرشيدوقة، أو غادرت تروفيل لتذهب إلى الجبال والحقول، أو كانت وحدها أو قرأت أو تحدّثت إلى الصديق الأحبّ لديها، سواء كانت على صهوة جوادها أو كانت نائمة، كان اسم السيّد دو لالياند وصورته يهيمنان عليها بعذوبة أو بوحشية وحتميّة، شأنهما شأن السماء التي تُطبق فوق رؤوسنا. ووصل بها الأمر- هي التي كانت تمقت بياريتز- إلى أن تَجد في كلّ ما له صلة بهذه المدينة سحراً ممضّاً ومشوِّشاً. كانت قلقة على سكّانها الذين قد يرونه دون علم منهم ويعيشون معه ربّما دون أن يستمتعوا بهذه المعايشة. إنّها لا تحقد على هؤلاء، ودون أن تعطيهم نصائح، كانت تسألهم دون انقطاع، مستغربة من أنّهم يسمعون تمتمات سرّه دون أن يكتشفه أحد. وكانت صورة فوتوغرافية كبيرة لبياريتز هي الوحيدة التي تزيّن غرفتها. ووجدت في أحد المتنزّهين سيماء السيّد دو لالياند. ولو أنّها عرفت بالموسيقى الرديئة التي يحبّها ويعزفها، لاحتلّت المقطوعات العاطفية المرذولة على البيانو الذي لها وعلى قلبها لاحقاً مقام سمفونيات بيتهوفن وأوبرات فاغنر، لتردّي ذوقها، ولانبهارها بذاك الذي استمدّت منه كلّ سحرٍ وكل عناء ينهمر عليها. وأحياناً كانت صورة ذاك الذي رأته مرتين أو ثلاثاً وللحظات، والتي لا وزن لها في الأحداث الخارجية لحياتها والتي أثّرت في تفكيرها وقلبها واستحوذت عليهما برمّتهما، تتشوّش أمام عيني ذاكرتها الكليلتين. فلم تعد تراه وتتذكّر ملامحه وقامته، وكأنّ عينيه قد

غامتا عنها. ومع ذلك، هذه هي الصورة التي التقطتها له. وكانت تُجنّ لظنّها أنّها تستطيع أن تفقده وأنّ الرغبة- التي تُمِضّها وتستحوذ عليها الآن، والتي تلوذ هي بها، بعد أن أقصتها عنها، والتي تتشبّث بها الآن كما يتشبّث المرء ببقائه وحياته، جميلة كانت أو سيئة- يمكنها أن تتلاشى ولا يبقى منها إلّا الحلم السيّئ والأليم، ودون أن تعرف مصدرها، ودون أن تراه من بَعدُ مستحوذاً على تفكيرها ودون أن تحبّه بالتالي. ولكن صورة السيّد دو لالياند عادت بعد هذا الاضطراب الآنيّ الذي اعترى تلك الرؤية الجوّانية. يستطيع الآن أساها أن يعود، وقد يكون حبوراً لها.

كيف ستطيق مدام دو بريف هذه العودة إلى باريس في حين أنّه هو لن يعود إليها إلّا في شهر يناير؟ ماذا ستفعل حتّى ذلك الحين؟ ماذا ستفعل، وماذا سيفعل هو بعد ذلك؟

مراراً ومراراً وددتُ أن أسافر إلى بياريتز وأن أعيد السيّد دو لالياند. قد تكون النتائج رهيبة، ولكن ليس عليّ النظر في ذلك، فلن تسمح هي به. ولكن يحزنني أن أرى ذينك الصدغين الصغيرين المضروبين من الداخل يتهشّمان تحت وقع الضربات المتلاحقة لهذا الحبّ الملغز الذي راح ينظّم حياتها على مقام القلق. وغالباً ما كانت تتصوّر أنّه سيأتي إلى تروفيل وسيقترب منها ويقول لها إنّه يحبّها. إنّها تراه الآن فتلتمع عيناها. إنّه يتكلّم بذلك الصوت الشبحيّ للحلم، ذلك الصوت الذي يمنعك من التصديق ويرغمك مع ذلك على الإصغاء. ها هو يقول لها ذلك الكلام الذي يجعلنا نهذي، مع أنّنا لا نسمعه إلّا في الحلم، عندما تتلألأ فيه تلك الابتسامة الحيّة الواثقة بالأقدار المتآلفة. فما إن يتراءى لعالَمي الواقع ورغبتها أنّهما متناظران، وأنّه يستحيل عليهما أن يلتقيا إلّا في العتمة بالجسد الذي جاء بها، حتّى تستيقظ. وعندما تتذكّر تلك

الدقيقة التي لامس فيها مرفقه مرفقها، ووهبها فيها ذلك الجسد الذي كانت تستطيع شدّه إلى جسدها، لو أنّها أرادت وعرفت، والذي ربّما هو الآن بعيد كلّ البعد عنها، فإنّها تشعر بصرخات اليأس والتمرّد تخترق كيانها كلّه على غرار تلك الأصوات التي تُسمع من فوق السفن التي ستغرق. وإذا ما تنزّهت على الشاطئ أو في الغابات، وتركت متعة التأمّل أو الحلم، أو حتّى أقلّ من ذلك، إذا ما تركت رائحة زكية وترنيمة يحملها النسيم ويغشّيها، إذا ما تركت تلك المتعة تستحوذ عليها وتُنسيها وجعها للحظة، شعرت فجأةً بجرح أليم يطفر من قلبها، ولمحت، فوق الأمواج وأوراق الشجر وفي حيرة الأفق الغابيّ أو البحريّ، الصورةَ المبهمة لغالبها الخفيّ والحاضر الذي، بعينيه الملتمعتين في السحب، كما حدث في ذلك اليوم الذي فيه تبدّى لها، يهرب بكنانته التي منها أخرج للتوّ من جديدٍ سهماً وأصابها به.

أغسطس 1893

بورتريهات رسّامين وموسيقيّين[1]

بورتريهات رسّامين

ألبير كويب[2] (Albert Cuyp)

كويب، يا شمساً غاربة مضمحلّة في الهواء الصافي
يُعكّرها طيران وراشين رمادية كما يُعكّر الماء،
ندىً ذهبيّ، هالة في جبين ثور أو في قمّة سَنْدر،
بخور أزرق لأيّام مشرقة يدخّن فوق الرابية،
أو غدير من الضياء يركد في كبد السماء الرقراقة.
ثمّة فرسان متأهّبون، تشرئبّ الريشات الورديّة فوق قبّعاتهم،
راحات أيديهم تحاذي أجسامهم؛ سيماؤهم حيّة تورّد بشرتهم،
وتفتح برفقٍ شعورَهم الشقراء الناعمة،
ومغويّينَ بالتموّجات النديّة والحقول المتوهّجة،
دون أن يُجْفِل عدْوُهم الثيرانَ التي يحلم
قطيعُها في الضباب الذهبيّ الشاحب الساكن،
ينطلقون كي يتنسّموا تلك الدقائق العميقة.

---

(1) في هذه القصائد الثماني، حذا بروست حذو بودلير، واقتبس شكل قصيدته «الفنارات Les Phares»، وقبل أن ينظمها تردّد إلى متحف اللوفر مراراً ليمعن النظر في لوحات الفنانين الذين كتب عنهم.

(2) هو سليل عائلة هولندية اشتهرت برسّاميها (ولد في دوردرخت عام 1620 وتوفي فيها عام 1691) وعرف برسمه البوْرتريه والمنظر الطبيعيّ.

باولوس بوتر[1] (Paulus Potter)

قاتمٌ هو حزنُ السماوات الكامدة على مدّ النظر
حزنها اشتدَّ من زرقتها ذات الانقشاعات النادرة،
وهيَ تترك فوق السهول الواجفة
الدموعَ الساخنة لشمسٍ حائرة؛
أنت يا بوتر مِزاج السهول المظلمة الحزين
تلك التي تمتدّ دون حدود، دون فرح، دون لون،
فالشجر والدسكرة لا تنشر الظلال،
والجنائن الهزيلة لا تُنبت ورداً،
وحارثٌ يحمل دلوين يدلف،
وفرسه الناحلة المستكينة القلقة الحالمة
المتوجّسة، ترفع هامتها الساهمة،
وتتنسّم بأنفاسها اللّاهثة الهبّاتِ العاتيةَ للرّيح.

أنطوان فاتّو[2] (Antoine Watteau)

شفق يُخَضّب الأشجار والوجوه
بدثاره الأزرق، تحت قناعه الحائر؛

(1) رسام هولنديّ (1625–1654) أعار اهتماماً خاصّاً بالحيوانات، ولا سيّما الحيوانات المنزلية.

(2) رسام فرنسيّ (1684–1721) اهتمّ كثيراً بمشاهد الشارع وبالتمثيل المسرحيّ، وكرّس له بودلير أربعة أبيات في قصيدته «الفنارات».

غبارُ قبلاتٍ حول أفواهٍ متعبة...
يغدو المبهم رقيقاً، ويُمسي البالغُ القربِ، نائياً.

ملابس التهريج، ذاك البُعد الحزين الآخر،
تجعل إيماءة الحبّ أكثرَ زيفاً وسِحراً وحزناً.
نزوة شاعر- أو حذرُ عاشق،
يحتاج الحبّ زينة متقنة.
هاهي الزوارق و«العصرونيّات» والسّكوتات والموسيقى.

أنطوان فان ديك[1] (A. Van Dyck)

نعومةُ أَنَفةِ القلوبِ، نُبلُ بهاءِ الأشياءِ
المؤتلقةِ في العيون والمخمل وقرون الأيائل المعلّقة،
لغة جميلة راقية للملبس والوضعيّات
- كبرياء النساء والملوك الموروثة! -
فان ديك، يا ملك الحركات الهادئة،
إنّك لَتنتصر في جميع الكائنات الجميلة التي قريباً ستموت،
في كلّ يد جميلة ما برحَت تعرف أن تنفتح،
دون أن تشعرَ هيَ- لا ضير!- تكلّلكَ بالسّعف!
استراحة الفرسان تحت الصنوبر وقرب الماء
الهادئ هدوءهم- الدّاني على غرارهم من الزفرات -؛

(1) رسام فلامندي (1599-1641) رسم بورتريهات لمجموعة من ارستقراطيّي أوروبا الغربية، واجتذبته أعمال فنّاني عصرْ النهضة الايطالية. وتميّز رسمه بدقّة تعابير الوجوه.

أطفال الملوك بتجهّمهم الرائع
بثيابهم المطواعة، وقبّعاتهم التي يعلوها الريش المزهوّ
ومجوهرات تبكي فيها- كموجةٍ تخترق ألسنة اللّهيب -
مرارةُ الدموعِ التي تطفح بها النفوس
الأكثر تشامخاً من أن تتركها ترتقي إلى العيون؛
وأنتَ فوق الجميع، أنتَ المشّاء النفيس،
في قميصكَ الأزرق الباهت، ويدك القائمة على الخصر،
والأخرى تحمل ثمرة يعلوها الورق واقتطعت من الغصن،
أحلم دون أن أدرك بحركتكَ وعينيكَ:
أيها الشابّ الحكيم! يا دوق ريشمون- أم أنت المجنون الساحر؟ -
تقف، ولكن مرتاحاً في هذا الملاذ المظلم،
أعود إليكَ دائماً: ياقوتة في عنقكَ،
تتوهّج نيرانها الرقيقة رقّة نظرتكَ الهادئة.

بورتريهات موسيقيّين

شوبان[1] (Chopin)

شوبان، يا بحر الزفرات والدموع والتأوّهات،
التي يخترقها طيران فراشات لا يتوقّف

(1) موسيقي بولنديّ (1849–1819) من أب فرنسيّ، بدأ التلحين في سنّ مبكّرة عندما كان طالباً في المعهد الموسيقيّ. ألّف روائع «مازوركا بلا مينور» و«ليليّة بمي مينور» واثنتي عشرة «دراسة» وكونشرتوات عديدة. وهو الذي حبّب الألحان البولندية للفرنسيّين. وكانت له علاقة صاخبة بالكاتبة جورج صاند وتوفّي مسلولاً في سنّ التاسعة والثلاثين.

عازفاً على الحزن أو راقصاً فوق العُباب.
احلمْ، اعشقْ، تألَمْ، أصرخْ، هدّئ، اسحرْ، هَذْهِذْ،
دوماً، وبين كلّ لاعجةٍ وأخرى، تُركِضُ
نسيانَ نزوتكَ الدّواريَ اللّطيف
كما تطير الفراشات من زهرة إلى زهرة؛
يتواطأ حبورُكَ مع حزنكَ:
يُفاقم احتدامُ الزوبعة ظمأَ العبرات.
يا رفيقَ القمر والمياه، اللّطيفَ الشاحب،
يا أميرَ اليأس ويا أيها السيّدُ الكبيرُ المخدوع،
ما فتئتَ تتحمّس- ما أجمل امتقاعَكَ! -
للشمسِ الغامرةِ غرفتكَ، غرفة العليل،
باكياً إذ تبسمُ لها، ومعذّباً بمرآها...
بسمات أسفٍ، وبكاء أملٍ، أيّ أمل!

غلوك[1] (Gluck)

هيكل للحبّ والصداقة، هيكل للشجاعة
شيّدته مركيزةٌ في حديقتها
ذات الطراز الإنكليزيّ، حيث فاتّو، بحبٍّ وافرٍ يشدّ قوسَه
ويستهدف بِغَيْظهِ القلوبَ البهية.

(1) كريستوف غلوك (1714-1787) هو أحد الموسيقيين الألمان الكبار الذي طور الأوبرا في أعماله «أورفيوس وأوريديس» و«ألكستيس» و«إيفيجينيا في توريد»، وهذه الأخيرة لاقت نجاحاً باهراً في باريس، وجعلت الجمهور يتذوّق أسلوباً جديداً غير الأسلوب الأوبراليّ الإيطالي.

ولكنّ الفنّان الألمانيّ- كم كان يحلم بمدينة كنيذوس![1] -
نَحَتَ بمزيد من الصرامة والعمق ودون تكلّفٍ،
نَحَتَ العشّاق والآلهة الذين تراهم في الإفريز:
يضرم هرقلُ ناره في حدائق أرميدا![2]

لم تعد الأقدام المتراقصة تقرع الممرّ
الذي يُصِمّ فيه رمادُ العيونِ والبسمةِ الذاوية جميعاً
خطواتنا الوئيدة ويبسطُ زرقته على الآفاق النائية؛
سكت صوت القياثر أو أنّه تصدّع.

بيد أنّ صراخكما الأبكم، يا أدميتوس، ويا إيفيجينيا،
لا يزال يُرعبنا، ناطقاً بإشارةٍ،
لقد طوّعه أورفيوس واستخفّت به ألكستيس،
نهر الستيكس ذاك، الذي لا سواري ولا سماء له، والذي فيه رست عبقريّتكَ[3].

---

(1) مدينة إغريقية تقع في آسيا الصغرى، اشتُهرت بتمثال أفروديت الرائع الذي نُصب في ساحتها.

(2) أوبرا لحنها غلوك عام 1777 وتروي هيام الساحرة أرميد بسجينها رينو. والقصة مقتبسة من ملحمة الشاعر الإيطالي تاسيو «القدس المحرّرة».

(3) في الميثولوجيا الأغريقيّة تضحّي إيفيجينيا بنفسها من أجل اليونان فتضع الآلهة محلّها ظبية، وترسلها لتكون كاهنة في توريد (القرَم حالياً)، أمّا ألكستيس فتقبل بالتضحية بنفسها قرباناً لآرتميس لتنقذ زوجها أدميتوس من غضبه، فيعيدها هيراكليس (هرقل عند الرومان) من الجحيم. والستيكس هو أحد أنهار الجحيم في الميثولوجيا ذاتها.

على غرار ألكستيس، انتصر غْلوك بالحبِّ أيضاً
على الموت المحتوم لعُمْرِ طافح بالنزوات؛
أراه واقفاً، كهيكلٍ عظيمٍ للإقدام،
فوق أطلال هيكلٍ صغيرٍ كُرِّسَ لإله الحبّ.

شومان[1] (Schumann)

من الحديقة العتيقة التي احتفت بك صداقتُها
اسمعِ الصبيانَ والأعشاش تزقزق في الأجمات،
أيّها العاشق المتعَب بأشواطٍ ورزايا كثيرة
يا شومان الجنديّ الحالم الذي خيّبت الحربُ أملَه.

يضمّخ النسيمُ الهانئ الذي تعبره الحمائم
بشذا الياسمين ظلَّ شجرة الجوز الكبيرة،
يقرأ الطفلُ المستقبلَ أمام ألسنة النار في الموقد،
ويُحدّث الغيمُ أو الريحُ قلبكَ عن القبور.

في الماضي كانت دموعكَ تسيل وسطَ صراخ الكرنفال
أو تخلط رقّتَها بمرارة النصر
الذي ما زال زخمه المجنون يرتعش في ذاكرتك؛

(1) موسيقيّ ألماني (1810–1856)، من مقطوعاته المشهورة «شجرة الجوز»، و«قولي لي يا سنونوتي الصغيرة»، و«الياسمين»، و«ضوء القمر»، و«حديقتي»، و«عشيقات الشاعر»، و«مدّي يدكِ لي، يا سحابة»، و«كرنفال»... مسّه الجنون في آخر حياته وتوفّي في مصحّ. ويمثّل شومان قمّة الفنّ الموسيقيّ الرومانطيقيّ في ألمانيا.

تستطيع البكاء مديداً: إنّه نصرُ منافسِكَ.

يدفع نهر الراين مياهه المقدّسة نحو كولونيا.
كم كنتَ تغنّي بحبور أثناء الأعياد
على ضفتيه!- ولكنّ الحزن هدّك فنمتَ...
إنّه مطرُ عبراتٍ في ديجور مضيء.

حلمٌ فيه تعيش الميّتةُ، وفيه حظيتِ الجاحدةُ بإيمانِك،
آمالُكَ أزهرت وجريمتها طواها النسيان...
ثمّ يُحدثُ الاستيقاظُ برقَه المدوّي فتضربك
الصاعقةُ من جديدٍ للمرّة الأولى.

اِجْري، عَطّري، سِيري على وقع الطبول أو كوني جميلة![1]
شومان حافظُ أسرار النفوس والزهور،
هوَ بين ضفتيك الجذلتين، نهرٌ مقدّسٌ، نهر الآلام،
حديقةٌ ساهمة حانية نديّة وفيّة
تتعانق فيها الزنابق والقمر والسنونوة،
جحفل يزحف، طفل يحلم، امرأة تذرف الدموع!

(1) الارجح أنّ المخاطب المؤنّث هنا هو الموسيقى، يُطري أمامها الشاعر على شومان.

موتسارت[1] (Mozart)

إيطالية تتأبّط ذراعَ أميرٍ من بافاريا
وعينه المكلومة الجامدة تهلّل لتباريحها!
في حدائقه الباردة يُمسك إزاءَ قلبه
ثدييها الناضجين في الظلام واللّذينِ يَرضَعُ منهما النور.

روحه الألمانية الرقيقة- زفرةٌ ما أعمقها! -
تذوق أخيراً الكسل المتأجّج لكونها معشوقة،
يسلّم اليدينِ الأوهنَ من أن تصدّاه
الأمل المُشرقَ الذي يعتمل في رأسه المسحور.

كمثِلِ كروبين، وكمثِلِ دون جوان! بعيداً عن النسيان المُذوي،
يقفُ في العطور لفرطِ ما داسَ من أزهارٍ،
بدّدتها الريح دون أن تجفّف منها العبرات
من الحدائق الأندلسيّة الى قبور توسكانا!

في الحديقة الألمانية التي يتضبّب السأم فيها
ما زالت الإيطالية ملكة اللّيل.
أنفاسها تجعل الهواء عليلاً شفيفاً

(1) ينوّه بروست خصوصاً ببعض الأعمال الأوبرالية لموتسارت، مثل «عرس فيغارو» (وفيها تظهر شخصية كروبين)، و«دون جوفاني»، وكلتاهما تحدثان في الأندلس في إشبيلية أو قربها، و«المزمار المسحور» (وفيها تظهر ملكة الليل).

ومزمارها المسحور يقطّرُ بمنتهى العِشق
في العتمة التي لا تزالُ حارّةً بوداعِ نهارٍ جميل
غضارةَ مشروب اللّيمون والقُبلِ والسماء.

اعترافات فتاة[1]

«رغبات الجسد تجرحنا في كلّ مكان، ولكن عندما تمرّ الساعة، ماذا تجلب؟ تأنيب الضمير وتشتّت الفكر. يخرج المرء فرحاً وغالباً ما يعود حزيناً، ومتَع المساء تُحزِن الصباح. وهكذا فإنّ فرح الحواسّ يخدع أوّلاً، ولكنّه في آخر المطاف يَجرح ويَقتل».

(**الاقتداء بالمسيح يسوع**، الكتاب الأوّل، الفصل الثامن عشر)

1

«بين النسيان الذي نبحث عنه في المسرّات المزيّفة،
يعود أكثر بتوليّةً عبر السكَرات
شذا اللّيلك الناعم الحزين».

(هنري دو رينييه)

(1) كتب بروست هذه القصّة على منوال **اعترافات** القديس أغوسطينوس التي تتميّز بحبّ الأمّ لخلاص ابنها، وبالتركيز على مسألة الخطيئة والغفران ونداء الله، وأوردها بروست بصيغة المتكلّم، وعلى لسان ساردة. ورأى الباحثون أنّ هذه القصة هي بمثابة رشيم لسباعيّته «البحث عن الزمنْ المفقود».

أخيراً يقترب الخلاص. بالتأكيد كنتُ خرقاء، وأطلقتُ النار، وكدتُ أُخطئني. بالتأكيد كان يجدر بي أن أموت منذ البداية، ولكنّ الأطباء لم يستطيعوا أن يستخرجوا الرصاصة، ثمّ بدأت مشاكل القلب، قد لا يطول الأمر كثيراً، مع ذلك ثمانية أيّام! وقد يطول لثمانية أيّام أخرى! وخلالها لن أتمكّن إلّا من السعي إلى استعادة التعاقب المريع للحدث. لو لم تخرْ قواي ولو توفرتْ لي الإرادة كي أنهض وأغادر، لطاب لي الذهاب كي أموت في «منزل النسيان»[1]، في حديقته الواسعة التي أمضيت فيها جميع فصول الصيف حتّى ناهزتُ الخامسة عشرة. ما من مكان امتلأ أكثر من هذا بشخص أمّي، لكثرة ما هيمنتْ عليه بحضورها وبغيابها أيضاً. أليس الغياب هو لِمن يعشق الحضور الأكثر يقيناً ونجاعةً ورسوخاً وديمومة ووفاءً؟

كانت أمّي تأخذني إلى «منزل النسيان» في نهاية أبريل، وتغادر بعد يومين، ثمّ تعود لتمضي يومين آخرين في شهر مايو وترجع لتأخذني في الأسبوع الأخير من يونيو. وكانت زياراتها القصيرة ألطف شيء وأقساه في آن. خلال ذينك اليومين كانت تغمرني بحنانها، مع أنّها بالعادة كان تضنّ به، كي تقوّي عودي وتهدّئ مشاعري المريضة. في مساء ذينك اليومين اللّذين كانت تقضيهما في «منزل النسيان» كانت تمسّيني بالخير في سريري، وهي عادة قديمة كانت قد نسيتْها، لأنّني كنت أشعر في ذلك بمتعة فائقة وألم فائق، إذ كنت من بَعدُ لا أقدر على النوم لفرط ما كنت أناديها لتأتي لتمسّيني بالخير مرّة أخرى، وفي الأخير لم أعد أجرؤ على ذلك، مع أنّني كنت أشعر بحاجتي الملتاعة إليه، فأخترع دائماً حججاً جديدة، أربطها بمخدّتي التي أصبحت لاهبة وينبغي قلبها، وبرجليّ

(1) هو منزل أخوال السّاردة، منحوه هذا الاسم (Les Oublis).

المتجمدتين اللّتين تستطيع وحدها أن تبعث فيهما الحرارة بيديها... كلّ تلك اللّحظات الناعمة كانت تكتسب عندي رقّة إضافيّة آتية من شعوري بأنّ تلك اللحظات هي التي كانت فيها أمّي تبدي شخصيّتها الحقيقية وأنّ برودتها المعتادة كانت بلا شكٍّ تكلّفها كثيراً. وكان يوم مغادرتها يوم يأس عندي فكنت أتشبّث بثوبها حتّى نصل إلى عربة القطار فأتوسّل إليها أن تأخذني معها إلى باريس، وكنت أميّز ببراعةٍ ما بين الصدق والتصنّع، وألتقط جيّداً حزنها الذي يبزغ من زجرها اللّطيف والغاضب لحزني «الغبيّ والمضحك» الذي كانت تريدني أن أتعلّم كبحَه، مع أنّها كانت تشاطرني إيّاه. ما زلتُ أشعر بتأثّري في أحد أيّام مغادرتها لي (وكان تأثّراً صادقاً لم يُفسده استذكاري الأليم اليوم)، ذلك اليوم الذي اكتشفتُ فيه عاطفتَها المماثلة لعاطفتي لا بل التي تفوقها. وكجميع الاكتشافات، كنت قد استشعرتُ ذلك الاكتشاف وحزرتُه، ولكنّ الأحداث بدت وكأنّها في أغلب الأحيان تتناقض وإيّاه! وأجمل انطباعاتي ارتبطت بتلك السنوات التي استُدعِيتْ هي فيها إلى «منزل النسيان» لأنّني كنت مريضة. فهي لم تكن آنئذٍ تقوم بزيارة إضافية لم تكن في الحسبان فقط، بل كانت كلّها حناناً ورقّة ينسكبان دون مواربة أو إكراه. وحتّى إذا كان هذا الحنان وهذه الرقة لا يتلطّفان ويتهذّبان وقتئذٍ بالفكرة القائلة إنّني سأفتقر إليهما ذات يوم، فإنّ عظْم شأنهما عندي جعلَ رونق فترات النقاهة يكون لي دائماً بمثابة حزن قاتل: كان يقترب ذلك اليوم الذي سأبرأ فيه وتتمكّن أمّي من المغادرة، ثمّ إنّ وجعي كان قد خفّ بما فيه الكفاية ليسمح لها بالعودة إلى الصرامة وإلى العدالة الخالية من المغفرة كما في السابق.

وذات يوم، أخفى عنّي أخوالي الذين كنت أسكن عندهم أن أمّي ستأتي، لأنّ ابن عمّ صغير لي أتى ليمضي بضع ساعات معي، ولأنّني

ما كنت سأهتمّ به كفايةً أثناء توجّسي البهيج في انتظارها. وربّما كان هذا الإخفاء أُولى المناسبات الخارجة عن إرادتي، التي ستتواطأ مع شتّى الاستعدادات للشرّ الذي كنت أحمله فيّ كباقي الأطفال من عمري، وما كنت يومئذٍ لأزيد عليهم في ذلك. كان ابن العمّ ذاك في الخامسة عشرة، وكنت في الرابعة عشرة، وكان فاسقاً وعلّمني أشياء جعلتني أرتجف فوراً من الندم والشهوة. استمتعتُ بالإصغاء إليه وبترك يديه تداعبان يديّ، وكان ذاك فرحاً مسموماً في أصله بالذات؛ وبسرعة أسعفتني قوّتي فتركتُه وهربتُ إلى الحديقة، وشعرت بحاجة ملحّة إلى أمّي التي على حدّ علمي كانت في باريس، للأسف، وناديتُها في كلّ معابر الحديقة رغماً عنّي. وفجأةً لمحتها أمام ممرّ معرّش جالسة على مقعد مبتسمة تفتح لي ذراعيها. فرفعتْ برقعها لتقبّلني فوثبت إلى خدّيها وأجشهتُ بالبكاء؛ بكيتُ طويلاً وأنا أسرد عليها جميع الأشياء الشائنة التي قلتها لها بسبب عمري الغرّ، فاستمعتْ إليها بهدوءٍ دون أن تفهمها وقلّلت من أهميّتها بطيبة خفّفت وطأة ضميري. وكانت هذه الوطأة تخفّ وتخف؛ وشيئاً فشيئاً عادت روحي شفيفة قوية فيّاضة، فكنت كلّي روحاً، وانبعثت عذوبة إلهيّة من أمّي ومن براءتي المستعادة. وسرعان ما شعرت تحت منخريّ برائحة فيها من الطهر والنضارة ما فيها. كان هناك شجرة ليلك أزهرَ أحد أغصانها الذي حجبته عني مظلة أمّي وكان هو- دون أن أراه- مصدر تلك الرائحة. في أعلى الأشجار كانت العصافير تزقزق بكلّ ما أوتيتْ من قوّة. وفوق الروابي الخضراء كانت زرقة السماء على درجة من العمق بحيث يتراءى للمرء أنّه يستطيع صعودها دون حدود. قبّلت أمّي ولم أجد من بَعدِ حلاوة تلك القبلة، وغادرتْ في اليوم التالي، وكان سفرها هذا أشد قساوة عليّ من جميع أسفارها الماضية. وبدا لي،

بعدَ أن وقعتُ في الخطيئة، أنّ الفرح والقوّة والمؤازرة الضرورية راحت تُفلت مني.

وعلّمتني جميعُ تلك الانفصالات، رغماً عنّي، أن ما لا يمكن درؤه قادم قريباً، مع أنّني وقتئذٍ لم أكن أفكر قطّ في أنّني سأعيش أكثر من أمّي، وكنتُ قّررتُ أن أقتل نفسي بعد موتها فوراً. ولاحقاً زوّدني الغياب بمعلومات أخرى أكثر مرارة، وأفهمني أنّ الإنسان يعتاد الغياب، وبأن أكبر انتقاص للذات وأكثر ألم مُذلّ هو أن يشعر المرء بأنّه لم يعد يتعذّب منه. وكان على هذه المعلومات أن تكذَّب لاحقاً. وبخاصّةٍ أفكّر الآن في الحديقة الصغيرة التي كنت فيها أتناول إفطار الصباح مع أمّي وتساورني فيها أفكار وأفكار. بدت لي دائماً أفكاراً مشوبة بالأسى، أفكاراً خطيرة كشعارات ضخمة، ولكنّها أفكار رقيقة وناعمة، أفكار خبّازية اللّون أغلب الأحيان، بنفجسيّة أحياناً أخرى، تكاد تكون سوداء، ولها صوَر صفراء ممشوقة القامة وسريّة، وكان بعضها ناصع البياض وذا براءة ناحلة. أجمعُ الآن هذه الأفكار كلّها في ذاكرتي، لقد تفاقم حزنها بعد أن تبدّت وفُهِمت، وتلاشت إلى الأبد رقّة نعومتها.

2

كيف استطاع كلّ هذا الماء العذب من الذكريات أن يتبجّس مرّة أخرى ويجري في روحي النجسة اليوم دون أن يتدنّس فيها؟ أية قوّة تستطيع أن تملك هذه الرائحة الصباحية لأشجار اللّيلك وتجتاز كلّ تلك الأبخرة الكريهة دون أن تختلط بها وتضعف فيها؟ واحسرتاه! في داخلي وفي الأوان ذاته بعيداً جدّاً عنّي، استيقظتْ روحي النائية عنّي، روحُ فتاة

ناهزت الرابعة عشرة. أعلم تمام العلم أنّها لم تعد روحي ولا يقف عليّ أن تعود هي. وفي المحصّلة لم يخطر ببالي أنّني ذات يوم سأندم عليها، لم تكن إلّا طاهرة، وكان عليّ أن أعزّزها لتقوى في المستقبل على الاضطلاع بالمهمّات الرفيعة. وغالباً في «منزل النسيان»، بعدما أكون أمضيت لحظاتٍ مع أمّي على جرف الماء الذي تمرح فيه الشمس والأسماء، أثناء ساعات النهار الحارّة، أو عندما كنّا صباحاً أو مساءً نتنزّه في الحقول، غالباً ما كنت أحلم واثقةً بهذا المستقبل الذي لم يكن قطّ على درجة كافية من الجمال، لا في نظر حبّها ولا بالقياس إلى رغبتي في إرضائها، أو إلى قوى الإرادة، أو على الأقلّ قوى المخيّلة والشعور التي كانت تعتمل فيّ وتصرخ في وجه القدَر الذي قد تتحقّق فيه وتعكف على قرع حاجز قلبي كأنّها تبغي فتحه ليَثِبَ من مكانه فيّ ويُهرع إلى الحياة. ولئن كنت وقتها أقفز بكلّ قواي، ولئن كنت أقبّل أمّي ألف مرّة ومرّة، وأركض من هنا وهناك ككلب صغير، ولئن كنت أتخلّف عنها لأجمع شقائق النعمان والتُّرُنجان، وأعود بها وأنا أطلق الصرخات، فإنّني لم أفعل ذلك حباً بالنزهة البهيجة نفسها وما أقطفه فيها من أزهار، بل لأعبّر عن سعادتي شاعرةً في داخلي بأنّ هذه الحياة جاهزة للانطلاق والامتداد إلى ما لا نهاية، والمضيّ إلى فضاءات رحبة وساحرة تبزّ الأفق القصيّ للغابات والسماء التي شئتُ بلوغَها بقفزة واحدة. يا باقات الترنجان والنَفَل وشقائق النعمان، إن كنتُ أجمعكِ بنشوة ما بعدها نشوة، وبعينين متّقدتين، وبقلب مختلج، إنْ كنتِ تُضحكينني وتُبكينني، فلأنّني كنتُ أضمّكِ بكلّ ما أوتيتُ من رجاء وقتئذٍ، ذلك الرجاء الذي جفّ الآن مثلكِ وتعفّن دون أن يُزهر مثلكِ وعاد هباءَ رمادٍ.

ما كان يؤسف أمّي عظيم الأسف هو قلّة إرادتي، كنت أفعل كلّ

شيء حسب عفو الساعة، فحياتي- أكانت تخضع لعقلي أو لقلبي، ودون أن تكون صالحة تماماً- لم تكن طالحة حقّاً. وكان تحقيق جميع مشاريعي الجميلة في العمل والهدوء والتعقّل، يهمّنا أنا وأمي قبل كلّ شيء، لأنّنا كنّا نشعر، أمّي بجلاء وأنا بإبهام وإنّما بكثير من القوّة، بأنّه لن يكون سوى الصورة التي ستنعكس في حياتي لهذه الإرادة التي ينبغي أن أخلقها فيّ وبذاتي، والتي صمّمتْها هي ونمّتها. ولكنّني كنتُ أرجئ ذلك دائماً إلى اليوم التالي: كنت أغدق عليّ الوقت، وأحياناً كنت أتحسّر لجريانه، ولكن كان ما زال أمامي كثير منه! ومع ذلك كنت أخاف وأشعر بإبهام أنّ استغنائي عن الإرادة على هذا النحو راح ينوء عليّ بثقله يوماً بعد يوم كلّما مرّت السنوات، ومع حدسي الحزين في أنّ الأشياء لن تتغيّر بطرفة عين وفي أنّني ليس ينبغي عليّ- كي أغيّر حياتي وأخلق إرادتي- أن أعتمد على معجزة ما لا تكلّفني أيّ عناء. فرغبة امتلاكِ الإرادة لم تكن لتكفي. بالضبط كان يلزمني ما لا أستطيع أن أقوم به دون أن أريد: الإرادة تحديداً.

3

«والريح العاتية للشبَق
تضرب جسمك كرايةٍ عتيقة»
(بودلير)[1]

في السادسة عشرة مررتُ بأزمة تركتني فريسة الألم. ولكي يُفرِّج عنّي، جعلوني أخطو خطواتي الأولى في المجتمع المخمليّ. فاعتاد بعض الشبّان المجيء لزيارتي. وكان أحدهم متهتّكاً وخبيثاً، وله تصرّفات رقيقة وجريئة في آن. فعشقته هو. علم أهلي بالأمر، ولكنّهم لم يقيموا الدنيا ويُقعدوها كي لا يكدّروا صفو عيشي. وكنت أُمضي الوقت الذي لا أراه فيه مفكِّرة فيه، وانتهى بي الأمر إلى أن انصعتُ له وتشبّهتُ به قدر المستطاع. فجرّني إلى الشرّ بصورة مفاجئة، ثمّ اعتدت الأفكار السيّئة التي استيقظت فيّ دون أن أقوى على التصدّي لها وعلى إرجاعها إلى الظلمة الجهنمية التي خرجتْ منها. وبعد أن انتهى العشق، حلّت العادة محلّه، وكُثُراً كان الشبّان الفاسقون الذين استغلّوا ذلك. فتواطأوا وذنوبي ودافعوا عنها أمام ضميري. في البداية شعرتُ بالندم المبرّح، وبحتُ بسرّي دون أن يفهمه أحد. وأبعدني رفاقي عن كشف ذلك لأبي. وأقنعوني شيئاً فشيئاً بأنّ جميع الفتيات يفعلن ذلك وبأنّ الأهل يتظاهرون فقط بجهله. والأكاذيب التي اضطررتُ دائماً إلى استحضارها، سرعان ما زيّنتها مخيّلتي بمظاهر الصمت الذي يجدر أن ألزمه إزاء ضرورة حتمية.

(1) هنا يتذكّر بروست مقطعاً من اعترافات القديس أغوسطينوس يركّز على الإرادة الخؤون (الاعترافات، الكتاب الثامن، الفصل الثامن). ويتذكّر أيضاً بعض أبيات بودلير التي منعتها الرقابة والتي وردت مثلاً في قصيدة «المرأتان الهالكتان: ديلفين وهيبوليت».

في تلك الأثناء، لم أعد أحيا كما يجب؛ كنتُ أحلم وأفكر وأشعر أيضاً.

ولتبرير رغباتي السيّئة وطردها، رحت أتردّد كثيراً على الوسط المخمليّ. وعوّدتني ملذّاتُه التي تجفّف القلب أن أعيش محاطة بصحبة دائمة، وفقدتُ التلذّذ بالوحدة وسرّ المباهج التي وفّرها لي قبلذاك كلّ من الطبيعةُ والفنّ. لم أتردّد من قبل كثيراً إلى الحفلات الموسيقية، كما فعلتُ خلال تلك السنوات. ولم أتشرّب الموسيقى بعمق، لأنّني كنتُ منهمكة بأن أنال الإعجاب في الشرفة الأنيقة في الأوبرا، كنت أصغي ولا أسمع شيئاً. وإن حصل لي أن سمعتُ، أكون قد توقّفتُ عن رؤية كلّ ما تستطيع الموسيقى أن تقدّمه. ونزهاتي أيضاً أصيبت بالعقم. والأشياء التي في الماضي كانت تكفي لإسعادي يوماً بكامله، كالشمس الملتمع صفارُها على العشب، أو الأريج الذي تتركه الأوراق النديّة ينبعث مع قطرات المطر الأخيرة، قد فقدتْ عندي حلاوتها وبهجتها. كانت الغابات والسماء والمياه كأنّها تتنكّب لي، وإنْ حدثَ وبقيتُ وحدي معها وجهاً لوجه، كنت أسألها بقلق، ولكنّها لم تعد تهمس بتلك الإجابات الغامضة التي كانت تخلب عقلي في الماضي، فالضيوف الإلهيّون الذين تبشّر بقدومهم أصواتُ المياه وأوراق الشجر والسماء تتنازل وتزور فقط القلوبَ المطهَّرة بإقامتها في ذاتها.

وأثناء بحثي عن دواء معاكس، ولأنّني لم أجرؤ على اختيار الدواء الحقيقيّ الذي كان قريباً جدّاً، وللأسف، متنائياً عني، وكان فيّ، تركتُ لنفسي العنان من جديد لتنغمس في الملذات الآثمة، ظنّاً مني أنّني بذلك أنعش الجذوة التي أطفأها فيّ المجتمع المخمليّ. ولكن عبثاً. وبما أنّ بهجتي كانت إثارة الإعجاب، فقد أرجأت يوماً بعد يوم القرارَ النهائيّ والخيارَ والفعلَ الحرّ حقّاً، ألا وهو إيثار الوحدة. لم أتخلَّ عن إحدى

هاتين الرذيلتين لأتعلّق بالأخرى. كنتُ أمزجهما. ماذا أقول؟ بل لأن كلّاً منهما اهتمت بكسر جميع العقبات الفكرية والعاطفية التي يمكنها أن تصدّ الأخرى، فإنّها بدت وكأنّها تستدعيها. كنت أدلف المجتمع المخمليّ لأهدأ بعد سقطةٍ ارتكبتُها، فأقترف خطيئة أخرى ما إن أهدأ. وفي تلك الآونة الرهيبة، بعد البراءة الضائعة، وقبل أن ينتابني الندم الذي أشعر به اليوم، في تلك الآونة التي كان لي فيها من القدْر أقلّ ممّا في جميع باقي ساعات حياتي، حظيتُ بأكبر تقدير ممكن من الآخرين. لقد كنتُ اعتُبرتُ فتاة يافعة مغرورة ومجنونة؛ وفي تلك الآونة، على العكس من ذلك، كان رماد مخيّلتي يتماشى مع ذوق المجتمع المخمليّ الذي كان يتمتّع به. وبينما كنتُ أرتكب أفدح الجرائم بحقّ أمّي، كان الناس يجدونني، بسبب احترامي الرقيق لها، المثالَ الأعلى للفتيات. وبعد انتحار فكري، كانوا يُعجبون بذكائي، ويُشغفون بعقلي. وعندما جفّت مخيّلتي، ونضبت حساسيتي، كان ذلك كافياً لإرواء أكبر المتعطّشين إلى الحياة الروحية، لفرطما كان ذلك الظمأ مصطنعاً وكاذباً، شأنه شأن الينبوع الذي ظنّوا إرواء عطشهم منه! لا أحد فعلاً كان يخمّن الجريمة السريّة لحياتي، وكنت أبدو في نظر الجميع وكأنّني الفتاة المثالية. كم من الأهالي كانوا يقولون لأمّي لو كان مقامي أدنى ممّا هو عليه ولو فكروا فيّ لما اختاروا عروساً أخرى لأبنائهم! وفي قرارة نفسي المعطّلة، كنت أشعر مع ذلك بأنّ تلك الإطراءات غير المستحقّة كانت عاراً محبطاً؛ بيد أنّ شعوري ذاك لم يكن ليطفو إلى السطح، وأنا كنتُ قد سقطتُ إلى ذلك الدّرك من الحضيض بحيث كنتُ أرويها وأنا أضحك إلى شركائي في جرائمي.

4

«إلى ذاك الذي أضاع ما لن يُعثَر عليه أبداً... أبداً»

(بودلير)[1]

في شتاء عامي العشرين، تدهورت صحة أمّي التي لم تكن في الأصل متينة. عرفتُ بأنّ قلبها مريض، ولكن دون خطورة، وينبغي تجنيبها كلّ المنغّصات. وقال لي أحد أخوالي إن أمّي ترغب في أن تراني متزوّجة. فمثُلَ نصبَ عيني واجب محدّد وهامّ. كان علي أن اتمكّن من أن أثبت لأمّي كم كنت أحبّها. فقبلتُ بأوّل طلبٍ ليدي نقلتْه إليّ، يدفعني افتقاري للإرادة إلى العهدة إلى الضرورة بإرغامي على تغيير حياتي. وكان خطيبي بالضبط الشابّ الذي، بذكائه الأقصى، ورقّته وحيويته، استطاع أن يمارس عليّ أسعد التأثير. وفضلاً عن ذلك، صمّم على أن يسكن معنا؛ فلن أنفصل بالتالي عن أمّي، ممّا قد يكدّرني أيّما تكدير.

فتشجّعتُ عندئذٍ على الاعتراف أمام الكاهن بجميع ذنوبي. وسألتُه إن كان عليّ أن أعترف بذلك لخطيبي. فأشفق عليّ وصدّني عن ذلك، ولكنّه طلب مني أن أُقسم بألا أسقط من جديد في آثامي، وأعطاني الغفران. والأزهار المتأخّرة التي فتّحتها البهجة في قلبي الذي ظننته أصيب بالعقم المزمن، أعطت ثمارها. فنعمة الله ونعمة الشباب- الذي نرى فيه الجروح الكثيرة تندمل وحدها بفعل حيّوية ذلك العمر- قد أبرأتاني.

وإذا كانت العودة إلى الطهارة، كما قال القديس أغوسطينوس،

(1) من قصيدة «البجعة»، البيت 46- 45 (ديوان أزهار الشر). وفي هذا القسم من القصة يتناول بروست مسألة العفّة التي بلبلت القدّيس أوغسطينوس قبل اهتدائه (الاعترافات، الكتاب الثامن).

أصعب من البقاء فيها، فإنّني قد عرفتُ عندئذٍ فضيلة صعبة. لا أحد كان يخمّن أنّ قيمتي أصبحت أفضل بكثير مما كانت عليه في الماضي، وكانت أمّي تقبّل كلّ يوم جبيني ظنّاً منها دائماً بأنّه طاهر دون أن تعرف أنّه وُلد من جديد. فضلاً عن ذلك، وُجّهتْ إليّ آنذاك، بسبب نظراتي الساهمة وحزني وكآبتي في المجتمع المخمليّ، انتقاداتٌ ظالمة. بيد أنّني لم أغضبْ لذلك: فالسرّ الذي كان بيني وبين ضميري المرتاح كان يوفّر لي متعة كبيرة. وكان شفاء نفسي- التي كانت تبتسم لي دائماً بوجه يشابه وجه أمّي، وتنظر إليّ بملامة رقيقة عبر دموعها التي جفّت- كان له سحر وحنوّ لا ينتهيان. أجل لقد وُلدتْ روحي من جديد أمام الحياة، ولم أدركْ أنا بذاتي كيف تسنّى لي أن أعنّفها وأجعلها تتألّم وأقتلها إلى حدّ ما. وكنت أشكر الله شكراً جزيلاً لأنّه أنقذها في الوقت المناسب.

في تناغم هذه البهجة العميقة والطاهرة مع صفاء السّماء استطبتُ المساء الذي «تمّ فيه كلّ شيء»[1]. وغياب خطيبي الذي راح يقضي يومين عند أخته، ووجود الشابّ الذي كان أكبر مسؤول عن أخطائي السابقة حول مائدة العشاء، لم يُلقيا على تلك الأمسية الرائقة من شهر أيار أدنى غلالةِ كآبة. لم تكن أيّة غمامة في السماء تنعكس تماماً على قلبي، وأمّي التي كان بينها وبين روحي نوع من التضامن المتين، مع أنّها كانت تجهل تماماً ذنوبي، كانت قد شُفيت أو تكاد. «يجب مُداراتُها خمسة عشر يوماً، قال الطبيب، وبعد ذلك لن تنتكس من جديد!» وكانت لي هذه الكلمات وحدها وعداً بمستقبل سعيد جعلتني حلاوته أجهش بالبكاء. في ذلك المساء كانت أمّي ترتدي فستاناً أكثر أناقة من المعتاد، وللمرّة الأولى بعد موت أبي الذي توفّي قبل ذلك بعشر سنوات، أضافت إلى ثوبها الأسود

(1) «ثمّ تناول المسيح الخلّ وقال: «لقد تمّ كلّ شيء»، وفاضت روحه» (إنجيل يوحنّا، 19/30).

قطعة بنفسجية. وكانت خجلة من أنّها تلبس كما لو كانت أصغر سنّاً، وكانت حزينة وسعيدة لأنّها خرقت حزنها وحِدادها لتُبهجني وتحتفل بفرحي. فاقتربتُ ووضعتُ فوق صدرها وردة أزاحتها عنها أوّلاً ثمّ، لأنّها تأتي مني، علّقتها بيد متردّدة وخجلة. وعندما هممنا بالذهاب إلى المائدة جذبت نحوي صوب النافذة وجهها الذي استراح وادعاً من آلامها السابقة، وقبّلتها بشغف. لقد أخطأتُ إذ قلتُ إنّني لم أجد قطّ ثانيةً حلاوة القُبل في «منزل النسيان». لقد كانت قبلة ذلك المساء أرقّ من كلّ قبلة أخرى. أو أنّها بالأحرى كانت قبلة «منزل النسيان» بالذات التي استدعتها جاذبيةُ دقيقةٍ كتلك، فتسلّلت برفق من أعماق الماضي وجاءت لتستقرّ بين خدّيْ أمّي اللذين كانا شاحبين قليلاً وبين شفتيّ.

شرب الحاضرون نخب زواجي القريب. لم أكن أشرب إلّا الماء خوفاً من الانفعال القويّ الذي تثيره الخمر في أعصابي، وصرّح خالي بأنّني أستطيع أن أخرق العادة في مناسبة كهذه. أستعيد الآن تماماً وجهَه المتهلّل عندما تلفّظ بهذه الكلمات الغبيّة... يا إلهي! يا إلهي! لقد اعترفتُ بكلّ شيء مبديةً هدوءاً كبيراً، هل ينبغي عليّ أن أتوقّف هنا؟ لم أعد أرى شيئاً! نعم... قال خالي إنّني أستطيع في مناسبة كهذه أن أخرق العادة. عندما قال ذلك نظر إليّ وهو يضحك، فشربت بسرعة قبل أن أتطلّع إلى أمّي خوفاً من أن تمنعني من ذلك. قالت بهدوء: «يجب ألّا نترك أيّ مكان للشرّ، مهما يكن صغيراً». ولكنّ نبيذ مقاطعة شامباني كان مبرَّداً جدّاً بحيث شربتُ قدحين آخرين. أصبح رأسي ثقيلاً، وكنتُ بحاجة إلى أن أستريح وإلى تهدئة أعصابي. نهض المدعوّون من وراء المائدة، فاقترب منّي جاك وقال لي متفرّساً فيّ:

- هلّا أتيتِ معي؛ أريد أن أريكِ أشعاراً كتبتُها أنا.

التمعتْ عيناه الجميلتان بعذوبةٍ بين خَدّيه النضرين، ومسّد بهدوء شاربيه بيده، فتبيّن لي أنّني هالكة وأنّ مقاومتي قد تلاشت.

فقلت بصوت متهدّج:

- نعم هذا يسرّني.

عندما تفوّهتُ بتلك الكلمات، وربّما قبل ذلك، عندما شربت الكأس الثانية من نبيذ شامباني، ارتكبتُ الفعل الذي له حقّاً تبِعات، ارتكبتُ الفعل الشائن. وبعد ذلك، لم يكن بوسعي إلّا الانقياد. أغلقنا الباب بالمفتاح، فعانقني، وأنفاسه على خدّي، وأخذت يداه تتلمّسان كامل جسمي. وبينما كانت المتعة تستحوذ عليّ تدريجياً، أحسست في أعماق قلبي بأنّ حزناً ولوعة لا متناهيين استيقظا عندي؛ وخيّل لي أنّني كنت أُبكي روح أمّي، وروح ملاكي الحارس، وروح الله. لم أستطع قطّ، دون أن أجفل من الذعر، أن أقرأ قصص التعذيب الذي يُلحِقه القتلةُ بالحيوانات وبنسائهم وأولادهم؛ فبدا لي آنئذٍ بشكل مبهم أنّ في كلّ استمتاع آثم قدْراً من الوحشية من جانب الجسد المستمتع، وأنّ فينا كمّاً من النوايا الحسنة وعدداً كبيراً من الملائكة الأطهار يعذَّبون ويبكون.

عمّا قريب كان أخوالي سيُنهون لعبة الشدّة التي بدؤوها ويعودون، يجب أن نسبقهم، لن أسقط من بعد، وهذه آخر مرّة... وفوق المدفأة، نظرت إلى وجهي في المرآة. فرأيت أن كلّ ذلك القلق المبهم لروحي لم ينطبع على وجهي، بل كان محيّاي كلّه، من عينيّ الملتمعتين إلى خديّ المتوهّجين وفمي المعطاء، ينضح فرحاً شهوانياً وغبيّاً وعنيفاً. وعندئذٍ فكّرت في هول من رآني قبلَ قليل أقبّل أمّي برقّة أسيانة، ويراني في تلك اللحظة وقد تحوّلتُ إلى وحش. ولكن انتصب فوراً في المرآة فم جاك المتعطّش تحت شاربيه يلامس وجهي. فاضطربت أوصالي كلّها، فأدنيتُ

رأسي من رأسه، وإذا بي أرى- أقول ذلك كما حدث، اسمعوني جيّداً لأنّني أستطيع أن أقوله لكم- أمّي على الشرفة وخلف النافذة تنظر إليّ بانشداه. لا أعلم إنْ صرختْ، لم أسمع شيئاً ولكنّها وقعت على ظهرها وبقي رأسها عالقاً بين مشبّكي الشرفة.

ليست هذه هي المرّة الأخيرة التي أروي لكم هذا؛ قلتُ لكم ذلك، لقد أخطأت التسديد قليلاً، مع أنّني صوّبتُ على نفسي، لقد طاشت الطلقة. بيد أنّهم لم يستطيعوا أن يُخرجوا الرصاصة، وبدأت مشاكل القلب. ولكنّني أستطيع أن أبقى ثمانية أيّام هكذا، بيد أنّني لن أتمكّن في تلك الأثناء من الكفّ عن التفكير في البدايات وعن رؤية النهاية. كان بودّي أن تراني أمّي أرتكب جرائم أخرى أيضاً وهذه الجريمة بالذات، ولكن دون أن ترى ذلك التعبير الفرِح الذي أبداه وجهي أمام المرآة، كلّا، لم تره... وهذه صدفة... لقد ضربتْها سكتةٌ دماغيّة قبل أن تراني بدقيقة... لم ترها... هذا مستحيل! ما كان الله العالِم بكلّ شيء سيسمح بذلك.

حفلة عشاء في المدينة

«ولكن، يا فوندانيوس، من شاركك في الاستمتاع بهذه الوليمة؟ يصعب عليّ أن أعرف ذلك»

(هوراتيوس)[1]

1

وصل أونوريه متأخّراً. سلّم على أصحاب البيت وعلى المدعوّين الذين كان يعرفهم، وتمّ تعريفه على الآخرين، وانتقل الجميع إلى مائدة الطعام. وبعد لحظات طلب منه جاره الشابّ أن يسمّي له المدعوين ويحدّثه عنهم. لم يكن أونوريه قد التقى به من قبل في المجتمع المخمليّ. كان وسيماً. وكانت ربّة البيت في كلّ لحظة تلقي إليه بنظرات ملتهبة تُفهِم كفايةً لماذا دعته وعلى أنّه سيصبح عمّا قريب من مجتمعها. وشعر أونوريه بأنّ ذلك الشابّ سيكون من المتنفّذين في المستقبل، ولكن دون رغبة، وبالتفاتة مؤدّبة، شعر بأنّه يجب عليه أن يردّ على طلبه. فنظر حواليه. ومقابله كان شخصان لا يتكلّمان أحدهما مع الآخر: وبنيّة حسنة خرقاء دُعيا معاً وأجلسا جنباً إلى جنب لأنّهما كليهما يهتّمان بالأدب. وإلى هذا السبب الأول لتبادل الكره، أضافا سبباً آخر. وأكبرهما سنّاً، وهو من أقارب السيّد بول ديجاردان والسيّد دو فوغيه- وكان مبهوراً بهما- أبدى

(1) هذا الاستشهاد مأخوذ من الكتاب الثاني من الهجائيات للشاعر اللاتيني هوراسيوس. وهو حواريّة بين الشاعر ومضيفه الغنيّ فوندانيوس حول مائدة باذخة.

صمتاً احتقارياً لأصغرهما، وهو تلميذ مفضّل لدى السيّد موريس باريس، وبدوره كان ينظر إليه نظرة تهكّم. وكان سوء نيّة كلٍّ منهما يُضخّم بإفراط- ودون قصد منه- قيمة الآخر كما لو كان ثمّة مجابهة بين زعيم القتلة وملك الحمقى. وبعدهما خلف المائدة كانت امرأة إسبانية ضخمة تزدرد الطعام بشهية فتّاكة، وكشخص جادّ كانت بلا تردّد قد ضحّت في تلك السهرة بموعد علّها تتقدّم خطوة في وسط المجتمع المخمليّ، فأتت لعشاء يقدّمه بيت أنيق. وفعلاً كانت حساباتها دقيقة. فنفاجةُ السيّدة فريمر كانت بالنسبة لصديقاتها، كما كانت نفاجة صديقاتها بالنسبة لها هي، ضمانة مشتركة يتصدّيْنَ بها للبرجزة، ولكن شاءت الصدفة في ذلك المساء أن استعرضت السيّدة فريمر رهطاً من الناس الذين لم تتمكّن من قبلُ دعوتهم إلى أحد عشاءاتها، وأصرّت لأسباب مختلفة على مجاملتهم، فجمعتهم كيفما اتّفق. وتصدّرت الجميعَ إحدى الدوقات التي كانت تعرفها المرأة الإسبانية من قبل والتي لم تعد تستفيد منها بأيّ شيء. وكانت تتبادل نظراتٍ غاضبة وزوجَها الذي كان يُسمع له دائماً في السهرات صوت أجش يكّرر، تاركاً بين كلّ سؤالٍ له والآخر خمسَ دقائق يعبّؤها بمهمّات أخرى: «هل تتفضل بتقديمي للدوق؟ أيها السيّد الدوق هل تتفضل بتقديمي للدوقة؟ أيتها السيّدة الدوقة هل يمكنني أن أعرّفك على زوجتي؟» ولسخطه من إضاعة وقته، أذعن مع ذلك لتجاذب أطراف الحديث مع جاره، شريك ربّ المنزل، الذي كان السيّد فريمر يتوسّل منذ أكثر من سنة إلى زوجته كي تدعوه. فرضخت أخيراً ولكنّها زجّته بين زوج الإسبانية وبين أحد الجهابذة الذي كان يقرأ بإفراط ويأكل بإفراط، وكانت له استشهادات وإحالات، وهذان المثلبان كانا يثيران إشمئزاز جارته، مدام لونوار التي كانت من دهماء النبلاء.

وهذه الأخيرة سرعان ما جرّت الحديث إلى انتصارات أمير بويفر في بلاد الداهومي[1]، وقالت بصوت شاءت له أن يكون رقيقاً: «يا لَطفلي العزيز، كم يُسعدني أنْ صارَ مفخرةً لعائلته!» لقد كانت بنت عمّ لآل بويفر، وكانوا جميعاً- وهم يصغرونها سنّاً- يعاملونها باحترام يليق بسنّها وبتعلّقها بالعائلة المالكة، وبثروتها الطائلة، وبعقمها المستمرّ بعد ثلاث زيجات. فأسقطتْ على آلِ بويفر كلّ ما تستطيع أن تكنّه من العواطف العائليّة. فكانت تشعر بمهانة شخصية من شناعات ذاك الذي يُساق أمام مجلس قضائيّ، وحول جبهتها الحصيفة المزيّنة بشرائط أورليانية[2]، كانت بطبيعة الحال تحمل إكليلَ غارِ مَن كان منهم جنرالاً.

لقد تسلّلتْ إلى هذه العائلة المنغلقة على نفسها حتّى ذلك الحين، وأصبحت زعيمتها وحاملة لوائها. كانت تشعر فعلاً بأنّها منفيّة في المجتمع الحديث، وتتكلّم دائماً برقّة عن «أشراف الماضي الأقحاح». لم تكن نفاجتها إلّا خيالاً وكانت بالأحرى تمثّل خيالها كلّه. ولأنّ الأسماء الغنيّة التالدة والمجيدة كانت تهيمن على ذهنها المرهف أيّما هيمنة، فقد وجدت متَعاً نزيهة في تناول العشاء مع بعض الأمراء وفي قراءة المذكّرات التي تتكلّم عن الحكم الملكيّ البائد. تلبس دائماً الزيّ نفسه، وتسريحة شعرها لا تتغيّر مثل مبادئها. كانت عيناها تبرقان بالغباء، وكان وجهها المبتسم وجه نبلاء، وحركاتُها مفرطة وتافهة، وبعد الاتّكال على الله، كانت تُبدي اهتياجاً متفائلاً لا يتغيّر عشية حفلات الحدائق أو الثورات، وكانت تقوم بإيماءات سريعة تبدو موجّهة لتعزيم الراديكالية أو الزمن الرديء. كان جارها الجهبذ يكلّمها بلغة أنيقة متعِبة وبسهولة هائلة في

(1) صار اسمها «بينين» عام 1975.

(2) نسبة إلى لويس دورليان الذي حكم فرنسا ما بين 1830 و1848. ولاحقاً لم يستطع الأورليانيون التكيّف معْ الملكيين لإعادة الحكم الملكيّ، في عهد الجمهورية الثالثة.

العبارة؛ كان يستشهد بأبيات من هوراتيوس ليبرّر شراهته وسكره أمام الآخرين وليدبّجهما بالشعر في نظر نفسه. ثمة ورود خفيّة من الأيّام الخوالي، ولكنّها ورود نضرة كانت تزنّر جبهته الضيّقة. ولكنّ السيّدة لونوار، بتأدبّها الثابت والسهل عليها، لأنّها كانت تجد فيه تمريناً لسطوتها واحتراماً- صار اليوم نادراً- للتقاليد العتيقة، كانت تتكلّم كلّ خمس دقائق مع شريك السيّد فريمر. وما كان عليه أن يتأفّف. فمن الطرف الآخر من المائدة، كانت السيّدة فريمر توجّه له أجمل إطراءاتها. كانت تودّ أن يُسجّل هذا العشاء لسنوات عديدة، ولأنّها عقدتِ العزم على ألّا تأتي طيلة السنوات الطويلة القادمة على ذكر مكدّر الأفراح هذا، فإنّها كانت تدفنه تحت الأزهار. أمّا السيّد فريمر فكان يعمل نهاراً في مصرفه، وتقوده زوجته مساءً إلى الأوساط المخملية أو تحبسه في البيت عندما يَستقبلان ضيوفاً على مائدتهما، وكان مستعدّاً على الدوام لالتهام كلّ شيء، فتَلجمه زوجته دائماً، لذا انتهى به الأمر أن حافظ في المناسبات الأكثر انعداماً للأهمّيّة على سيماء يشوبها التوتّر المكتوم والإذعان الحرِد والسخط المكظوم والبلاهة العميقة. ولكنّ سيماء وجهه في ذلك المساء نمّت عن رضاً حميم كلّما كانت عيناه تلتقيان بعينَي شريكه. ومع أنّه ما كان يستطيع أن يتحمّله في الأيّام العادية، شعر بأنّه يكنّ له عواطف هاربة، لكنّها صادقة، لا لأنّه كان ينبهر بترفه على نحو سهل، بل بسبب تلك الأخوّة المبهمة التي تؤثّر فينا عندما نكون في بلد أجنبيّ ونرى شخصاً فرنسياً، حتّى إذا كان مقيتاً. ولأنّه كان يُنتزع بعنف من عاداته كلّ مساء، ولأنّه كان يُحرم مرغَماً من الراحة التي استحقّها، ولأنّه كان يُقتلع بوحشية، كان يشعر بمكان، ممقوت عادةً، ولكنّه مكان راسخ يربطه أخيراً بشخص ما، ويدفعه أبعدَ من عزلته الموحشة والقانطة ليُخرجه منها. ومقابله، كانت

السيّدة فريمر تستجلي في عيون مدعوّيها المبهوتة جمالَها الأشقر. والصيت العطر الذي كان يحوم حولها كان بمثابة موشور خادع يحاول كلّ شخص أن يميّز فيه قسماتها الحقيقية. كانت طموحة ودسّاسة ومغامرة إلى حدّ ما، كما أوردت أخبار الأوساط المالية التي تركتها هي من أجل مصائر أكثر بريقاً، فبدت على العكس في نظر الضاحية الباريسية والعائلة المالكة التي اخترقتها السيّدة امرأةً ذاتَ ذكاء عالٍ وملاكاً ملؤه الرقّة والفضيلة. ثمّ إنّها لم تنسَ أصدقاءها القدامى الأكثر تواضعاً، فكانت تتذكّرهم عندما يمرضون أو يفقدون فرداً من عوائلهم، وهي مناسبات مؤثّرة تجعل المرء، فضلاً عن ذلك، لا يستطيع - عندما لا يدعى إلى المجتمع المخمليّ - أن يشكو من عدم دعوته. بذا كانت تهب وثباتها نحو البِرّ معناها، وفي حديثها مع أهل المشرفين على الموت أو الكهنة الذين أتوا ليصلّوا لهم، كانت تذرف دموعاً صادقة، فتقتل واحداً بعد الآخر تأنيبات الضمير التي كانت حياتها المفرطة في السهولة تُلقي بها على قلبها الورِع.

ولكنّ ألطف مدعوّة كانت هي الدوقة دو D... الشابّة، التي كانت سرعة بديهتها وذهنها الصافي الذي لا يقلق أبداً ولا يضطرب، يتعارضان بشكل غريب مع كآبة عينيها المزمنة وتشاؤم شفتيها وكسل يديها اللّامحدود والنبيل. هذه المغرمة الهائلة بالحياة على شتّى أشكالها (الطيبة والأدب والمسرح والفعل والصداقة) كانت تعضّ شفتيها القرمزيتين دون أن تغضّنهما، كزهرة محتقَرة، فتفترّ في طرفيهما ابتسامة حائرة. وكانت عيناها تبدوان وكأنّهما ذهنٌ غرق إلى الأبد في مياه الندم الآسنة. وفي الشارع أو المسرح كم من مرّة قدحَ السابلةُ السارحون زنادَ أحلامهم لهذين الكوكبين المتغيّرين! وها هي الدوقة التي تتذكّر مسرحية هزلية أو ترتّب هندامها، ممسّدة مع ذلك بحزنٍ أصابعَها النبيلة المستسلمة

والساهمة، ها هي تجول بناظريها اليائسين والعميقين اللّذين كانا يُغرقان المدعوّين السريعي التأثر في سيول كآبتهما. وكان حديثها اللّذيذ المتهاون يتزيّن بالأناقات الذاوية والساحرة لارتيابيّة عتيدة. وبدأ نقاش، وهذا الشخص المطلق جدّاً في الحياة والذي كان يعتبر أنْ ليس ثمة إلّا طريقة واحدة في ارتداء الثياب كرّر أمام الجميع قوله: «ولكن لماذا لا نستطيع أن نقول كلّ شيء وأن نفكّر في كلّ شيء؟ ممكن أن يكون الحقّ معي أو معكم. إنّ تكوين رأيٍ لهو أمرٌ رهيب ومحدود». لم يكن عقلها مثل جسدها، كانت تلبس وفقَ آخر موضة، وكانت تتندّر بلطافة على الشعراء الرمزيّين والأشخاص المتديّنين، وكان عقلها يشبه أولئك النسوة الفاتنات اللّواتي يُعجبن بجمالهنّ وحيويتهنّ عندما يلبسن ثياباً عتيقة، وربّما كان ذلك تأنّقاً مقصوداً. وربّما كانت بعض الأفكار الشديدة الفجاجة ستُخمِد عقلَها كبعض الألوان التي يمتنع وجهها عن استعمالها.

قدّم أونوريه لجاره الجميل عن هذه الوجوه المختلفة ترسيمة سريعة وإيجابية بحيث بدت متشابهة كلّها، على الرغم من تبايناتها العميقة: اللّامعة السيّدة دو تورّينو، والذكيّة الذوقة دو D...، والجميلة السيّدة لونوار. لقد أهمل النقطة الوحيدة المشتركة، أو أهمل بالأحرى الجنون الجماعي ذاته، والوباء المستحكم ذاته الذي اعتراهنّ جميعَهنّ: أي النفاجة. هذا وإن تكن النفاجة تتّخذ لديهنّ أشكالاً متباينة بحسب تباين طبائعهنّ: فما أبعد النفاجة المجنّحة والشعريّة عند السيّدة لونوار عن النفاجة الاجتياحيّة عند السيّدة دو تورّينو التي كانت كالموظفين تصبو إلى مكان الصدارة! ومع ذلك فإنّ هذه السيّدة الرهيبة كانت قادرة على أن تتأنسن من جديد. لقد قال لها جارها منذ قليل إنّه أعجب في حديقة مونسو بحفيدتها، وفوراً قطعتْ صمتها الساخط. لقد شعرت تجاه هذا

المحاسب الغامض بتعاطف امتنانيّ خالص ربّما كانت عاجزة عن إبدائه لأمير، وطفقا يتكلّمان كصديقين قديمين.

كانت السيّدة فريمر تتصدّر الأحاديث بارتياح ملحوظ ناجم عن شعورها بالرسالة السامية التي تؤدّيها. ولاعتيادها تقديم كبار الكتّاب للدوقات، بدت لنفسها كوزير خارجيةٍ قويّ جدّاً ويتعامل حتّى مع البرتوكول بذهنية راقية. على هذا النحو نرى أنّ المُشاهد الذي يُهَضِّم في المسرح ينظر من علٍ إلى الفنّانين والجمهور والمؤلّف وقواعد الفنّ المسرحيّ والعبقرية.

ولقد اتّخذ الحديث مجرى متناغماً بمقدار كافٍ. ووصل الأمر في تلك المرحلة من حفلات العشاء التي يلامس فيها الجيران رُكَب الجارات أو يسألونهنّ عن أفضلياتهنّ الأدبية، حسب طباعهنّ وتربيتهنّ، وبخاصّة حسب الجارة المحاذية. وبعد هنيهة طرأت مشكلة بدا أنْ لا مناص من وقوعها. فعندما حاول الشابّ الوسيم الجالس جنب أونوريه، وبتهوّر الشباب، أن يلمّح إلى أنّ أعمال هيريديا[1] ربّما كانت تحتوي على قدر من الفكر أكبر ممّا يُقال عنها عموماً، اضطرب المدعوّون في عادات تفكيرهم وكلحتْ سحناتهم. ولكنّ السيّدة فريمر سارعت إلى القول بصوت عالٍ: «على العكس، إنّها ليست سوى قِطع من الجَزْع المنقوش ومزجّجات باذخة ومصوغات مشغولة بإتقان»، فبدت البهجة والانشراح على جميع الوجوه. وكان ثمة نقاش حول الفوضويّين بدا أكثر خطورة. ولكنّ السيّدة فريمر، وكأنّها رضخت باستكانة إلى حتميّةِ قانون طبيعيّ، قالت بهدوء: «ما الفائدة من كلّ هذا؟ سيكون هناك دائماً أغنياء وفقراء».

---

(1) جوزيه ماريا دو هيريديا (1905– 1842) شاعر فرنسي من أصل كوبي تتلمذ على يد زعيم التيار الرمزيّ لوكونت دو ليل، وركّز على الموسيقى الشعرية. وكان صديقاً لبروست.

وجميع هؤلاء الناس الذي كان أفقرهم يملك على الأقلّ مئة ألف ليرة موظَّفَة، بُهتوا بهذه الحقيقة، فتخلّصوا من هواجسهم وأفرغوا بغبطةٍ قلبيّةٍ الكؤوسَ الأخيرة من نبيذ شمباني.

2

بعد العشاء

عندما شعر أونوريه أن خلط الخمور قد لعب برأسه، غادر دون أن يودّع، فأخذ معطفه من قرب الباب وراح ينزل شارع الشانزليزيه راجلاً. كان يشعر بحبور لا مثيل له. انكسرت حواجز المستحيل التي توصد أمام رغباتنا وأحلامنا أبواب الواقع، وسرح فكره بسعادة في مجال المتعذّر تحقيقُه جَذِلاً بحركته هو.

الدروب المبهمة التي تتفرّع بين كلّ كائن بشريّ وسواه، والتي في أعماقها تنام ربّما في كلّ مساء شمس مفعمة بالسرور والحسرة ولا تخطر بالبال، كانت تجذبه، وكلّ شخص يخطر بباله كان يصبح عنده بلا منازع شخصاً قريباً من القلب. فسلكَ الشوارع التي يستطيع فيها أن يحظى بلقاءِ كلٍّ منهم، ولو تحقّقت توقّعاته لواجه الشخص المجهول أو اللّامبالي دون خوف، مع اختلاج لطيف. وبسقوط ديكور قائم قريباً جدّاً، كانت الحياة تنفسح أمامه بجدّتها الساحرة والسرّية وتشكل مناظر ودودة تناديه وتدعوه. وخيبته من أن يكون ذلك سراباً أو واقعاً يدوم ليلة واحدة كانت تدفعه إلى اليأس، فلن يفعل من بعدُ شيئاً آخر سوى أن يتناول طعام العشاء ويشرب جيّداً كي تتراءى له الأشياء الجميلة. ما كان يحزّ في قلبه هو فقط ألّا يتمكن من الوصول فوراً إلى جميع المواقع

المزروعة هنا وهناك في منظوره، والنائية عنه. عندئذ دُهش لنبرة صوته المتخضِّم والمبالغ فيه يردّد منذ ربع ساعة: «الحياة كئيبة، يا للحماقة!» (وهذه الكلمة الأخيرة أكّدتها حركة خاطفة من ذراعه اليمنى، ولاحظ فجأةً حركة عكّازه). فقال لنفسه بحزن إنّ هذه الكلمات الآليّة كانت ترجمة باهتة لرؤى مشابهة لا يمكن التعبير عنها، كما ظنّ.

«للأسف! وحدها شدّة متعتي أو ندمي قد تضاعفت بالتأكيد مئة مرّة، ولكن مضمونها الفكريّ ما زال على حاله. سعادتي متوتّرة وشخصية ولا تترجَم للآخرين، وإن كتبتُ الآن فسيحمل أسلوبي المزايا نفسها والعيوب نفسها، للأسف! سيحمل الضحالة المعتادة ذاتها».

ولكنّ الانشراح الجسديّ الذي شعر به جنّبه التفكير في ذلك لمدّة طويلة، ومنحه على الفور العزاء الأقصى، النسيان. وصل إلى الجادّات الكبرى. كان بعض الناس يمرّون، فتعاطف مع بعضهم، متأكّداً من أنّهم يردّون له ذلك. شعر بأنّه صار محطّ أنظارهم المجيد؛ فتح معطفه ليروا ثيابه البيضاء التي تتناسب مع جسمه، وليعاينوا القرنفلة الحمراء المعلّقة في عروته. هكذا قدّم نفسه لينال إعجاب المارّة وعاطفتهم التي بادلهم بهجتها.

الحسرات
أحلام يقظة بلون الزّمان

«يجب أن يكون نهج العيش لدى الشاعر بسيطاً جدّاً بحيث تبهجه التأثيرات العاديّة جدّاً، وينبغي أن يتمكّن حبوره من أن يكون ثمرةً لشعاعِ شمس، ويترتّب على الهواء أن يكفي تنفّسه وعلى الماء أن يكفي لإسكاره.»

(إميرسون[1])

1
التويلري

في حديقة التويلري كانت الشمس قد غَفَت هذا الصباح فوق جميع الأدراج الحجرية، كما يغفو فتىً أشقر ما إن يمرّ ظل فوقه حتّى يستفيق من نومه الخفيف. اخضرّت على جنبات القصر أشتال يافعة. وأنفاس الهواء المسحور تخلط شذى الماضي بعطر اللّيلك النديّ، والتماثيل المنصوبة في ساحاتنا العامة تُفزِع الناس كالنساء المجنونات، وتحلم هنا في الممرّات المعرّشة كحكماء تحت الخضرة المضيئة التي تحمي لونها الأبيض الناصع، والبِرك التي في قاعها تسترخي السماء الزرقاء تلتمع كالنظرات. ومن الشرفة المحاذية لطرف الماء نلمح، إذا خرجنا من الحيّ القديم لرصيف

(1) من نصّ «الشاعر» في كتابه سبع مقالات.

دورسيه Quai d'Orsay على الضفة الأخرى من نهر السين كأنّنا في عصر آخر، نلمح جندياً من الخيّالة يمرّ. ويفيض اللّبلاب مجنوناً من الأحواض المكلّلة بأزهار إبرة الراعي. وعبّاد الشمس الملوَّح يُحرق عطوره، وأمام قصر اللّوفر تشمخ ورود خِطميّة، رشيقة كالسواري، ونبيلة وسامقة كالأعمدة، ومضرّجة بالحمُرة كخدود الصبايا. وبعد أن قزّحت الشمس نوافير الماء التي برّحها الحبّ، راحت تشرئبّ نحو السماء. وفي آخر الفيرندا، ثمّة فارس حجريّ متوثّب في عَدْو مجنون دون أن يبارح مكانه، وشفتاه ملتصقتان ببوق مبتهج، يجسّد زخْم الربيع كلَّه.

ولكنّ السماء اكمدّت، وها هو المطر قادم. فالبرَك التي غادرتْها رزقتُها البرّاقة تبدو كعيون خلت من نظراتها وكمزهريّات ملأى بالدموع. والنافورة العبثية التي صفعها النسيم، تطلق متسارعةً نحو السماء نشيدها الواهي. ورقّة اللّيلك العديمة الجدوى غَمَرها حزن مديد. وفي البعيد ترى الفارس الطائش، بقدمين مرمريّتين تستحثّان العَدْو الدواريّ والثابت لحصانه الذي أرخى هو له العنان، يطلق صدحَ بوقه المديد في السماء المتلبّدة.

2
فرساي

«ثمّة قناة تجعل كبار الهاذرين يحلمون ما إن يقتربون منها، وفيها أشعر دائماً بالسعادة، إمّا لأنني مسرور، وإمّا لأنني حزين».

(من رسالة كتبها الشاعر
غيه دو بالزاك Guez de Balzac (1597–1654)
للسيّد لاموت إيغرون Lamothe–Aigron)

كاد الخريف يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكفّت الشمس النادرة عن بعث الدفء في أوصاله، وخمدت حميّة أوراق الشجر المتساقطة التي كانت من الاضطرام بحيث أنّ فترتَي الأصيل والصباح كانتا تعطيان انطباعاً بهيّاً بدنوّ الغروب. وحدها أزهار الأضاليا والقرنفل الهندي والأقحوان الأصفر والبنفسجي والأبيض والزهري ما زالت تلتمع فوق الوجه الداكن والملتاع للخريف. في الساعة السادسة مساء، عندما يمرّ المرء بحديقة التويلري الرماديّة والعارية كلّها تحت السماء الداكنة، حيث الأشجار السوداء تُعرب غصناً بعد غصن عن يأسها الكبير والخفيّ، نلمح فجأةً كتلةً من هذه الأزهار الخريفية تشعشع في الظلام وتخلق متعة عنيفة لعيوننا التي تعوّدت تلك الآفاق الغبراء. وساعات الصباح أرقّ. ما زالت الشمس تشرق أحياناً، وأستطيع أيضاً عندما أغادر الفيراندا القائمة قرب الماء، وعلى طول الأدراج الحجرية، أن أرى ظلّي يهبط أمامي درجة درجة. يا فرساي، لا أريد هنا أن ألفظ اسمكِ بعد أن لفَظَتْه أسماء

أخرى كثيرة[1]؛ إنّه اسم كبير صَدِئ ورقيق؛ مقبرة ملكيّة لأوراق الشجر والمياه الرحبة وتماثيل المرمر؛ مكان أرستقراطي يثبّط العزيمة، وحيث لا نشعر بالحرج من أنّ حياة العمال الكثيرين لم تنفع إلّا في ترهيف وتعميق كآبتنا نحن، أكثر ممّا ترهّف وتعمّق أفراح زمن ولّى. لا أريد أن ألفظ اسمكِ بعد أن لفظه كثيرون، ومع ذلك كم من مرّة شربتُ حتّى الثمالة وحتّى جعلتُ حلاوة تلك الأيّام الخريفية الهائلة تهذي فيَّ، شربتُ من تلك الكأس المحمرّة قرب بركِكِ المصنوعة من المرمر الزهريّ! وبدت الأرض المختلِطة بأوراق الشجر الذابلة والعفنة، بدت من بعيد وكأنّها فسيفساء كامدة صفراء وبنفسجية. وعندما اقتربت من الضيعة، رفعتُ قَبّة معطفي لأتحاشى الريح، وسمعت هديل بعض الحمامات. وانتشر أريج البَقْس المسكِر، كما في أحد الشعانين. كيف استطعت أن أجمع من جديدٍ باقة صغيرة في هذه البساتين التي خرّبها الخريف؟ فوق الماء جعّدت الريح بتلاتِ وردة مقرورة. في هذه المجزرة التي تعرّض لها ورق الشجر في قصرَي التريانون، وحدها القنطرة الصغيرة لجسر صغير تحيط به أزهار إبرة الراعي البيضاء رفعت فوق الماء المتجمّد أزهارها التي كادت الريح تحنيها. صحيح أنّني منذ أن استنشقتُ الهواء البحري المالح في الطرقات المجوّفة في منطقة النورماندي، ومنذ أن رأيت البحر يلتمع خلف أغصان الغار الورديّ المزهرة، علمتُ كلّ ما يستطيع جوارُ المياه أن يضيفه إلى مفاتن النبات، ولكنّ أيّ صفاء أكثر طهراً من إبرة الراعي البيضاء الناعمة، والمائلة برزانة خلاّبة على المياه المتبرِّدة بين مسالك الأوراق الميتة! يا للشيخوخة الفضّية للغابات التي ما زالت خضراء

(1) وبخاصّة موريس باريس وهنري دو رينييه وروبير دو مونتسكيو... (ملاحظة من المؤلّف).

بأغصانها الباكية وغدرانها ومجمّعاتها المائية التي نثرتها حركة ورِعة في كلّ مكان، كما لو كانت أجراناً مهداة إلى كآبة الأشجار!

3
نزهة[1]

رغم السماء الصافية والشمس التي بدأت تحمى، ما زالت الريح تهبّ باردة، والأشجار عارية كما في الشتاء. ولكي أوقد ناراً، كان عليّ أن أقطع غصناً ظننته ميتاً، ولكنّ النسغ تدفّق منه فبلّل ذراعي حتّى المرفق كاشفاً عن قلبٍ صاخبٍ يكمن في لحاء الشجرة المتجمّد. وبين الجذوع، كانت التربة التي عرّاها الشتاء تمتلئ بشقائق النعمان والزُغْد والبنفسج، وامتلأت السواقي الداكنة والفارغة بسماء رقيقة زرقاء حيّة تسترخي فيها حتّى القاع. لا تلك السماء الشاحبة التي تكون ملّت أماسي شهر أكتوبر الجميلة، والتي تستلقي فوق أعماق الماء وتبدو وكأنّها تموت فيها من شدة الحبّ والحزن، بل هي سماء كثيفة ومضطرمَة فوق الأفق اللّازوردي الرقيق والضاحك الذي كانت تمرّ فيه في كلّ لحظة، رماديةً وزرقاءَ ووردِيّة، لا ظلال السحب الساهمة وإنّما الزعانفُ الملتمعة والزلقة لأفراخ السمك والحنكليس والهِفّ. وفي حبورها، كانت تركض بين السماء والأعشاب، في براريها وتحت دوحاتها التي فَتَنتْها بامتياز، شأنها شأن دوحاتنا، عبقريةُ الربيع المتألّقة. والمياه المنزلقة فوق رؤوسها وخياشيمها وبطونها، كانت تهرع هي أيضاً وتغنّي وتُركِض أمامها الشمسَ بجذَلٍ.

(1) كتب بروست هذا النصّ بعد أن زار قصر سيغرز في منطقة لاسون، والذي كانت تملكه عائلة بيير لافاليه، صديقه في المدرسة الإعداديّة. ولكنّه لم يستطع أن يبقى هناك إلا ليلة واحدة، بسبب أزمة ربو عاوَدته.

قُنّ الدجاج الذي ينبغي الذهاب إليه لجلب البيض لم يكن أقلّ بهجة للنظر. وكشاعر ملهَم وخصْب لا يستهين بنشر مسحة من الجمال على الأماكن الأكثر تواضعاً والتي بدت حتّى ذلك الحين مقصيّة عن مجال الفنّ، كانت الشمس تدفئ طاقة الأسمدة المُحسِنة والباحة المتفاوتة البلاط وشجرة الكمّثرى المكسورة كخادمة عجوز.

ولكن من هو ذلك الشخص الذي يتقدّم بحلّته الملكيّة بين أدوات الريفيّين والفلاحيّن، يتقدّم على رؤوس أصابعه كأنّه يريد ألّا يلوّث ثيابه؟ هو طائر الإلهة جونون الذي لا يلتمع بحجارة كريمة ميتة، بل بعيني أرغوس، هو الطاووس الذي يُذهل هنا ببذخه الخرافيّ(1). وكما في أيّام الأعياد، وقبل هنيهة من وصول المدعوّين، كانت ربّة البيت البهيّة بفستانها ذي الذيل المتعدّد الألوان، وذي القَبة اللّازوردية المرتبطة بجيدها الملكيّ، وذؤابات ريشاتها فوق شعرها، تمرّ في الباحة أمام العيون الذاهلة للمتسكّعين المجتمعين حول السياج الحديديّ، ذاهبةً لتعطي آخرَ أمر لها ولتنتظر الأمير الكريم المحتد الذي كان عليها أن تستقبله على عتبة المنزل.

ولكن كلا، ها هنا يقضي الطاووس حياته، إنّه طائر الجنة الحقيقيّ وموجود في هذا القنّ بين ديوك الحبش والدجاج، شأنه شأن أندروماك الأسيرة التي كانت تغزل الصوف وسط العبيد، ولكنّه لم يتخلَّ مثلَها البتّة عن روعة العلائم الملكية والمجوهرات الموروثة، إنّه يشبه الإله

(1) جونون إلهة رومانية، هي زوجة جوبيتر، وهي حامية النساء ترافقهنّ من المهد إلى اللّحد، وتمثل الخصوبة. أمّا أرغوس فهو عملاق له مئة عين، ينام بخمسين عين مغمضة وخمسين مفتوحة، تصدّى له الإله هرمس وحزّ رقبته. فوضعت جونون العيون المئة على ريش طاووسها. وشهر يونيو هو شهر الإلهة جونون.

أبولون الذي يُعرَف دائماً، حتّى وإن كان ببهائه يرعى قطعان أدميت[1].

4
عائلة تستمع إلى الموسيقى

«ذلك أنّ الموسيقى عذبة
وتجعل الروح متناغمةً، وكجوقةٍ إلهية
توقظ ألفَ صوت يصدح في الجوقة»[2]

بالنسبة لعائلة تحيا كما يجب، عائلة يفكّر كلُّ فرد من أفرادها ويحبّ ويعمل، يظلّ امتلاك حديقة أمراً جميلاً. ففي أماسي الربيع أو الصيف يجتمع فيها الجميع، بعد أن يُنهوا أعمالهم اليوميّة؛ ومهما كانت الحديقة صغيرة، ومهما تقاربت أسيجتها فإنّها لا تكون من الارتفاع بحيث تمنع رؤية قطعة كبيرة من السماء التي يرفع كلّ منهم عينيه إليها ويحلم دون أن ينبس بكلمة. الطفل يحلم بمشاريعه المستقبلية، وبالبيت الذي سيسكنه مع صديقه المفضّل كي لا ينفصلا، وبما تخبّئه الأرض والحياة من مجهول؛ ويحلم الشابّ بالسحر الغامض عند تلك التي يعشقها؛ وتحلم الأمّ الشابّة بمستقبل طفلها؛ وتكتشف المرأة التي كانت مضطربة في الماضي، في عمق تلك الساعات الصافية، وتحت مظاهر زوجها الباردة، حسرة أليمة تقضّ مضجعها. الأب الذي يتابع بعينيه الدخان المتصاعد من فوق

(1) ورد في الأسطورة اليونانية أن أبولون طُرد من الأولمب لمدّة سنة لأنه قتل السيكلوبات، فاستقبله أدميت ملك فيرا (في منطقة تساليا)، وكلّفه برعاية قطعانه، ريثما تنتهي عقوبته.

(2) فكتور هوغو، من مسرحية هيرناني، الفصل الخامس.

أحد السطوح، يتوقّف عند أحد المشاهد الهادئة من ماضيه الذي يسحره ضوءُ المساء في المدى البعيد؛ يفكّر في موته القريب وفي حياة أطفاله بعد موته؛ وهكذا ترقى روح العائلة كلّها نحو المغيب بصورة دينية، في حين أنّ شجرة الزيزفون أو الكستناء أو الصنوبر تبثّ في العائلة بَرَكة أريجها البديع أو ظلها المهيب.

ولكن بالنسبة لعائلة تحيا حقّاً، يفكر فيها كلّ فرد من أفرادها ويحبّ ويعمل، بالنسبة لعائلة لها روح، كم يحلو أن تتمكّن هذه العائلة في المساء من أن تتجسّد في صوت، في صوت صافٍ لا ينضب معينه، تطلقه فتاة أو شابّ يتمتّعان بموهبة الموسيقى والغناء. والغريب الذي يمرّ أمام باب الحديقة التي تحافظ العائلة فيها على الصمت، يخشى لدى اقترابه، من أن يقطع ما يشبه حلماً دينيّاً يستغرقهم جميعاً؛ ولكن إذا كان هذا الغريب، دون أن يسمع الغناء، قد لاحظ أنّ جمْع الأهل والأصدقاء يستمعون إليه، عندها يبدو له أنّهم يحضرون قدّاساً غير مرئيّ، أي أنّهم- على تباين تصرفاتهم- تتشابه تعبيراتهم التي تنمّ عن وحدة حقيقية لأرواحهم حقّقها في تلك اللّحظة تعاطفُهم مع مأساة مثالية واحدة واشتراكهم في الحلم نفسه. وأحياناً، عندما تُميل الريحُ الأعشابَ وتحرّك الأغصان لبرهة، تَميل الرؤوس لهبّة منها أو تنتصب فجأةً. عندئذٍ يبدو الجميع- كما لو أن رسولاً غير مرئيّ راح يسرد قصة مشوّقة- وكأنّهم ينتظرون بتوجّس أو يستمعون بفرح أو بهلع إلى القصة عينها التي تُحدِث عند كلّ منهم أصداء مختلفة. يصل توجّس الموسيقى إلى ذروته، وتنكسر انطلاقاتها بانخفاض عميق للصوت، تليه انطلاقات تقطع الأمل أكثر. في رحاب الموسيقى المشرقة وفي دياجيرها السرية، يرى العجوزُ مشاهد الحياة والموت الرحبة، ويرى الطفل الوعود الحثيثة للبحر واليابسة،

ويرى العاشق اللّانهايةَ الغامضة أو ظلمات الحبّ المضيئة. ويرى المفكّرُ حياتَه المعنوية تنبسط كلّها أمامه؛ فيرى في الأنغام الجهيرة مواقع ضعفه وسقطاته، ويتوثّب قلبُه ويحلّق عندما تعاود الأنغام صدحها. وهمسُها القويّ يجعل الأعماق المظلمة والغنيّة لذكرياته تختلج. ويلهث الرجل العمليّ في خضمّ الألحان المتوافقة، ويعدو لسماعه الألحان المتسارعة؛ وينتصر بفخامة عندما تُعزف الأنغام شبْه البطيئة. وتشعر المرأة الخائنة بأنّ خطيئتها قد غُفرت وتلاشت، خطيئتها التي نجمت أصلاً عن قلب متعطّش لم تهدّئه الأفراح العادية، فشرد بحثاً عن السرّ الدفين، وها هي الموسيقى الطافحة كأصوات النواقيس تُفعمه بأرحب التطلّعات. أمّا الموسيقيّ الذي يدّعي أنّه لا يتذوّق في الموسيقى إلّا متعة تقنية، فيشعر هو أيضاً فيها بهذه الانفعالات اللافتة، ولكنّها في مشاعره مكسوّة بجمال موسيقيّ يحجبها عن عينيه. وأنا أخيراً، عندما أصغي في الموسيقى إلى الجمال الرحب والكونيّ، جمال الحياة والموت، جمال البحر والسماء، أشعر فيها أيضاً بسحركِ الفريد والوحيد، يا حبيبتي العزيزة.

5

***

مفارقات اليوم هي الأحكام المسبقة في الغد، لأنّ الأحكام المسبقة الأكثر سماحة والأكثر إزعاجاً اليوم كان لها لحظة جِدّةٍ أعارتها فيها الموضة جمالَها الهشّ. كثير من النساء يردن اليوم أن يتخلّصن من جميع الأحكام المسبقة ويَعنين بها المبادئَ، وهنا يكمن حكمهنّ المسبق الثقيل، مع أنّهنّ يتزيّن به كزهرة نحيلة ومستهجنة. يعتقدن أن لا شيء له خلفيّة ويضعن

جميع الأشياء على المستوى ذاته. يستسغن كتاباً ويتذوّقن الحياة نفسها كنهار جميل أو كبرتقالة. يطلقن كلمة «فنّ» على عمل الخيّاطة، ويطلقن تسمية «فلسفة» على «الحياة الباريسية». يخجلن إن لم يصنّفن الأشياء ويحكمن عليها وإن لم يقلن: هذا جيّد وهذا سيّئ. في الماضي، عندما كانت سيّدة تحسن التصرّف، كان ذلك يُعتبر انتقاماً لأخلاقها، أي لفكرها، على طبيعتها الغرائزية. واليوم، عندما تحسن سيدّةٌ التصرّف، يُعدّ ذلك انتقاماً لطبيعتها الغرائزيّة على أخلاقها، أي على فساد أخلاقها النظريّ (شاهِدوا مسرحيات السيّدين هاليفي Haléry وميلاك Meilhac)[1]. بتسيّب جميع العلاقات الأخلاقية والاجتماعية، تنتقل النساء من فساد الأخلاق النظريّ إلى هذه الطيبة الغريزية. إنهنّ لا يبحثن إلّا عن الاستمتاع ويجدنه فقط عندما لا يبحثن عنه، وعندما يقاسين منه طوعاً. هذه الريبة وروح الهواة هذه يصدمان في الكتب، كما يصدم التزيّن الذي أفلت موضته. ليست النساء عرّافات الموضات الفكرية، بقدرما هنّ شَعرُها المستعار المتخلّف. واليوم أيضاً، تعجبهنّ روح الهواية وتناسبهنّ. وإذا أفسد هذا الشيء تفكيرهنّ ووتّر تصرفهنّ، لا ننكر أنّه يمنحهنّ جمالاً ذاوياً ولكنّه ما زال لطيفاً. إنهنّ يُشعرننا، حتّى الانتشاء، بأنّ الحياة تستطيع- في عدد من الحضارات الراقية- أن تحتوي على السهل واللّطيف. إن إبحارهنّ المتواصل إلى مدينة «سيتير» (Cythère)[2] الروحية حيث لن

(1) لودوفيك هاليفي (1834-1908) وهنري ميلاك (1831-1897) كتبا معاً أعمالاً مسرحية ونصوصاً للأوبرا تعبّر تماماً عن الحياة الفرنسية إبّان الإمبراطورية الثانية، ومن هذه الأعمال: «هيلين الجميلة» (1864)، «الحياة الباريسية» (1866)، و«كارمن» التي حوّلها بيزيه إلى أوبرا.

(2) جزيرة يونانية مكرّسة للإلهة فينوس (أفروديت). وترمز في الفنّ والأدب إلى مطارح الغرام والمتعة. ورسم فاتو لوحة عنوانها «الإبحار إلى سيتير» ولبودلير قصيدة في ديوانه «أزهار الشر» عنوانها «رحلة إلى سيتير».

تكون الاحتفالية لحواسّهنّ الكليلة بل للخيال والقلب والعقل والعينين والمنخرين والأذنين، يضفي على تصرفاتهنّ بعض اللّذاذة. وأدق رسّامي البورتريه في زماننا لن يرسموهنّ، كما يتراءى لي، مع شيء من التوتّر الظاهر ولا مع شيء من التصلّب الواضح. حياتهنّ تنشر العطر الرائق لضفائر شعرهنّ المحلول.

6

***

الطموح يُسكِر أكثر من المجد؛ الرغبة تُزهر، والتملّك يُذبل كلّ شيء؛ الأفضل أن يرى الإنسان حياته في الحلم بدلاً من أن يعيشها، مع أنّ عيشها هو أيضاً أن يراها في المنام، وإنما بغموض أقلّ وبوضوح أقلّ في آن معاً، يراها في حلم غامض وثقيل هو أشبه بحلم مشتّت في الوعي الضعيف للحيوانات المجترّة. مسرحيات شكسبير هي أجمل عندما تشاهَد في غرفة العمل أكثر منها عندما تمثَّل فوق خشبة المسرح. الشعراء الذين خلقوا عاشقات خالدات لم يعرفوا في الغالب إلّا خادمات بائسات يعملن في النُزُل الرثة، في حين أنّ الشهوانيّين المحسودين طرّاً لا يعرفون أن يتصوّروا الحياة التي يسلكونها، أو بالأحرى الحياة التي تقودهم هي. عرفتُ صبيّاً صغيراً عمره عشرة أعوام، صحّته هزيلة وخياله ناضج، كرّس لفتاة أكبر منه سنّاً حبّاً ذهنياً خالصاً. كان يبقى ساعات طويلة قرب نافذته ليراها تمرّ، وكان يبكي إن لم يشاهدها، ويبكي أكثر إن شاهدها. كان لا يُمضي قربها إلّا لحظات قصيرة. توقّف عن النوم والطعام. وذات يوم، رمى بنفسه من النافذة. فظنّ الناس أولاً أنّ يأسه

من إمكان الاقتراب من صديقته هو الذي دفعه إلى الانتحار، وعلى العكس، عُلِم أنّه تكلّم مطوّلاً معها قبل ذلك بلحظاتٍ، وأنّها كانت في غاية اللّطافة معه. عندئذٍ افترضوا أنّه تخلّى عن الأيّام التافهة المتبقّية في حياته، بعد تلك النشوة التي ربّما لن تتوفّر له مناسبة أخرى لتجديدها. وأخيراً أستُنتج من خلال بعض الأحاديث الخاصّة الكثيرة التي باح بها سابقاً لأحد أصدقائه، أنّه كان يشعر بخيبة كلّ مرّة كان يرى فيها مليكة أحلامه؛ ولكن ما إن تغادر حتّى يعيد خياله إلى الفتاة الصغيرة الغائبة سلطانها كلّه، وتتجدّد رغبته في أن يراها. وكلّ مرّة، كان يحاول أن يجد في عدم توافر الظروف سبباً عارضاً لخيبته. وبعد هذا اللقّاء الأخير الذي توصّل فيه مزاجه الماهر إلى رفع صديقته إلى الكمال العالي الذي يمكن أن يتأتّى لطبيعتها، والذي قارن فيه بمنتهى اليأس بين هذا الكمال الناقص وبين الكمال المطلق الذي كان يحيا به ويموت بباعثٍ منه، رمى بنفسه من النافذة. ومنذ ذلك اليوم أصيب بالعته، وعاش عمراً مديداً، وقد حافظ من سقطته تلك على نسيان روحه وفكره وكلام صديقته التي كان يلتقيها دون أن يراها. أمّا هي، فرغم التوسّلات والتهديدات، تزوّجته وماتت بعد ذلك بسنوات عديدة دون أن تنجح في التعريف بنفسها. الحياة تشبه الصديقة الصغيرة. نراها في حلم، ونحبّها لأنّنا نراها في حلم. يجب ألّا نحاول عيشها: نرمي بأنفسنا، علىَ غرار الصبيّ الصغير، في البلاهة، ليس دفعة واحدة، لأن كلّ شيء في الحياة يتردّى تدريجيّاً، في لمساتٍ طفيفة. وبعد ذلك بعشرة أعوام، نفقد التعرّف على أحلامنا، وننكرها، ونعيشها كما يعيش الثور رغبةً في العشب الذي سيرعاه آنيّاً. ومن يدري إن كان خلودنا الواعي يستطيع أن يولَد من أعراسنا مع الموت؟

7

***

بعد أيّام من إعداد البيت الذي سيقيم فيه النقيب حتّى مماته، بعد أن أحيل على التقاعد (ومرض قلبه لن يتركه يعيش طويلاً)، قال له الضابط المرافق:

- سيّدي النقيب، بما أنّك لا تستطيع الآن أن تمارس الحبّ ولا أن تقاتل، ربّما تسلّيك الكتب، فماذا يجب أن أشتري لك؟
- لا تشترِ لي شيئاً؛ لا أريد كتباً؛ فهي لا تستطيع أن تقول لي شيئاً بأهمّيّة ما فعلتُ، وبما أنّني لن أبقى طويلاً على قيد الحياة، لا أريد شيئاً آخر من شأنه أن يذكّرني بذلك. هاتِ مفتاح صندوقي الكبير، ففيه ما سأقرأه كلّ يوم.

وأخرج منه رسائل عديدة، بحراً مبيضّاً، وأحياناً مدموغة، رسائل طويلة جدّاً، وأخرى بسطر واحد، رسائل مكتوبة على بطاقات ومعها أزهار ذاوية وأشياء وكلمات صغيرة كتبها هو ليتذكّر المناسبات التي استلمها فيها، وصور فوتوغرافية تالفة رغم الاحتياطات، كتلك الذخائر المقدّسة التي استهلكها ورعُ المؤمنين بالذات: بسبب تقبيلهم إياها مرّات ومرّات. وجميع هذه الأشياء كانت عتيقة، هناك رسائل وصور لنساء قضين نحبهنّ، وأخريات لم يعد يراهنّ منذ أكثر من عشر سنوات.

في كلّ هذا ثمة أمور صغيرة دقيقة فيها من الشهوانية والحنان ما فيها ولا شيء عن ظروف حياته، وكان كلّ هذا كجدارية فسيحة ترسم حياته دون أن تروي وقائعها، ومرسومة بلونها المغروم فقط، خُطّت بطريقة مبهمة جدّاً وخاصة جدّاً في آن، وشديدة التأثير. كان ثمّة تنويهات بقُبل

في الفم- في فم نديّ كان هو سيترك فيه روحه بلا تردّد، وقد هجره ذلك الفم لاحقاً- تنويهات أبكته طويلاً. ومع أنّه كان شديد الضعف والحيرة، عندما أفرغ دفعة واحدة تقريباً هذه الذكريات التي ما زالت حيّة، وكأنّها كأس نبيذ يبعث الدفء، نبيذ نضج في الشمس التي افترست حياته، أحسّ برعشة قوية دافئة، كما يفعل الربيع في فترات نقاهتنا، وكما يفعل موقد الشتاء فعله في مواطن ضعفنا. الشعور بأنّ جسده العجوز المتهالك قد اشتعل مع ذلك بمثل هذه النيران، منحه حياة متجدّدة، واشتعل بمثل هذه الألسنة المفترسة. ثمّ عندما فكّر في كلّ ما ناء بكلكله عليه، وبأنّه كان فقط ظلالاً متطاولة ومتحرّكة وصعبة المنال، للأسف، ظلالاً ستختلط كلّها عما قريب باللّيل السرمدي، راح يبكي من جديد.

وعندما عرف أنّها لم تكن إلّا ظلالاً، وظلال ألسنة نارية هُرعت لتشتعل في مكان آخر، وأنّه لن يراها من بعد، طفق مع ذلك يعبد هذه الظلال ويمدّها بوجود عزيز يتعارض مع النسيان المطلق القادم قريباً. تذكّر جميع تلك القُبل وتلك الضفائر المقبَّلة وكل ما يمتّ بصلة إلى الدموع والشفاه والدغدغات المسكوبة كخمر مسكِر، وكلّ تلك الإحباطات المقنِطة والمتعاظمة كالموسيقى أو المساء اللّذين يشعر المرء فيهما وكأنّه يُسعد بشعوره أنّه يتوسّع إلى ما لا نهاية في الأسرار المكنونة وفي الأقدار؛ تذكّر تلك المرأة التي شُغفَ بها وأحكمت قبضتها على كيانه كلّه، بحيث لم يعد أيّ شيء يهمه إلّا بقدرما يقدر على تسخيره لشغفه بها، نعم أحكمت قبضتها عليه ثمّ تلاشت بغموضٍ بحيث لم يعد يمسك بها، ولم يعد يمسك حتّى بالشذا الذي تتضوّع به أطراف معطفها؛ فصار يتشنّج لكي يعيش ذلك من جديد، وكي يُحْييه ويسمّره أمامه كمثْلِ فراشات. وأحياناً كان ذلك على جانب كبير من الصعوبة. فهو لم يقبض

قطّ على أيّة فراشة، ولكنّه أحياناً كان يزيل بأصابعه قليلاً من سراب أجنحتها؛ أو بالأحرى كان يراها في المرآة، وكان يصطدم بالمرآة عبثاً كي يتمكّن من ملامستها، وكان يلطّخها كلّ مرّة قليلاً فلا يرى الفراشات من بعد إلّا غامضةً وقد تناقصَ جمالها. وهذه المرآة الملطّخة لقلبه، لا شيء يستطيع من بعد أن يغسلها، عندما نأتْ عنه الآن أنفاس الشباب المطهِّرة وأنفاس العبقرية؛ فبأيّ قانون تجهله فصولنا السنوية، وبأيّ تعادل سرّي لخريفنا نأتْ؟...

ومرّة بعد مرّة تضاءل ألمه من فقدانه تلك القبل في ذلك الفم، وتناقصت تلك الساعات التي لا حدود لها، وتلك العطور التي كانت فيها قبل تبعث فيه الهذيان.

وتألّم لتناقص ألمه، ثمّ زال ذلك الألم بالذات، ثمّ خرجت جميع الآلام، خرجت كلّها، وما كان عليه أن يُخرج المسرّات، لأنّها هجرته منذ أمد طويل بصنادلها المجنّحة[1] دون أن تطوي على شيء، هجرته وأغصانها المزهرة في أيديها، وهربت من ذلك المنزل الذي لم تعد تراه شابّاً بالنسبة لها، ثمّ توفّي كجميع البشر.

8
ذخائر مقدّسة

اشتريتُ كلّ ما بيع من تلك المرأة التي وددتُ أن أكون صديقها، والتي لم تقبل حتّى بالتكلّم معي لحظة واحدة. أمتلك لعبة الورق

(1) إشارة إلى صندلَي هرمس المجنّحين؛ وهرمس هو رسول زوس، ورسول آلهة الجحيم في آن.

الصغيرة التي كانت تتسلّى بها كلّ مساء، وأمتلك قردَيها وثلاث روايات تحمل على قفاها شعارَ نسَبِها، وكلبتَها. أيّتها المباهج، أيتها التسليات العزيزة لحياتها، لقد حصلتِ على جميع ساعاتها الحرّة والمصونة والسريّة، دون أن تتمتّعي بها كما كنتُ سأفعل لو أتيح لي ذلك، ودون أن ترغبي حتّى فيها؛ إنّكِ لم تشعري بسعادتكِ ولا تستطيعين أن تروي ذلك.

يا أوراق اللّعب التي كانت تحرّكها بأصابعها كلّ مساء مع أفضل أصدقائها، والتي رأتها تملّ أو تضحك، والتي شهدت بداية علاقتها، والتي تركتها هيَ من يدها لتقبّل ذاك الذي أتى منذئذٍ ليلعب معها كلّ مساء؛ ويا رواياتٍ كانت تفتحها وتغلقها في سريرها حسب مزاجها أو تعبها، والتي اختارتها حسب رغبتها الآنية أو أحلامها وباحت لها بها، روايات راحت تخلط ما تعبّر عنه بهذه الأحلام وساعدتها على استعراض أحلامها هي، ألمْ تحتفظي بشيء منها؟ ألن تقولي لي شيئاً عنها؟

أقول روايات، لأنّها بدورها فكّرتْ في شخصيّاتكم وفي مشاعركم؛ أقول أوراق لعب، لأنّها بطريقتها هي شعرت معكم بالهدوء، وأحسّت أحياناً بحمّى العلاقات الحميمية العنيفة؛ أفَلَمْ تحافظي على شيء من فكرها بعد أن رفّهتِه وملأتِه، ألمْ تحتفظي بشيء من قلبها الذي فتحتِه أو واسيتِه؟

يا ورق اللّعب، ويا أيتها الروايات، بما أنّ يديها أمسكت بكِ كثيراً وبقيتْ طويلاً فوق طاولتها؛ يا أوراقَ سيّداتٍ وملوكٍ وخدم، يا منْ كنتِ مدعوّاتها الثابتات في احتفالاتها الأكثر جنوناً؛ وأنتم يا أبطال رواياتها ويا بطلاتها، الذين كنتم تحلمون قرب سريرها وتحت نار سراجها وعينيها حلمكم الصامت والمليء بالأصوات، لم تتمكّنوا من أن تجعلوا العطر الذي ضمّخكم به جوّ غرفتها، ونسيج أثوابها، وملمس

يديها وركبتيها، يتبخّر.

لقد حافظتِ على الطيّات التي جعّدتْها فيكِ يدُها المرحة أو المتوترة؛ وربّما قد اعتقلتِ الدموعَ التي جعلها تنهمر حزنٌ آتٍ من كتابٍ أو من الحياة؛ إنّ النهار الذي دفع عينيها إلى التألّق أو الانجراح قد أعطاكِ هذا اللّونَ الحارّ. إنّني ألمسكِ وأنا أرتعش، وأنا متوجّس من كشفكِ أسرارها، وأنا قلق من صمتكِ. واحسرتاه، ربّما كانت مثلكِ أنتِ الكائنات البديعة والهشّة، ربّما كانت الشاهد العديم الشعور والإدراك لجمالها. ربّما كان جمالها الحقيقيّ يكمن في رغبتي أنا. لقد عاشت حياتها، ولكنّني الوحيد ربّما الذي نسج حلماً عنها[1].

9
سوناتة ضوء القمر[2]

I

أكثرَ من متاعب السفر، أنهكني تذكّر تطلّبات أبي ومخاوفي منها بالإضافة إلى تذكّري لامبالاة بيا Pia ومهاجمات أعدائي العنيفة. أثناء النهار، سلّتْ نفسي بصحبة أسونتا Assunta وغناؤها ولطفها معي، دون أن تعرفني كثيراً، وجمالها الأبيض والبنّي والورديّ وعطرها الدائم الذي يختلط بهبّات الهواء البحريّ وريشة قبّعتها وعقد اللّؤلؤ الذي يحيط بجيدها، ولكنّني حوالى الساعة التاسعة مساء طلبتُ منها أن تستقلّ

---

(1) تبدأ رواية جيرار دو نرفال التي كان يحبّها بروست بهذه العبارة: «الحلم هو حياة أخرى».

(2) إن السوناتة الثانية التي تحملِ الرقم 27 في أعمال بيتهوفن، واسمها الرسمي هو: «سوناتة بيانو في دييز مينور»، أُطلقت عليها تسمية «سوناتة ضوء القمر».

العربة وتعود، لتتركني أرتاح قليلاً في الهواء الطلق. كدنا أن نصل إلى هونفلور؛ تمّ اختيار المكان بعناية، كان أمامه حائط ويقع في مدخل ممرّين محاطين بأشجار باسقة تحمي من الريح، وكان الهواء عليلاً؛ أذعنتْ وتركتني. فاستلقيت على العشب ووجهي ينظر إلى السماء الداكنة؛ وهدهدني صوت البحر الذي كنت أسمعه ورائي دون أن أتبيّنه في الظلام، وما عتّمتُ أن غفوتُ.

وسرعان ما حلمتُ بأنّ مغيب الشمس أمامي كان يضيء الرمال والبحر. وهبط الغسق، فبدا لي أنّ غروب الشمس ذاك والغسق ذاك يشبهان جميع الأغساق وجميع غروبات الشمس. ولكن أتاني أحدهم برسالة، فحاولت قراءتها ولكنّني لم أستطع أن أرى شيئاً. عندها فقط أدركتُ أنّ الظلمة حالكة، رغم ذلك الانطباع بوجود نور ساطع منتشر. كان مغيب الشمس شاحباً جدّاً، مضيئاً دون وضوح، وفوق الرمال المضاءة على نحو سحريّ تكدّست ظلمات كثيرة بحيث صعبَ عليّ جدّاً أن أميّز قوقعة من القواقع. كان ذلك الغسق الخاصّ بالأحلام أشبه بمغيب شمس مريضة صائلة تنزل فوق شاطئ قطبيّ مُحصِب. تبدّدتْ أحزاني فجأةً؛ ولكنّ قرارات أبي، وعواطف بيا، واسترابة أعدائي ما زالت تسكنني، دون أن تحطّمني، كأنّها ضروة طبيعيّة أصبحتْ لا تثير المبالاة. وتناقض هذا الإشعاع المعتم، ومعجزة هذه الهدنة السحرية مع عللي، لم يثيرا فيّ أيّ احتراس أو أيّ خوف، ولكنّني كنت محاطاً ومغموساً وغارقاً في نعومة متنامية أيقظتني في النهاية شدّتُها العذبة. ففتحتُ عينيّ. كان حلمي الرائع والشاحب ينتشر حولي. والحائط الذي استندتُ إليه لأنام كان يشعّ، وكان ظلّ لبلابه يمتدّ عليه ساطعاً كأنّه في الساعة الرابعة بعد الظهر. وكانت تتلألأ أوراق شجرة حور هولنديّ قلبت

اتجاهَها هبّةُ هواء ناعم. وكانت تشاهَد على البحر أمواج وأشرعة بيضاء، وكانت السماء صافية، وبزغ القمر. وأحياناً كانت السحب الخفيفة تمرّ فوق البحر، ولكنّها كانت تتلوّن عندئذٍ بتدرّجات زرقاء كان شحوبها عميقاً كهلام قنديل بحر أو كقلبِ حجر عين الهرّ. ومع ذلك فإنّ الضياء الذي كان يلمع في كلّ مكان، لم تستطع عيناي أن تلتقطاه في أيّ مكان. وفوق العشب المتألّق حتّى السراب، تَبّتت الظلماء. فاسودّت الغابات والأخاديد تماماً. وفجأةً استيقظ صوت مديد كالقلق، وتعاظم بسرعة، وبدا وكأنّه يتدحرج في الغابة. كان ذلك ارتعاشَ أوراق الشجر التي جعّدها النسيم. سمعتُها واحدة بعد واحدة تنداح كالأمواج على صمت اللّيل المديد كلّه. ثمّ تضاءل هذا الصوت بالذات وخمد. وفي المرج الضيّق الممتدّ أمامي بين صفّين كثيفين من شجر السنديان، بدا نهر من الضياء ينساب، يحدّه هذان الصفّان من الظلال. ولدى استذكار بيت الناطور وأوراق الشجر وشراع من الأشرعة، بدا وكأنّ نور القمر لم يوقظها من اللّيل الذي تلاشت فيه. في صمت النوم ذاك، لم يكن القمر يضيء إلّا شبح أشكالها الغامض دون أن أتمكّن من تبيّن الاستدارات التي تبدو لي واضحة في النهار، والتي تقهرني بيقينِ حضورِها واستمرار تجاورها العاديّ. المنزل الذي لا باب له، وأغصان الشجر التي لا ساق لها والمجرّدة من أوراقها تقريباً، والشراع الذي لا زورق يحمله بدت- عوض أن تكون واقعاً دامغاً بامتياز وعاديّاً مكروراً- وكأنّها الحلم الغريب المتلاشي المتلألئ لأشجار نائمة تغوص في الظلمة. لم يسبق للغابات قطّ أن نامت هذا النوم العميق، وبدا وكأنّ القمر انتهز الفرصة ليقيم في السماء وفي البحر هذا الاحتفال الكبير الشاحب والناعم. لقد زال حزني. وسمعت أبي ينهرني، وبيا تسخر مني، وأعدائي يحوكون المؤامرات عليّ، ولم يبدُ

لي أنّ شيئاً من كلّ هذا هو حقيقيّ. الواقع الوحيد كان يكمن في ذلك النور غير الحقيقيّ، واستذكرتُه مبتسماً. لم أدرك التشابه الغامض الذي كان يجمع متاعبي والطقوس الاحتفالية التي كانت تقام في الغابات وفي السماء والبحر، ولكنّني شعرتُ أنّ شرحها ومؤاساتها ومغفرتها أشياء يعبَّر عنها، وأن لا أهمية ألّا يتضح سرّها لعقلي، لأنّ قلبي كان يسمعها بدقّة. فناديت أمّي القديسة باسمها أثناء اللّيل، وتعرّف حزني في القمر على أخيه الخالد، ولمع القمر فوق آلام اللّيل المتجلّية، ولمع في قلبي الذي انقشعت عنه الغيوم وزالت منه الكآبة.

II

عندئذٍ سمعتُ وقع خطوات. قدِمت أسونتا نحوي بهامتها البيضاء السامقة فوق معطف داكن فضفاض. قالت لي بصوت خافت: «خشيت من أن تبرد، أخي كان نائماً، فعدتُ». اقتربتُ منها؛ وكنت أرتجف، فأخذتني تحت معطفها ولكي تمسك بقبته مرّرت يدها حول عنقي. مشينا بضع خطوات تحت الأشجار، في الظلمة الدامسة. فالتمع شيء أمامنا، لم يتسنَّ لي الوقت كي أتراجع، فتباعدت ظنّاً مني أنّنا اصطدمنا بجذع شجرة، ولكنّ العائق انسحب من تحت أقدامنا، كنّا نمشي في مكان يغمره القمر. أدنيت رأسها من رأسي. فابتسمتْ، فرحتُ أبكي ورأيتُ أنّها تبكي أيضاً. عندها فهمنا أنّ القمر كان يبكي وأن حزنه يتناغم مع حزننا، وأنّ نبرات ضيائه الممضّة والناعمة تخترق قلبينا. مثلنا، كان يبكي ودون أن يعرف لماذا كما كنّا نفعل على الدوام تقريباً، وشعرنا بنشيجه الذي كان يجرّ الغابات والحقول والسماء إلى يأسه اللّطيف الذي لا يقاوَم،

ومن جديد راح يتمرأى في صفحة البحر، واجتذب قلبي الذي بدأ يرى بوضوح في قلبه[1].

10

ينبوع الدموع الكائنة في الغراميّات الماضية

إنّ عودة الروائيين أو أبطالهم إلى غراميّاتهم التي شبعت موتاً، وإن كانت تؤثّر في القارئ، هي للأسف عودة مصطنعة جدّاً. وهذا التباين بين رحابة حبّنا الماضي وبين عدم اكتراثنا الحاضر بالمطلق، الذي يذكّرنا به ألف تفصيل ماديّ- اسم يُستذكر في الحديث، رسالة يُعثَر عليها في أحد الدروج، الالتقاء بشخص بذاته أو امتلاكه بعد فوات الأوان إن صحّ التعبير- هذا التباين المؤلم جدّاً والمليء بالدموع المكبوتة، في عمل فنيّ، نلاحظه في الحياة ببرودة، لأنّ حالتنا الحاضرة هي اللّامبالاة والنسيان، ولأن حبيبتنا وحبّنا لم يعودا يعجباننا إلّا جمالياً على أحسن تقدير، ولأنّ الاضطراب وإمكانية التألم قد زالتا مع الحبّ. الكآبة المبرّحة الناجمة عن هذا التباين ليست إذن إلّا حقيقة أخلاقية معنويّة. وقد تصبح واقعاً نفسياً إن وصفها أحد الكتّاب- في بداية الحبّ الذي يصفه وليس بعد أن ينتهي.

وفي أغلب الأحيان، عندما نبدأ نحبّ، بعد أن تكون تجربتنا وحصافتنا قد جذّرتنا- ورغم احتجاج قلبنا الذي يشعر بخلود الحبّ أو يتوهّمه- نعلم ذات يوم أنّ تلك المرأة التي نعيش ونحن نفكّر فيها ستحظى بلا

(1) هناك مقارنة ممكنة بين نصّ بروست عن القمر وقصيدة بودلير «حزن القمر» (في ديوان «أزهار الشرّ»).

مبالاتنا شأنها الآن شأن جميع الأخريات اللّواتي مثلها... سنسمع اسمها دون أيّة شهوة أليمة، سنقرأ ما تكتب دون أن نرتعش، لن نغيّر طريقنا كي نلمحها في الشارع، سنلتقي بها دون وجل، سنمتلكها دون نشوة طافحة. هذا الوجود المؤكّد، على الرغم من الإرهاص العبثيّ والعاتي بأنّنا سنحبّها دائماً، سيدفعنا عندئذٍ إلى البكاء؛ والحبّ الذي سيبزغ عندنا كصباح إلهيّ شديد الغموض والحزن سيضع أمام ألمنا شيئاً من آفاقه الكبرى الغريبة والعميقة جدّاً، وشيئاً من لوعته الساحرة...

11

صداقة

عندما نقع فريسة الحزن، من العذوبة بمكان أن نستلقي في سريرنا الدافئ، وبعد أن ينتفيَ منّا كلُّ جهد وكلّ مقاومة، ونغمرَ رأسنا تحت الأغطية، من العذب أيضاً أن يستسلم كياننا كلّه وينتحب كالأغصان التي تهزّها ريح الخريف. ولكن ثمة سرير أفضل أيضاً، سرير مضمّخ بعطور إلهية. إنّه صداقتنا الناعمة والعميقة والمنيعة. وعندما يكون هذا السرير كئيباً ومتجمّداً من البرد، أدفع بقلبي المقرور ليرقد فيه. وحتّى عندما أدفن فكري في رقّتنا الحارّة، وعندما لا ألمح من بَعدُ شيئاً من الخارج وعندما أكفّ عن الذود عن نفسي بعد أن تجرّدتُ من أسلحتي، ألفيني بفعل حناننا معزّز القزّة على الفور، وأصبح منيعاً على القهر، فأبكي من اكتئابي، ومن فرحي بأنّني وجدتُ ثقة أحبس اكتئابي فيها.

12
فعالية الحزن الزائلة[1]

علينا أن نشكر الأشخاص الذين يمنحوننا السعادة، لأنّهم كالبساتنة اللّطفاء الذين تزهر أرواحنا بهم. ولكن علينا أن نقدّم مزيد الشكر للنساء الشريرات أو اللّامباليات فقط، وللأصدقاء القساة الذين سبّبوا لنا الحزن. لقد خرّبوا قلوبنا، ونثروا ركامها فصارت هباءً، لقد اقتلعوا الجذوع وبتروا الأغصان الغضّة، كانوا كريح مكدِّرة، ولكنّها زرعت بعض الحبوب الصالحة لحصاد غير مؤكَّد.

عندما حطّم هؤلاء الأشخاص كلّ سعاداتنا الصغيرة التي كانت تخفي عنا بؤسنا الكبير، وعندما حوّلوا قلوبَنا إلى باحات جرداء كئيبة، أتاحوا لنا أن نُنْعم النظر فيها أخيراً وأن نُبدي رأينا فيها. العروض المسرحية الحزينة توفّر لنا خيراً مشابهاً، ويجب أن نعتبرها أفضل من العروض البهيجة التي تخدع جوعنا بدل أن تهدّئه: الخبز الذي يجب أن يغذينا هو خبز مرّ. في الحياة السعيدة، لا تظهر لنا مصائر أشباهنا على حقيقتها لأنّ المصلحة تغطّيها ولأن الرغبة تحوّل طبيعتها. ولكن في التجرد الذي يخلقه الألم في الحياة، وفي الشعور بالجمال الممضّ في المسرح، تُسمع أخيراً مصائرُ باقي البشر ومصائرُنا نحن روحَنا اليقظة الكلامَ الخالد غير المسموع والمتعلق بالواجب والحق. ذلك أن العمل الحزين لفنّان حقيقي يكلمنا بنبرة أولئك الذين تألموا، وأولئك الذين يجبرون كلّ إنسان تألَمَ على أن يترك هنا كلّ شيء ويُصغي.

---

(1) نتعرّف في حلم اليقظة هذا على أحد المواضيع المتكرّرة في سباعية بروست، أي على الوحش المفترس المتمثّل في النسيان (كما في الجزء المعنوَن «ألبيرتين الشاردة»).

للأسف ما جاءت به العاطفة، يُطيح به هذا الإنسان النزوي، ولا يدوم الحزن المتفوق على الحبور كما تدوم الفضيلة. لقد نسينا في هذا الصباح المأساة التي أمسِ مساءً رَفعتْنا عالياً جدّاً بحيث اعتبرنا حياتنا في مجملها وفي واقعها بشفقة بصيرة وصادقة. ربّما بعد عام سنجد عزاءً بعد أن خانتنا امرأة أو بعد أن مات لنا صديق. الريح، وسط حطام الأحلام هذا، ووسط نثار السعادات الزاوية هذا، زرعت البذرة الصالحة تحت مزنة الدموع، ولكنّها ستجّف بسرعة فائقة كي تتمكن من التشكّل.

(بعد مشاهدة مسرحية «المدعوّة» لفرانسوا دو كوريل)[1]

13
مديح الموسيقى الرديئة

امقتوا الموسيقى الرديئة، لكن لا تحتقروها. فلأنّها تُعزَف وتُغنّى أكثر من الموسيقى الجيّدة، وبأكثر شغفاً أيضاً، فهي تمتلئ أكثر منها، وشيئاً فشيئاً، بحلم البشر ودموعهم. فلتوقّروها لهذا الباعث وتُجلّوها. فلئن كان مقامُها منعدماً في تاريخ الفنّ، فهو هائل في تاريخ المجتمعات العاطفيّ! احترام الموسيقى الرديئة، ولا أقول حبّها، ليس فقط شكلاً ممّا يمكن أن نسمّيه إحسان الذوق السليم أو نزعته الشكّية، بل هو أيضاً وعي أهمية الدور الاجتماعيّ للموسيقى. كم من ألحان، لا قيمة لها في نظر الفنّان، يختارها جمهور الشبّان العاطفيّين والعاشقات اختياراً ويأتمنها على أسراره! كم من [أغانٍ من قبيل] «الخاتم الذهبيّ» و«آه! إبقي نائمة مدّة

---

(1) شاهد بروست هذه المسرحية في 19 يناير 1893، ويشير في نصّه إلى مشهد الانفصال بين آنّا Anna وزوجها ثمّ عودتهما ليعيشا معاً.

أطول»[1] تُقلِّب تنويطاتِها بارتعاشٍ كلَّ مساء أيدٍ شهيرةٌ بحقّ، وتُغرقها أجملُ عيون العالم بدموعٍ يحسد أنقى قائد أوركسترا قيمتها الشجية والمثيرة! أغانٍ تشكّل رفيقاتٍ عبقريّات وملهَمات يجعلن الحزن نبيلاً ويحتفين بالحلم، ومقابلَ السرّ اللّاهب الذي يُسَلَّم إليهنّ يعطين وهماً مُسكراً بامتلاك الجمال! بما أنّ الشعب والبورجوازية والجيش وطبقة النبلاء، لهم نفْس موزعي البريد الذين يحملون أخبار الموت أو السعادة، فلهُم ايضاً نفْس رسل الحبّ اللّامرئيين، ونفْس الكهنة المعرِّفين المحبوبين جدّاً. إنّهم الموسيقيون السيّئون. ثمة لازمة مكرورة رثّة، ترفضها كلّ أذن أصيلة ومثقفة ما إن تستمع إليها، نالت استحسان آلاف البشر واحتفظت بسرّ آلاف الحيوات التي كانت هي لها الإلهامَ الحيّ، والسلوى الجاهزة على الدوام، والمفتوحةَ دائماً على قارئة البيانو، أي أنّها كانت الروعة الحالمة والمثال الأعلى. وهذه الإيقاعات المتعاقبة السريعة، وتلك العودة للمقام قد جعلت نفوسَ أكثرَ من عاشق وأكثر من حالم تصدح بأنغام الفردوس وتتصادى مع صوت الحبيبة بالذات. إنّ دفتر الأغاني العاطفيّة الرديئة، الذي اهترأ لكثرة استعماله، يجب أن يؤثّر فينا على غرار المقبرة أو القرية. لا ضير في أن تفتقر المنازل إلى أسلوب، وفي أن تختفي القبور تحت النقوش والتزيينات السيّئة الذوق. فمن هذا الغبار يمكن، بالنسبة لخيالٍ يتمتّع بما يكفي من اللّطف والاحترام كي يُسكتَ للحظةٍ ازدراءه الجماليّ، يمكن أن تتصاعد وتحلّق سحابةُ الأرواح الممسكة في مناقيرها بالحلم الفتيّ الذي جعلها تستشفّ الآخرة وتتمتّع أو تبكي في الدّنيا.

(1) إشارة إلى ملحمة جوسلين التي كتبها ألفونس دو لامارتين ولحّنها بنيامين غودار، ووردت فيها هاتان العبارتان.

14
لقاء على ضفة البحيرة

أمس، وقبل أن أذهب لتناول طعام العشاء في الغابة[1]، استلمتُ رسالة منها تردّ فيها ببرودة شديدة على رسالة مفجوعة أرسلتُها إليها قبل ثمانية أيّام، تقول لي فيها إنها تخشى من ألّا تتمكّن أن تقول لي وداعاً قبل سفرها. وأنا، ببرودة واضحة، أجبتها بأنّ هذا أفضل هكذا وأنّني أتمنى لها صيفاً جميلاً. ثمّ ارتديتُ ثيابي وقطعت غابة بولونيا بعربة مكشوفة. كنتُ في غاية الحزن، ولكنّني حافظتُ على هدوئي. صمّمتُ على النسيان، واتّخذتُ قراري: كان الأمر مسألة وقت.

وعندما سلكتِ العربة طريق البحيرة، لمحت في آخر الدرب الذي يتجاوز البحيرة على بُعد خمسين متراً، امرأة تمشي وحدها بهدوء. لم أميّزها في البداية جيّداً. أشارت بيدها تحيّيني، وعندئذٍ عرفتُها على الرغم من المسافة التي تفصل بيننا. كانت هي! سلّمتُ عليها سلاماً طويلاً. فبقيت تنظر إليّ كما لو أنّها أرادت أن تراني أتوقّف لآخذها معي. لم أفعل شيئاً من ذلك، ولكنّني سرعان ما شعرت بانفعال خارجي تقريباً ينهال عليّ ويمسك بتلابيبي. «لقد حزرتُ ذلك، قلت لنفسي. ثمة سبب أجهله ولأجله لعبتْ دائماً لعبة عدم الاكتراث. إنّها تحبّني، هذه المخلوقة العزيزة». فاجتاحتني سعادة لا متناهية ويقين لا يُدحض، بدأت قواي تخور وأجهشتُ بالنحيب. كانت العربة تقترب من أرمينونفيل؛ مسحتُ عينيّ، فمرّت أمامهما، كما لو لتجفيف دموعهما، التحيّة الرقيقة التي عبّرت عنها بيدها، وعليهما ارتسمتْ عيناها المتسائلتان برفقٍ، تطلبان

---

(1) يقصد غابة بولونيا بباريس.

الصعود معي.

وصلتُ إلى العشاء متهلّلاً. وفاضت سعادتي باللّطافة المبتهجة والممتنّة والقلبية؛ وأشعل فيَّ شعوري بأنّ لا أحد يعرف أيّة يد مجهولة لديهم، اليد الصغيرة التي سلّمت عليّ، أشعل فيَّ تلك النار الكبرى البهيجة التي رأى الجميع إشراقها، فأضافت إلى سعادتي سحرَ المباهج السريّة. لم نعد ننتظر إلّا السيّدة T... فوصلت بعد ذلك بقليل. إنّها أتفه شخص عرفتُه، ومع أنّها كانت على جانب من الجمال، إلّا أنّها كانت الأكثر إزعاجاً. ولكنّ الحبور كان يغمرني بحيث أغفر نقائص كلّ إنسان وشناعاته، فتوجهتُ نحوها مبتسماً بحركة ودودة.

فقالت: «منذ قليل لم تكن لطيفاً».

- منذ قليل! قلتُ مندهشاً، منذ قليل، ولكنّني لم أركِ.

- كيف! ألم تعرفني؟ صحيح أنّك كنت بعيداً؛ كنت أحاذي البحيرة ومررت بعربتك زاهياً، أشرت لك بيدي إشارة تحية وكنت راغبة جدّاً في أن أصعد معك كي لا أصل متأخرة.

- كيف، كانت تلك المرأة أنتِ! صحتُ وأضفتُ عدّة مرّات بأسف: آه! أرجو أن تعذريني، أرجوك!

- كم هو تعيس! قالت سيّدة البيت؛ مرحباً بكِ يا شارلوت... [ثمّ ملتفتةً نحوي] ولكن تَعَزَّ إذن لأنّك معها الآن!

قُضي عليّ، وانهارت سعادتي كلّها.

نعم، والرهيب في الأمر أنّ هذا لم يكن كما لو أنّه لم يحدث. فهذه الصورة الودودة لتلك التي لا تحبّني، حتّى بعد أن اعترفتُ بخطأي، غيّر لمدّة طويلة الفكرة التي كوّنتُها عنها. حاولتُ استدراك ما حصل، نسيتُه تدريجياً وغالباً في كربتي- معزّياً نفسي ومجتهداً في الاعتقاد بأنّها عيناها

كما تراءى لي في البداية- أغمضتُ عيني لأرى من جديد يديها الصغيرتين تسلّمان عليّ، يديها بقفّازيهما اللّذين رفعتْهما برفق على ضفة البحيرة كأنّهما رمزان نحيلان للسلام والحبّ والمصالحة، في حين أن عينيها الحزينتين والمسائلتين بدتا تطلبان مني أن آخذها معي.

15 [1]

***

كما أنّ السماء الدامية تُنذر المارَّ بأنّ هناك حريقاً، فإنّ بعض النظرات الملتهبة تفضح غراميّات بأن تجعلها تنعكس فيها فقط. إنّها نيران تنعكس على المرآة. ولكن هناك أيضاً أشخاص لا مبالون وجذلون لهم أحياناً عيون واسعة وداكنة ولهم أحزان، كما لو كان هناك مصفاة بين روحهم وعيونهم، وكما لو «مرّرتْ»، إن صحّ القول، كلّ كنه روحهم الحيّ إلى أعينهم. وعندما تشتعل روحهم فقط بأنانيتهم المضطرمة- أي بتلك الأنانية المضطرمة اللّطيفة التي تجذب الآخرين مثلما يُقصيها الهوى الملتهب- لن تصبح روحهم المتخشّبة من بعد إلّا قصراً مصطنعاً تحاك فيه الدسائس. ولكن أعينهم المتقدة دائماً بالحبّ الذي يسقيه ندى اللّواعج ويصقلها ويجعلها تطفو ويغرقها دون التمكن من إطفائها، ستُدهش العالم بإشتعالها المأساوي. ولأنّها عبارة عن فضاءات متوأمَة استقلّت عن روحها، وعن فضاءات من الحبّ، وعن كواكب تدور مشتعلة في فلك عالم قد خمد إلى الأبد، فإنّها ستستمر حتّى مماتها في إطلاق بريق غريب

(1) يرى فيليب كولب أنّ في هذا النص إشارة جديدة إلى السيدة ستروس Strauss، مثلما ورد في مراسلات بروست.

ومخيِّب وناكث للعهد أيضاً، وفي الوعد بحب لن يستطيع القلب أن يحترمه.

16
الغريب

كان دومينيك جالساً قرب النار الخامدة ينتظر مدعوّيه. وكلّ مساء درجَ على دعوة سيّد ذي شأن ليتناول عنده طعام العشاء مع بعض من ينتمون إلى الطبقة الراقية، وبما أنّه كان أصيل المحتد وغنياً وظريفاً، لم يكن هؤلاء يتركونه وحده. لم تكن الفوانيس قد أُشعلت بعد، وراح ضوء النهار يضمحلّ حزيناً في الغرفة. وفجأةً سمع صوتاً يناديه، صوتاً قصيّاً وحميماً يناديه: «دومينيك»، وما إن سمع اسمه نائياً ودانياً «دومينيك» حتّى جمد من الخوف. لم يكن قد سمع قطّ هذا الصوت، مع أنّه تبيّنه تماماً، لقد تعرّف ندمُه الجمّ تماماً على صوت ضحية، ضحية نبيلة تمّ ذبحها. بحث عن جريمة قديمة كان قد ارتكبها ولكنّه لم يتذكّر. غير أنّ نبرة هذا الصوت كانت تؤنّبه على جريمة؛ جريمة ارتكبها على الأرجح دون أن يعي، مع أنّه مسؤول عنها، وهذا ما كان ينمّ عنه حزنه وخوفه. فرفع عينيه ورأى أمامه شخصاً غريباً رزيناً ومألوفاً ذا هيئة مبهمة الملامح وآسرة. فحيّا دومينيك ببضع كلمات مهذّبة ذلك الشخص الذي بدت سُلطتُه مؤكَّدة ومشوبة بالحزن.

– يا دومينيك، هل أكون الشخص الوحيد الذي لن تدعوه للعشاء؟ عليك أن تعوّضني عن إساءات سببتَها لي في الماضي. ثمّ سأعلّمك كيف تتخلّص من باقي المدعوّين، الذين لن يلبّوا دعوتك عندما تتقدّم في

السنّ.

- أدعوك إلى العشاء، أجاب دومينيك برزانةٍ ودودةٍ لم يألفها.

- شكراً، قال الغريب.

لم يكن منقوشاً على فصّ خاتمه أيّ تاج، ولم يقبض الفكر بعدُ على فحوى كلماته، ولكنّ سعادة غير مألوفة أفعمت دومينيك ما إن تعرّفَ على نظرته الأخويّة والحادّة.

«- ولكن إنْ شئتَ أن تُبقيني عندك، يجب أن تصرف مدعوّيكَ الآخرين.»

وسمعهم دومينيك يقرعون الباب. ولم تكن الفوانيس قد أُشعلت، وخيّم اللّيل بسدوله.

- لا أستطيع أن أصرفهم، أجاب دومينيك، لا أستطيع أن أكون وحدي.

- نعم معي ستكون وحدك فعلاً، قال الغريب بحزن. ولكن عليك أن تبقيني عندك. لقد آذيتني في الماضي، وعليك أن تعوِّض. أحبّك أكثر من هؤلاء جميعاً وسأعلّمك كيف تستغني عنهم، هم الذين، عندما ستشيخ، لن يأتوا.

- لا أستطيع، قال دومينيك.

وشعر بأنّه لتوّه قد ضحى بسعادة سامية، انصياعاً لعادة عاتية وسخيفة لم تعد تقدم حتّى مُتَعاً مقابل طاعته.

- اخترْ سريعاً، أردف الغريب مناشداً ومترفعاً. ذهب دومينيك ليفتح الباب للمدعوين، وفي الوقت نفسه سأل الغريبَ دون أن يجرؤ على الالتفات:

- من أنتَ إذن؟

فقال له الغريب الذي راح يختفي:

- العادة التي لها تضحّي بي هذا المساء أيضاً ستكون أكثر قوّة غداً بدم الجرح الذي تُحدثه فيّ كي تغذّيها. ولأنّك رضختَ لها مرّة أخرى. فستصرفك عني كلّ يوم وتُرغمكَ على إيلامي أكثر فأكثر. قريباً ستقتلني. لن تراني البتّة من بعد. ولكنّك مدين لي أكثر من الآخرين الذين عمّا قريب سيتخلون عنك. إنّني فيك ومع ذلك إنّني بعيد عنك إلى الأبد، ومن الآن كأنّني لم أعد موجوداً. إنّني روحك، إنّني أنت.

دخل المدعوّون، وانتقل الجميع إلى غرفة الطعام، وأراد دومينيك أن يروي محادثته مع الزائر الذي اختفى، ولكن أمام ملل الحاضرين والتعب الواضح الذي بدا على صاحب البيت جرّاء سعيه إلى استذكار حلم شبه منطمس قاطعه جيرولامو بعد أن نال موافقة الجميع بما فيها موافقة دومينيك نفسه، واستخلص النتيجة التالية:

- يجب ألّا يبقى المرء وحده قط، الوحدة تسبّب الكآبة.

ثم عادوا يشربون؛ وكان دومينيك يتكلّم بجذل ولكن دون فرح حقيقيّ، متباهياً رغمَ كلّ شيء بذلك الحضور المرموق.

17
حلم

«دموعك كانت تسيل من أجلي،
وشفتايَ شربتا دموعك»
(أناتول فرانس[1])

ما عليّ أن أبذل أيّ جهد لأتذكّر ما كان رأيي يومَ السبت منذ أربعة أيّام في السيّدة دوروتي B... لقد شاءت الصدفة أن ورد ذكرها في ذلك اليوم، وكنت صادقاً عندما قلت إنّني أجدها دون جمال ودون عقل. أظنّ أن عمرها هو إمّا اثنان وعشرون عاماً أو ثلاثة وعشرون. علاوة على ذلك لا أعرفها إلّا قليلاً، وعندما كنتُ أفكر فيها، لم تسترعِ انتباهي أيّة ذكرى، كان أمام ناظريّ فقط رسائل تحمل اسمها.

نمت يوم السبت مبكّراً. ولكنّني حوالى الساعة الثانية، بعد أن اشتدّت الريح، اضطررتُ إلى النهوض من نومي لأغلق درفة نافذة غير محكمة الإغلاق قد أيقظتني. وعلى فترة النوم القصيرة التي قضيتُها، ألقيتُ نظرة استعادية وسررت بأنّ نومي قد أعاد لي قواي، دون انزعاج أو أحلام. وما إن أويتُ الى سريري من جديد حتّى عاودني النوم. ولكن بعد فترة يصعب تحديدها، استيقظتُ شيئاً فشيئاً أو بالأحرى صحوت شيئاً فشيئاً على عالم الأحلام، المشوَّش في البداية شأنه شأن العالم الواقعيّ لدى استفاقة عاديّة، ولكنّه سرعان ما توضّح. كنت أستريح فوق شاطئ، تروفيل، وكان ثمة أرجوحة نوم في بستان لم أكن أعرفه، وكانت امرأة

(1) الأعراس الكورنثية (1876).

تنظر إليّ بنعومة ثابتة. كانت السيّدة دوروتي B... لم أُفاجأ بها كما لا أُفاجأ لدى استيقاظي في الصباح متعرّفاً على غرفتي. ولم أفاجأ أكثر بالسحر الخارق لرفيقتي وبنشوات الانخطاف الجسديّ والروحيّ الذي سبّبه لي حضورُها. تبادلنا نظرة رضى، وحدثت وقتئذٍ معجزة كبرى طافحة بالسعادة والمجد كنا ندركه، كانت فيه متواطئة وكنت ممتنّاً لها جدّاً بسبب هذا التواطؤ. ولكنّها قالت لي:

- أنتَ مجنون لأنّك تشكرني، ألن تفعل الشيء نفسه من أجلي؟

وانطباعي (وكان هذا يقيناً لا تشوبه شائبة) بأنّني سأفعل الشيء ذاته من أجلها سما بفرحي إلى النشوة كما لو كان الرمز المبين لاتحادنا الوثيق الرسوخ. بإصبعها قامت بإشارة مبهمة وابتسمت. وعرفتُ، كما لو أنّني كنتُ فيها وفيّ معاً، أن ذلك يعني: «جميع أعدائك، وجميع أوجاعك، وجميع نداماتك، وجميع أوهانك، هذا كلّه ألم يصبح هباءً منثوراً؟» ودون أن أنبس ببنت شفة سمعتْني أجيب أنّها بيسر كبير انتصرت، ودمرت كلّ شيء، وجذبت ألمي بلذة ما بعدها لذة. واقتربتْ وراحت يداها تداعبان عنقي وتمسّدان شاربيّ بهدوء. ثمّ قالت لي: «الآن لنذهبْ إلى الآخرين، ولندخلْ في الحياة». واكتنفني سرورٌ ما بعده سرور وشعرت بقوة تدفعني إلى تحقيق كلّ هذه السعادة المكنونة. أرادت أن تقدم لي زهرة، فسحبتْ من بين ثدييها وردة متفتحة صفراء وندية وعلّقتها في عُروتي. وفجأةً أحسستُ بنشوة فاقمتها متعةٌ جديدة. كانت الزهرة التي علّقتْها في عروتي قد طفقت تبعث في منخريّ عطرها العشقيّ. ورأيت أنّ فرحي راح يغشى دوروتيه بانفعال لا أستطيع فهمه. وبالضبط عندما شعرتْ عيناها (بالوعي الغامض الذي كوّنتُه عن شخصيّتها، وأنا متأكّد من ذلك) بالانقباض الخفيف الذي يسبق البكاء بلحظة، امتلأت عيناي

بالدّموع، بدموعها هيَ، قد أستطيع قول ذلك. فاقتربتْ ووضعت رأسها المائل على أعلى خدّي فاستطعتُ أن أتأمل جمالها السرّي وحيويتها الآسرة، ومدّت لسانها من فمها النديّ وطفقت مبتسمةً تجمع به جميع العبرات المنهمرة من موقَي عينيّ. ثمّ ابتلعتها وأصدرت شفتاها صوتاً طفيفاً أحسست أنّه صوت قبلة هائمة زادت من اضطرابي أكثر مما لو قبّلتني مباشرة. استيقظتُ من نومي فجأةً فاكتشفتُ أنّني في غرفتي، وكما الرعد في عاصفة وشيكة يعقب البرق فوراً، تبدّت ذكرى سعادة مدوِّخة تماهت مع اليقين الصاعق لكذب هذه السعادة واستحالتها أكثر ممّا سبقته. ولكن، على الرغم من جميع التخمينات، لم تعد دوروتي B... بالنسبة لي المرأةَ التي كانَتْها قبل يوم. والأخدود الصغير الذي تركتْه بعض العلاقات التي أقمتُها معها كان قد امّحى من ذاكرتي تقريباً كمدّ بحريّ عاتٍ خلَّف وراءه عند انحساره علائمَ مجهولة. امتلكتني رغبة هائلة متحرّرة مسبقاً من الأوهام، في أن أراها من جديد، واستحوذت عليَّ حاجة غريزية واحتراس حصيف من أن أكتب لها. وعندما سمعتُ اسمها في أحد الأحاديث، جعلني أقشعرّ وأثار مع ذلك الصورةَ التافهة التي بها ارتبط اسمها قبل تلك اللّيلة، وعندما كنت أرى أنّها لا تمثّل لي شيئاً كأيّة امرأة سخيفة في العالم، كانت تجذبني دون أن أبدي أيّة مقاومة، أكثر من أغلى الخليلات، وأكثر من قبضة القدر المُسْكرة. ما كنتُ لأخطو خطوة لأراها، ولكنْ لأرى تلك الدرورتيه الأخرى، كنت مستعدّاً لأنّ أهبها حياتي مقابل ذلك. كلُّ ساعة كانت تمحو قليلاً ذكرى الحلم الذي كان من قبلُ قد تَشَوّه كثيراً في هذه القصة. بتُّ أميّزه أقلّ فأقلّ ككتابٍ نريد متابعة قراءته على طاولتنا عندما ينقشع النهار فلا يضيئه من بعد عندما يخيّم اللّيل. ولكي أتبيّنه قليلاً، أراني مضطراً إلى الكف

عن التفكير فيه لبضع لحظات، كما يُضطر القارئ إلى إغماض عينيه أولاً ليقرأ بضعة حروف في الكتاب المغمور بالظلمة. وعلى كونه انطمسَ، فهو يترك فيّ أيضاً اضطراباً كبيراً؛ يترك آثار مساره أو لذة عطره. ولكن هذا الاضطراب سيتبدّد، وسأرى السيّدة B... دون انفعال. ما جدوى أن أكلمها عن هذه الأشياء التي بقيتْ هي عنها غريبة؟

واحسرتاه! لقد مر الحبّ في دياري كهذا الحلم، مرّ بتحوّل قويّ وغامض في آن. وأنتم الذين تعرفون تلك التي أحبّها، أنتم الذين كنتم خارج حلمي، لا تستطيعون أن تفهموني، فلا تحاولوا أن تُسْدوا لي النصيحة.

18

لوحات لنوع من أنواع الذكرى

عندنا بعض الذكريات التي هي بمثابة الرسم الهولندي لذاكرتنا، أي أنّها تشبه تلك اللّوحات التي غالباً ما يكون وضعُ شخوصها متردّياً، وصُوّروا في فترة بسيطة جدّاً من أعمارهم، ودون أحداث خاصّة، وأحياناً دون أيّ حدث إطلاقاً، وفي إطار غير استثنائيّ ودون عظمة. والجميل فيها هو طبيعيّة السمات وبراءة المشاهد، ويخلق البعد بينها وبيننا ضياءً عذباً يملأها بالبهاء.

وأثناء خدمتي العسكرية[1]، امتلأت حياتي بهذا النوع من المشاهد التي عشتُها على نحو طبيعيّ، دون فرح فيّاض ودون حزن كبير، والتي

(1) لقد أكمل بروست خدمته العسكرية في مدينة أورليان في 14 نوفمبر 1890. وهنا في هذا النصّ يقارن بين حياة الثكنة والتصوير الفلامندي. وهذا ما سيتوسّع به في الجزء الثالث من البحث عن الزمن المفقود، المعنوَن ناحية آل غيرمان.

يطيب لي جدّاً أن أتذكّرها. الطابع الريفيّ للأماكن، وبساطة بعض رفاقي الفلّاحين الذين بقيت أجسامهم أكثر جمالاً وأكثر رشاقة، وأذهانهم أكثر ابتكاراً، وقلوبهم أكثر عفوية، وطباعهم أكثر طبيعيّة من طباع الشبّان الذين خالطتُهم في الماضي وسأخالطهم لاحقاً، وهدوء حياةٍ كانت المشاغل فيها أكثر ترتيباً والخيال أقلّ خنوعاً ممّا في أيّة حياة أخرى، وفيها كانت البهجة ترافقنا دائماً بحيث لا نجد البتّة الوقت للهرب منها فيما نحن نسعى إليها، يُسهم كلّ هذا في أن يجعل اليومَ تلك المرحلة من حياتي كمجموعة- ولو متقطّعة والحقّ يقال- من لوحات صغيرة طافحة بحقيقة رغيدة وبسحر آسر سربلهما الزمن بحزنه الرقيق وبشِعره.

19

ريح بحريّة في الريف

«سأجلب لك عود خشخاش ذا بتلات قرمزية»

(ثيوكريتوس، **السيكلوب**)

في الحديقة، وفي الأجمة الصغيرة، تُبدي الريح عزيمة مجنونة ولا طائل فيها لتبديد رشقات الشمس ومطاردتها محرِّكةً بسخطٍ أغصانَ الدغل التي انقضّت عليها أولاً، ووصولاً إلى الغاب المشرق الذي ترتعش فيه الآن وتختلج كلّها. فالأشجار، والغسيل المنشور ليجفّ، وذيل الطاووس المنهَك، تقتطع في الهواء الشفاف ظلالاً زرقاء واضحة بجلاء تطير في كلّ مهبّ دون أن تبارح مكانها، كطائرة ورقية أطلقت بشكل سيّء. وهذا المزيج من هواء ونور يجعل هذه البقعة من منطقة شامباني

Champagne تشبه منظراً لشاطئ البحر. بعد وصولنا إلى أعلى هذا الدرب الذي اشتعل بالنور وهيّجته الريح فصعد إلى كبد الشمس نحو سماء عارية، أليس البحر هو الذي سنلمحه مبيضّاً بالشمس والزبَد؟ كما في كلّ صباح، أتيتِ ويداك مليئتان بالزهور وبالريش اللّطيف الذي تركه الحمام البريّ والسنونو والزرياب يسقط في الممرّ. الريشات ترتجف فوق قبّعتي، والخشخاش يفقد بتلاته في عروقي، فلنرجعْ بسرعة.

المنزل يصرخ تحت وقع الريح كمركب، نسمع أشرعة غير مرئية تنتفخ، وأعلاماً غير مرئية تصفق في الخارج. في حضنكِ حافظي على باقة الورد هذه ودعي قلبي يبكي بين يديك المطبقتين.

20
اللّؤلؤ

عُدتُ في الصباح ونمتُ مقروراً، مرتجفاً من هذيان كئيب ومتجمّد. بعد قليلٍ، في غرفتكِ، كان أصدقاؤكِ أصدقاءُ البارحة، ومشاريعكِ للغد- كلّ هؤلاء الأعداء، هذه المؤامرات التي تحاك ضدّي- وأفكاركِ الرّاهنة- كلّ هذه المسافات المبهمة التي يستحيل قطعُها- هذا كلّه كان يفصلك عنّي. وبعد أن ابتعدتُ عنكِ، صار هذا الحضور الناقص، هذا القناع الهارب للغياب الأبديّ الذي تميطه القُبلُ بسرعة فائقة، يكفي- كما يبدو لي- ليُظهر لي وجهك الحقيقيّ، وليحقّق تطلّعات قلبي. كان عليّ أن أرحل؛ كم أنا حزين ومتجمِّد بعيداً عنك! ولكن بأيّ سِحر مفاجئ تعود الأحلام المألوفة لسعادتنا لتصعد، كما لو كانت دخاناً كثيفاً يعلو فوق لهيب نار متّقدة ومحرقة، تعود لتصعد بهيجة ومديدة في رأسي؟ في

يدي التي تدفّأت تحت الأغطية، استيقظتْ سجائر الورد التي جعلتِني أدخّنها. وفمي ملتصق بيدي، أستنشق طويلاً الشذى الذي، في حرارة الذكرى، يبعث نفثات كثيفة من الحنان والسعادة و«منكِ». آه! يا حبيبتي الصغيرة، في الوقت الذي أستطيع فيه أن أستغنيَ عنك، وفيه أسبح جذلان في ذكراكِ- التي الآن تملأ غرفتي- دون أن أحتاج إلى معاركة جسدك الذي لا يُقهر، أقول لكِ بصورة لا معقولة، أقول لك بصورة لا تقاوَم، لا أستطيع أن أعيش دونكِ. فحضورك يمنح حياتي ذلك اللّون الناعم والكئيب والدافئ كما يحدث للآلئ التي تُمضي الليلة على جسدكِ. على غرارها، أعيش وأتّسق حزيناً مع حرارتكِ، وعلى غرارها، إن لم تحتفظي بي عليك أموت.

21

شواطئ النسيان[1]

«يقال إنّ الموت يجمّل أولئك الذين يضربهم، وإنّه يضخّم سجاياهم، ولكن يجدر القول بعامّة إنّ الحياة هي التي ألحقت بهم الضرر. الموت، هذا الشاهد الورِع والذي لا عيب فيه يُعْلمنا، طبقاً للحقيقة وطبقاً لروح الإحسان، أنّ كلّ إنسان ينطوي على الخير أكثر ممّا على الشرّ.» ما يقوله ميشليه Michelet هنا عن الموت يصحّ أكثر على ذلك الموت الذي يعقب حبّاً كبيراً تعيساً. فالشخص الذي نكّل بِنا لم يعد يمثّل لنا شيئاً، فهل يكفي أن نقول، حسب التعبير الشعبيّ، إنّه «مات بالنسبة إلينا»؟ الموتى

(1) استشهاد مأخوذ من كتاب تاريخ فرنسا (الجزء الثامن، الفصل الأول) الذي فيه يدرس المؤرخ ميشليه كيف مات لويس دورليان.

نَبكيهم ونبقى على حبّهم، ولأمد طويل لا نقاوم الجاذبيّة الساحرة التي تخلْفهم والتي تدفعنا غالباً إلى زيارة قبورهم. وعلى العكس، الشخص الذي برّحنا أيّما تبريح والذي خبرْنا حقيقتَه حتّى الشبَع، لن يستطيع الآن أن يصيبنا بأيّة مشقة أو أيّ فرح. إنّه أكثر من ميت بالنسبة إلينا. فبعد أن اعتبرناه الشيء النفيس الوحيد في هذا العالم، وبعد أن لعنّاه، وبعد أن احتقرناه، يستحيل علينا أن نحكم عليه، لأنّ ملامحه تكاد تكون غير واضحة المعالم في نظر استذكارنا، بعد أن خارت قوانا طويلاً ونحن نحدّق فيها. ولكنّ هذا الحُكم على الشخص المحبوب، هذا الحُكم الذي تغيّر كثيراً، فبرّحنا بتبصّره، وعذّب قلبنا الأعمى تارةً، وطوراً اختار هو نفسه العمى ليضع حدّاً لهذا الخلاف المرير، عليه أن يقوم بترجيحةٍ أخيرة. فكما نكتشف بعض المناظر فقط عندما نُطلّ من القمم، فمن ذرى المغفرة يظهر - بقيمته الحقيقية - ذلك الشخص الذي اعتبرناه ميتاً وأكثر من ميت بعد أن كان يمثّل حياتنا بالذات. كنّا نعلم فقط أنّه لم يكن يمحضنا حبّاً مماثلاً لحبّنا له، ونفهم الآن أنّه كان يكنّ لنا صداقة حقيقية. ليست الذكرى هي التي تجمّله، بل إن الحبّ هو الذي كان يلحق به الضرر. بالنسبة لذاك الذي يريد كلّ شيء، والذي لا يكفيه هذا الكلّ إن هو حصل عليه، لا يبدو نيل القليل سوى وحشيّة غير معقولة. والآن نفهم أنّ ذلك كان هِبة كريمة من تلك التي لم تتثبّط عزيمتُها بسبب يأسنا وتهكّمنا وطغياننا المستمرّ. لقد كانت دائماً رقيقة. الأحاديث العديدة المنقولة اليوم تبدو لنا صحيحة ومسامِحة ومليئة بالسِّحر، أحاديث عديدة لها هي التي كنّا نحسبها عاجزة عن أن تفهمنا لأنّها لم تكن تحبّنا. أمّا نحن فعلى العكس تكلّمنا عنها بكثير من الأنانية الظالمة والقاسية. ألا ندين لها بالكثير الكثير؟ إذا كان هذا المدّ الكبير للحبّ قد انحسر إلى الأبد، فإنّنا،

أثناء تجوّلنا في ذاتنا، نستطيع التقاط قواقع غريبة ورائعة، وعندما ندنيها من آذاننا نسمع ببهجةٍ حزينةٍ ضجيجَ الأيّام الخوالي الرحب. عندئذٍ نفكر برقّة في تلك التي شاءت تعاستُنا أن تكون معشوقة أكثر ممّا عَشِقتْ. لم تعد في نظرنا «أكثر من ميتة»، بل ميتة نتذكّرها بحنان. يقضي العدل بأن نصحّح الفكرة التي كوّنّاها عنها. وبقدرة العدل الكليّة، تنبعث روحها من الموت في قلوبنا، كي تَمْثُل في تلك الدينونة الأخيرة التي نقيمها بعيداً عنها، تمْثُلَ بمنتهى الهدوء، وبعينَين مترعتين بالدموع.

22
حضور حقيقيّ[1]

تحاببنا في قرية ضائعة في منطقة إنغادين Engadine السويسرية ذات الاسم اللّطيف مرّتين: ذلك أنّ حلم النبرات الألمانية يذوب فيها في لذّة المقاطع الإيطالية. وحولها تظهر ثلاث بحيرات بخضرتها الفائقة وتستحمّ بمائها غاباتٌ من الصنوبر. ثمة مَثْلَجات وقمم تسدّ الأفق. وفي المساء يضاعف تنوعُّ المستويات حلاوةَ المصابيح المُنارة. هل ننسى النزهات التي قمنا بها على ضفة بحيرة سيلس ماريا Sils–Maria، عندما كان الأصيل يتبدّد حوالى الساعة السادسة؟ الأرزيّات التي بسكينتها السوداء عندما تحاذي الثلج المبهر كانت تمدّ نحو الماء الأزرق الفاتح، الماء البنفسجيّ تقريباً، أغصانَها الخضراء الرّخص اللّامعة. ذات مساء، ناسبتنا ساعة على نحو خاصّ؛ خلال لحظات، جعلت الشمسُ الغاربة الماءَ يمرّ بجميع التدرّجات اللّونية، وجعلت روحَنا تتذوّق جميع اللّذات.

(1) يحيل هذا النصّ إلى الشعائر الدينية المسيحية وإلى سرّ القربان الأقدس.

ثمّ قمنا بحركة، إذ رأينا لتوّنا فراشة صغيرة وردية اللّون، ثمّ فراشتَين ثمّ خمساً تغادر أزهار ضفتنا وتطير فوق البحيرة. وسرعان ما بدت كغبار دقيق من الورد المتنقل، ثمّ حطّت على أزهار الضفة الأخرى وكرّرت عبورها المغامر، متوقّفةً أحياناً كالمجتذَبة فوق تلك البحيرة الناعمة كما لو كانت زهرة كبيرة بدأت تذوي. لقد طفح الكيل، واغرورقت الدموع في أعيننا. هذه الفراشات الصغيرة عند اجتيازها البحيرة، كانت تمرّ ثمّ تمرّ فوق روحَينا المشدوهتَين أمام تلك الجمالات الجمّة، روحينا الجاهزتَين للارتعاش- كانت تمرّ ثمّ تمرّ كقوس كمان منتشٍ. كانت حركة طيرانها الرشيقة لا تلامس الماء بل تدغدغ أعيننا وقلبينا، ونكاد لكلّ خفقة من خفقات أجنحتها الوردية الصغيرة ننهار. وعندما رأيناها تعود من الضفة الأخرى وتبيّن لنا أنّها تمرح هكذا وتتجول بِحُريّة فوق الماء، شعرنا بمقطوعة موسيقية رائعة تُعزَف لنا؛ بيد أنّ الفراشات كانت تعود بهدوء وتقوم بألف تعريجة نزِقة وتخلق تنويعات في المقطوعة البدئية وترسم لحناً ذا مزاجيّة ساحرة. كانت حياتنا التي أصبحت صوتية تستمع في طيران الفراشات الصامت إلى موسيقى عابقة بالسحر والحريّة، وجميع الألحان الشجية والكثيفة للبحيرة وللغابات والسماء ولحياتنا، جميع الألحان صاحبتْها برقّة سحرية جعلتنا نجهش بالبكاء.

لم أكلّمكِ من قبل، لا بل كنتِ بعيدة عن ناظريّ خلال تلك السنة. ولكنّنا تحاببنا وقتها في إنغادين! لم أكن أملّ منكِ قطّ، ولم أكن أتركك في البيت قطّ. كنتِ تصحبينني في نزهاتي، وتأكلين على مائدتي، وتنامين في سريري، وتحلمين في روحي. وذات يوم- أيُعقل أنّ غريزة واثقة، كمثْلِ رسول مبهم، لم تحذّركِ من أفعالِ الطيش تلك، التي انخرطتِ فيها بقوّة بحيثِ عشتِ، نعمْ عشتِ حقّاً، لفرطِ ما كان لك فيّ من «حضور

حقيقيّ»؟ -، أقول ذات يوم (ولم يكن أيّ منا قد زار إيطاليا من قبل)، بقينا منبهرَين بتلك الكلمة التي قيلت لنا في ألبغرون Alpgrun: «من هنا يمكن الرؤية حتّى إيطاليا». فذهبنا إلى ألبغرون، متصوّرين، في المشهد الفسيح أمام القمّة حيث تبدأ إيطاليا، أنّ المنظر الحقيقيّ والقاسي سيتوقّف فجأةً وأنّ وادياً أزرق كلّه سينفتح في قاع حلم. في الطريق، تذكّرنا أن الحدود لا تغيّر طبيعة التربة وأنّها لو تغيّرت لكان ذلك طفيفاً بحيث نتمكّن من ملاحظته فجأةً. شاعرَين بخيبة صغيرة ضحكنا لأنّنا كنّا منذ قليل كطفلين صغيرين جدّاً.

ولكنّنا عندما بلغنا القمة، بقينا منبهرين. كان خيالنا الطفليّ قد تحقّق أمام أعيننا. أمامنا كانت تتلألأ المَجْمدات. وتحت أقدامنا كانت السيول تحدّد منطقة إنغادين الموحشة وتضفي عليها لوناً أخضر داكناً. ثمّ ارتفعت تلّة غامضة قليلاً، وبعدها انفغرت جروف بنفسجية اللّون وسدّت بالتناوب منطقةً زرقاء حقيقية هي كناية عن درب عريض متلألئ يتّجه نحو إيطاليا. واختلفت الأسماء، وتناغمت فوراً مع هذه الروعة الجديدة. دلّونا على بحيرة بوسكيافو Poschiavo وعلى بيتسو ده فيروني Pizzo de Verone وعلى وادي فيولا Viola. ثمّ ذهبنا إلى مكان موحش ومنعزل تماماً حيث لوعة الطبيعة وتأكدنا من أنّها عصية على الجميع ومن أنّها غير مرئية ولا تُقهر، قد زادتا حتّى الهذيان من نشوة الوصال هنا. وشعرتُ عندئذٍ في أعماقي فعلاً بالحزن من أنّك لم تكوني معي تحت إهابك الحقيقيّ، المختلف عمّا تحت ثوب ندمي، وفي واقع رغبتي. ونزلت قليلاً إلى مكان ما زال مرتفعاً يقصده المسافرون ليستمتعوا بالمنظر. وفي نَزْل منعزل ثمّة كتاب يكتبون فيه أسماءهم، فكتبتُ اسمي وقربه كتبتُ مجموعة من الحروف تشير إليك، لأنّه استحال عليّ عندئذٍ ألّا أقدّم لنفسي إثباتاً ماديّاً

عن حقيقة جوارِكِ الروحيّ. وبوضعي شيئاً منكِ فوق هذا الكتاب، بدا لي أنّني أتخفّف فعلاً من العبء الهوسيّ الذي كنت به تخنقين روحي. ثمّ حداني أمل كبير بأن آخذك ذات يوم لتقرأي ذلك السطر الذي كتبتُه؛ ثمّ لتصعدي معي إلى الأعلى كي أنتقم من كلّ هذا الأسى. ودون أن يكون لي شيء أقوله لكِ، تكونين قد فهمتِ كلّ شيء، أو بالأحرى تكونين قد تذكّرتِ كلّ شيء؛ وتستسلمين وأنت صاعدة وتتّكئين عليّ كي تشعريني هذه المرّة بأنّكِ هنا فعلاً؛ وأنا، بين شفتيكِ اللّتين تحتفظان بعطر خفيف من سجائر الأوريان التي تدخّنينها، سأنسى كلّ شيء تماماً. سنرفع الصوت عالياً بكلمات مجنونة كي نختفي بصراخنا دون أن يتمكّن أحد في البعيد من أن يسمعنا؛ وحدها الأعشاب القصيرة سترتعش لهبوب هواء الأعالي عليها. الصعود سيبطئ خطواتكِ ويجعلك تلهثين، فيقترب وجهي لأشعر بأنفاسك: سنكون مجنونَين. سنذهب إلى حيث توجد بحيرة بيضاء قرب بحيرة داكنة ناعمة، كأنّهما لؤلؤة بيضاء قرب لؤلؤة سوداء. يا لروعة أن نتحابّ في قرية تائهة في مقاطعة إنغادين! لن نترك أحداً يقترب منا سوى أدلاّء الجبال، فهؤلاء الرجال الطوال القامة لهم عيون تعكس شيئاً آخر لا تعكسه عيون باقي البشر، فيظنّ المرء أنّهم جُبلوا من طينة أخرى. ولكنّني لن أكترث بكِ من بعد. أتى الإشباع قبل الامتلاك. وللحبّ الأفلاطونيّ إشباعاته هو أيضاً. لن آخذك من جديدٍ إلى تلك المنطقة التي - دون أن تفهميها وحتّى دون أن تعرفيها - ذكرتِها لي بوفاء موثِّر. لرؤيتك في نظري رونق واحد: هو أنّكِ ذكّرتِني فجأةً بأسماء ذات حلاوة غريبة، حلاوة ألمانية وإيطالية: سيلس ماريا، سيلفا بلانا، كريستالتا، سامادين، شيليرينا، جولييه، وادي فيولا.

23

غروب شمس داخليّ

كما أنّ الطبيعة لها مَشاهدها، كذلك الذكاء. إنّ شروق الشمس وضوء القمر اللّذين أحدثا فيَّ نشوة تصل إلى البكاء، لم يتجاوزا عندي في رقّة العاطفة الشديدة ذلك الالتهاب الحزين الرحب الذي- أثناء النزهات في نهاية النهار- يلطّف كمّاً من التدفّقات في روحنا كما تفعل الشمس عندما تغيب فوق البحر فتغمره بالضياء. فنحثّ الخطى عندئذٍ متوغّلين في اللّيل. وأكثر من الفارس الذي تذهله وتُسكره السرعة المتنامية لحصانه المعبود، نستسلم نحن مرتجفين من الثقة والفرح للأفكار الصاخبة التي عندما ندرك امتلاكنا وتوجيهنا لها نشعر بأنّها اخترقتنا شيئاً فشيئاً دون مقاومة. وبتأثّر عاطفيّ نجوب الريف الغامض ونحيّي أشجار السنديان المفعمة باللّيل، باعتبارها الحقل الاحتفاليّ والشهود الأبطال على الزخم الذي يدفعنا ويُسكرنا. وعندما نرفع عيوننا نحو السماء، لا نستطيع أن نتعرّف على الانعكاس الغامض لأفكارنا، دون أن تتهلّل نفوسنا، عندما تكون السحب ما زالت متأثّرة بوداع الشمس: فنتوغّل أكثر فأكثر مسرعين في الريف، والكلب الذي يتبعنا، أو الحصان الذي يحملنا، أو الصديق الذي يصمت- وقلّما يحدث هذا عندما لا يرافقنا أيّ كائن حيّ-، أو الزهرةُ التي في عروتنا، أو العكّاز الذي يلوح جذلاً بين أيدينا المحتدِمة، ينال الضريبةَ الكئيبة لهذياننا، يناله نظراتٍ ودموعاً.

24

كما في ضوء القمر

قدِم اللّيل فذهبتُ إلى غرفتي قلقاً من أن أبقى في الظلام دون أن أرى السماء والحقول والبحر تتلألأ تحت أشعة الشمس. وعندما فتحتُ الباب، وجدتُ الغرفة مضاءة كأنّها في ساعة مغيب الشمس. من النافذة رأيت المنزل والحقول والسماء والبحر، أو بدا لي بالأحرى أنّني «أراها ثانيةً» في الحلم؛ كان القمر الرائق يذكّرني بها أكثر ممّا يريني إيّاها، ناشراً على قاماتها بهاءً أصفر لا يقشع الظلمة المتراكمة كالنسيان فوق أشكالها. وقضيتُ ساعات وأنا أنظر في باحة المنزل إلى الذكرى الخرساء والغامضة والمسحورة والشاحبة للأشياء التي، آناء النهار، كانت تسعدني أو تؤلمني، بصرخاتها أو بأصواتها أو بطنينها.

لقد خمد الحبّ، وخفتُ من النسيان عند العتبة؛ ولكنّ جميع أفراحي الماضية وجميع أتراحي التي تتفرّس فيّ وتصمت، كانت بشحوبها قد هدأت قربي وبعيداً عنّي كأنّها فعلاً أمام ضوء القمر. ولكنّ صمتها أثار عاطفتي، بيد أنّ بعادها وشحوبها الحائر أسكراني حزناً وشعراً. ولا أستطيع أن أتوقّف عن النظر في ضوء القمر الداخليّ.

25

نقد الرجاء، على ضوء الحبّ

ما إن تصبح ساعة قادمة في حيّز الحاضر حتّى تتجرّد من كلّ مفاتنها، لتجدها ثانيةً- والحقّ يقال- إذا كان لنا نفْسٌ رحبة ومنتظمة الأبعاد،

عندما نكون قد تركناها وراء ظهرنا، على دروب الذاكرة. وهكذا فإن القرية المفعمة شِعراً، التي هُرع عذو آمالنا اللّاهفة وأفراسنا المتعَبة نحوها تنفث من جديد- بعد أن نكون تجاوزنا الأكمة- هذه الاتّساقات المبطّنة التي أسهم ابتذال شوارعها، وانتثار بيوتها المتراصّة والذائبة في الأفق، وانقشاع الضباب الأزرق الذي بدا وكأنّه يخترقها، أسهم في نكث وعودها المبهمة. وعلى غرار الخيميائيّ الذي يعزو كلّ ضروب فشله إلى سبب عارض ومختلف كلّ مرة، والذي لا يعير بالاً للنقص المزمن في جوهر الحاضر بالذات، على غراره نتّهم سوء الظروف الخاصة، وأعباء هذا الوضع المحسود أو ذاك، والطبع السيّئ لهذه الخليلة المشتهاة أو تلك، والاستعدادات السيئة لصحّتنا في يوم كان من المفترض فيه أن يكون يوم بهجة، وسوء الطقس، والفنادق السيّئة أثناء السفر، نتّهمها بأنّها أفسدت سعادتنا. ولتأكّدنا من أنّنا ستتوصّل إلى إلغاء هذه الأسباب المدمِّرة لكلّ متعة، نلوذ بمستقبل منشود، ممتلئين بثقة حَرِدة أحياناً دون أن نفقد الأمل بحلم يتحقّق، أي يخيب.

ولكنّ بعض الأشخاص الحصفاء والمكتئبين الذين يلمعون على ضوء الرجاء أكثر من الآخرين يكتشفون بسرعة وللأسف أنّه لا ينجم عن الساعات المنتظَرة، بل عن قلوبنا التي تفيض بأشعّة لا تعرفها الطبيعة، أشعة تصبّها قلوبنا عليها دون أن تشعل فيها أيّ موقد. لم يعودوا يشعرون بالقدرة على الرغبة في ما يعرفون أنّه عصيّ عليهم، وعلى إرادة الوصول إلى أحلام ستذبل في قلوبهم عندما يريدون التقاطها خارج ذواتهم. وهذا الاستعداد الكئيب يتنامى ويصير مبرَّراً في الحبّ. فعندما يمرّ الخيال مراراً وتكراراً على ضروب الرجاء هذه، فإنّه يشحذ خيباته بامتياز. ولأن الحبّ التعيس يجعل تجربة السعادة مستحيلة، فإنّه

يحول دون أن نكتشف العدمَ فيها. ولكن ما هو الدرس الفلسفيّ، وما هي نصيحة الشيوخ، وما هو إخفاق الطموح الذي يحوّل أفراح الحبّ السعيد إلى كآبة؟ تحبّينني، يا عزيزتي الصغيرة؛ فكيف كنت على هذه الدرجة من الوحشية كي تصرّحي بذلك؟ هذه هي إذن تلك السعادة المتأجّجة في الحبّ المتبادل، التي كان مجرّد التفكير فيها يبعث فيّ الدوارَ ويجعل أسناني تصطك!

إنّني أتلف زهوركِ، وأرفع شَعركِ، وأنتزع حليّكِ، وأصل إلى جسدك، وأطبع قبلاتي عليه كلّه وأضربه بها كما يضرب البحر رمال الشاطئ؛ ولكنّك تُفلتين مني، ومعك أفقد السعادة. يجب أن أغادركِ، أعود وحدي حزيناً حزيناً. وإذ إنّني اتّهم هذه الجائحة الأخيرة، أعود إلى الأبد إليك؛ وهذا هو وهمي الأخير الذي انتزعتُه أنا، يا لتعاستي الأبدية!

لا أعرف كيف امتلكتُ الشجاعة لأقول لكِ ذلك؛ ها هي سعادة حياتي كلّها أرفضها دون هوادة، أو بالأحرى أرفض السلوى، لأنّ عينيك اللّتين كانت ثقتي الرغيدة بهما تُسكرني أحياناً، لن تعكسا من بعد إلّا الانقشاع الحزين للأوهام الذي نبّهتكِ إليه يقظتُك وخيباتُكِ من قبل. ولأنّنا جهَرنا بهذا السرّ الذي كنّا نخفيه أحدنا على الآخر، فقد ماتت السعادة بالنسبة إلينا. ومن ثمّ لم تبقَ لنا حتّى أفراح الرجاء المنزّهة من كلّ غرض. الرجاء هو فعل إيمان. لقد تحرّرنا من وهم تصديقه: لأنّه مات. وبعد أن تخلّينا عن الاستمتاع، لن نقوى من بعد على ابتهاجنا بالأمل. الأمل دون أمل، ولو كان من الحكمة الإقدامُ عليه، هو أمر مستحيل.

ولكن اقتربي منّي، يا صديقتي الصغيرة. إمسحي عينيكِ لتري؛ لا أعرف إنْ كانت الدموع هي التي تجعل بصري كليلاً، ولكنّني أرى هناك،

خلفنا، نيراناً عظيمة تُضرَم. آه! يا صديقتي الصغيرة العزيزة كم أحبّكِ! أعطيني يدك، فلنتقدّمْ نحو تلك النيران الجميلة، دون أن نقترب كثيراً منها... أظنّ أن الذكرى الحليمة والجبّارة هي التي تريد لنا الخير، وهي التي راحت تعمل الكثير لنا، يا عزيزتي[1].

26

نبت الحِراج[2]

لا نخشى شيئاً بل نتعلّم كثيراً من القبيلة الشديدة البأس والمسالمة للأشجار التي تنتج لنا دائماً موادّ منشِّطة وعطوراً مهدّئة ورفقة لطيفة، والتي بينها نُمضي ساعات طويلة نديّة وصامتة ومغلَقة. في أوقات بعد الظهر الحارقة التي فيها يُفلت الضوء الغزير من رؤيتنا، فلنهبطْ إلى تلك «القيعان» النورماندية التي منها تشمخ برشاقةٍ أشجار المرّان العالية والكثيفة التي تزيح أغصانُها الكثيفة ذلك اليمَّ من النور كما لو كانت جرفاً رفيعاً ومقاوِماً في آن، ولا تُبقي منه إلّا على بضع نقاط تخشخش باتّساقٍ في صمت الحِراج الحالك. لا يحظى عقلنا، كما على شاطئ البحر وفي السهول والجبال، ببهجة الانتشار فوق العالم، بل يحظى بسعادة الانفصال عنه؛ ولأنّ الجذوع الجبّارة تحدّه من كلّ جانب، يتوثّب عالياً ويحذو حذو الأشجار. وإذا استلقينا على ظهرنا، ورأسنا يتوسّد الأوراق الجافّة، استطعنا أن نتابع، داخل استِكانتنا العميقة، الرشاقةَ البهيجة لعقلنا الذي يصعد، دون إرعاش الأوراق، إلى الأغصان العالية حيث

(1) يعترف بروست، في رسالة بعث بها إلى فيليب كولب عام 1895، بأنّه لم يراجع هذا النصّ وأنّه أبقاه على حاله، ليكون شاهداً على وضعه النفسيّ وقتئذٍ.

(2) أي الأعشاب والنبتات الصغيرة التي تنمو أسفل الأشجار.

يحطّ على حوافّ السماء الناعمة قرب عصفور يزقزق. هنا وهناك تُرى قطعة صغيرة من الشمس تركد أسفل الأشجار التي تترك أغصانها هناك تبلّل أوراقها القصيّة وتذهّبها بشرود. وكلّ ما يبقى يصمت في سعادة داكنة، منشرحاً ومحدِّقاً. والأشجار السامقة والواقفة، في قربان أغصانها الجزيل، مستريحةً مع ذلك وهادئة، تدعونا بهذا التصرّف الغريب والطبيعيّ، وبهمسات جميلة، إلى أن نتعاطف مع حياة عتيقة وفتيّة في آن، حياة مغايرة لحياتنا التي تكون هي لها بمثابة مخزون غامض لا ينضُب.

وتهبُّ ريح خفيفة وتعكّر للحظةٍ سكونَها المتلألئ والداكن في آن، فترتعش الأشجار قليلاً، وتؤرجح النور المنصبّ على قممها وتحرّك الظلّ أسفلَها[1].

بيتي أوبفيل (دييب)، أغسطس 1895

27
أشجار الكستناء

كان يطيب لي بخاصّة أن أقف تحت أشجار الكستناء الهائلة عندما كان الخريف يلوّح أوراقها. كم من ساعات قضّيتُها في تلك الكهوف الغامضة والمائلة إلى الخضرة وأنا أنظر فوقي إلى شلّالات الذهب الخافت التي كانت تسكب فيها الرطوبةَ والظلمة! كنت أحسد طيور أبي الحنّاء والسناجب لأنّها تسكن تلك المقصورات الخضراء الرقيقة والعميقة القائمة بين الأغصان، وتلك الجنائن القديمة المعلّقة التي يغطي كلُّ ربيع

(1) أقام بروست وصديقه رينالدو هان في بلدة دييب Dieppe عند الرسّامة مادلين لومير حوالى عشرين يوماً في صيف 1895.

أغصانَها بالأزهار البيضاء العطرة، منذ قرنين من الزمان. والأغصان المنحنية قليلاً كانت تهبط بأبّهة من الشجرة نحو الأرض، كأنّها أشجار أخرى زُرِعت رؤوسها فوق الجذوع. وصفرة الأوراق الباقية كانت أيضاً تُبرز الأغصان التي تبدو أكثر متانة وحلكة عندما تتجرّد، وعندما كانت تجتمع مع الجذع كانت أشبه بمشط رائع يجمع الضفيرة الشقراء الناعمة والمنتشرة.

ريفيّون، أكتوبر 1895 [1]

28
البحر

سيَسحر البحر دائماً أولئك الذين سبقَ تقزّزُهم من الحياة وانجذابُهم بالأسرار الأحزانَ الأولى لديهم، كمثْلِ استشعارٍ بقصور الواقع عن إرضائهم. هؤلاء الذين يحتاجون إلى الراحة قبل أن يشعروا بأيّ تعب، سيعزّيهم البحر ويجعلهم إلى حدّ ما يغتبَطون. فهو لا يحمل، كالأرض، آثار أعمال البشر والحياة البشرية. لا شيء فيه يبرح، ولا شيء فيه يمرّ إلّا هارباً، وسرعان ما تتلاشى آثار الزوارق التي تمخُره، ونرى من هنا النقاء الكبير للبحر الذي تفتقر إليه العناصرُ الأرضية. وهذه المياه البكر هي أرقّ من اليابسة القاسية التي لا بد من فأس كي نشقّها. خطو طفل في الماء يحفر فيه أخدوداً عميقاً يُحدث صوتاً واضحاً، وتتكسّر الظلال الموحّدة فيه ولو للحظة؛ ثمّ يتلاشى كلّ أثر، ويعود البحر إلى هدوئه كما في الأيّام

(1) أقام بروست في خريف تلك السنة في قصر ريفيّون الذي كانت تملكه السيدة مادلين لومير. وكان العنوان الأوّل لهذا الكتاب هو قصر ريفيّون، ثمّ أصبح لاحقاً المسرّات والأيّام. و«ريفيّون» Réveillon قرية في منطقة الكلفادوس بفرنسا.

الأولى للخليقة. فالذي يملّ من دروب الأرض والذي يخمّن كم هي وعرة ومبتذلة، قبل أن يسلكها، ستغويه الطرق الباهتة للبحر، الطرق الأخطر والأعذب، الطرق المحيّرة والمقفرة. كلّ شيء في البحر غامض، بما فيه تلك الظلال الكبيرة التي تطفو أحياناً بهدوء على سهوب البحر العارية التي لا منازل فيها ولا أشجار، والتي تنتشر فوقها السحب، تلك الدساكر السماوية، وتلك الفروع المبهمة.

للبحر سحر الأشياء التي لا تسكت آناءَ اللّيل، والتي تمكّن حياتنا القلقة من النوم وتَعِد بأن كلّ شيء لن يتقوّض، كتلك النوّاسة التي توضع في غرف الأولاد الصغار الذين يشعرون بأنّهم ليسوا وحدهم عندما تضاء. لا ينفصل البحر عن السماء كالأرض، وينسجم دائماً مع ألوانه ويندهش من تدرجّاتها الناعمة. يُشرق البحر تحت الشمس ويبدو في كلّ مساء وكأنّه يموت معها. وعندما تغيب، يتحسّر عليها طويلاً ويحتفظ بشيء من ذكراها الساطعة، أمام الأرض التي أرخت العتمةُ سدولَها عليها. ويحين وقت الانعكاسات الاكتئابية والشديدة الرقّة بحيث يشعر المرء بأنّ قلبه ينفطر عندما ينظر إليها. وقُبيل حلول اللّيل، وعندما تدكن السماء فوق الأرض المسودّة، يلتمع البحر قليلاً، دون أن نعلم السرّ في ذلك، يلتمع بذخيرة النهار المشرقة المدفونة تحت العباب.

البحر ينعش خيالنا لأنّه لا يجعلنا نفكر في حياة البشر، بل يُبهج روحنا، لأنّه، على غرارها، توق لا محدود وقاصر وزخم تهشّمه السقطات، وشكوى دائمة ورقيقة. إنّه يسحرنا كالموسيقى، التي لا تحمل أثر الأشياء كاللّغة، ولا تقول لنا شيئاً عن البشر، ولكنّها تقلّد تموّجات روحنا. عندما يتوثّب قلبنا مع أمواج الموسيقى ويتهاوى معها ينسى بالتالي قواه الخائرة،

ويتعزّى بانسجام حميم يراوح بين حزنه وبين حزن البحر، ويمزج بين قدَره وقدَر الأشياء.

سبتمبر 1892 [1]

29
بَحْريّة

الأقوال التي فقدتُ معناها، ينبغي ربّما تحريضي على تكرارها أوّلاً بجميع تلك الأشياء التي شقّت طريقها نحوي مع أنّني أهملتُه منذ سنوات طويلة، ولكنّني أستطيع العودة إليه لأنّه لم يُقطَع نهائياً، وأنا متأكّد من ذلك. يجب العودة إلى النورماندي، دون بذل قصارى الجهد، والذهاب فقط إلى شاطئ البحر. أو أنّ عليّ بالأحرى أن أسلك الطرق المشجّرة التي منها نلمح البحر من وقت لآخر والتي يمزج فيها النسيم رائحة الملح برائحة أوراق الشجر الندية وبأريج الحليب. لن أطلب شيئاً من جميع هذه الأشياء الأصليّة. إنّها سخيّة على الطفل الذي رأته يولد والذي ستعلّمه الكثير من الأشياء المنسيّة. كلّ شيء سيبشّرني بأنّني أدنو من البحر، ويبشّرني بذلك عبيرُه أولاً، حتّى وإن لم أره بعد. سأسمع ربّما صوته الخافت. سأسلك درب أشجار الزعرور الذي عرفته تماماً في الماضي، سأسلكه بمشاعر جيّاشة، سأدلف من مزقة في السياج، متوجّساً من أن ألمح فجأةً ذاك الصديق المتواري والحاضر، ذاك المجنون الذي يتذمّر باستمرار، ذاك المليك العجوز الحزين، البحر. إنّني سأراه، أراه في

(1) لهذا النص وقع بودليريّ واضح المعالم (راجع قصيدته «الإنسان والبحر» في ديوان «أزهار الشر»).

يوم ناعس تحت الشمس الساطعة، وفيه يعكس السماء الزرقاء كزرقته، والتي هي كابية أكثر لا غير. ستكون أشرعة بيضاء كفراشات قد حطّت على الماء الساكنة، ولا تشاء من بعدُ أن تتحرّك، كما لو أُغْشي عليها بسبب الحرّ. وعلى العكس من ذلك، قد يكون البحر هائجاً أصَفر اللّون تحت الشمس كحقل رحب من الطين تظهر فوقه تموّجاتٌ يكلّلها ثلجٌ مبهر، تبدو من بعيدٍ وكأنّها ثابتة.

30
أشرعة في المرفأ

في المرفأ الضيّق والطويل كطريق مائيّ ينساب بين أرصفته القليلة الارتفاع حيث تلتمع أنوار المساء، كان المارّة يتوقّفون ليشاهدوا السفن المتجمّعة فيه، كأنّها أغراب نبلاء قدموا عشية أمس ويستعدّون للمغادرة. أغرابٌ لأنّهم لم يبالوا بالفضول الذي أثاروه عند الجمهور، الذي بدوا وكأنّهم يحتقرون خِسّته أو لا يتكلّمون لغته فحسب، فقد احتفظوا بتأهّبهم للانطلاق، صامتاً وجامداً في النزل الرطب الذي توقّفوا فيه لليلةٍ فقط. ولم تكن جآجئ السفن الصلبة أقلّ إفصاحاً عن الرحلات الطويلة التي بقي على هذه السفن القيامُ بها من الأضرار التي لحقت بها جرّاء الأتعاب التي كانت قد تحمّلتها عبرَ تلك الطرق الزلِقة، القديمة قدمَ العالم والجديدة جدّة ذلك العبور الذي يجوّفها والذي ستتلاشى بعده. ناحلة ومُقاوِمة، كانت موجّهة بزهوّ حزين نحو المحيط الذي تسيطر هي عليه وتضيع فيه ربّما. كان التعقيد الرائع والمدروس لحبال السفن ينعكس في الماء، كعقل ذكيّ دقيق ومتبصّر يغوص في المصير المحيِّر الذي

سيحّطمه عاجلاً أو آجلاً. ولئن كانت سُحِبتْ مؤخّراً من الحياة الرهيبة والجميلة التي ستعود هي إليها قريباً، فإنّ أشرعتها كانت ما تزال رخوة بالهواء الذي نفخها أمس أيضاً، وصواريها كانت ما تزال تنحني على الماء كما انحنى عليه بالأمس مسعاها، وبدت تقويسة هياكلها، من الجؤجؤ إلى الكوثل، وكأنّها تحرس الرونق الغامض والمرِن لمسارها.

نهاية الغَيرة[1]

1

«أعطنا الخيرات التي طلبناها والتي لم نطلبها، وأبعدْ عنّا الشرورَ التي قد نطلبها منك»- «تبدو لي هذه الصلاة جميلة ومؤكّدة. إن وجدتَ فيها شيئاً تصحّحه، فلا تُخْفِ ذلك»

أفلاطون[2]

- يا صديقتي الشجرة، يا حماري الصغير، يا أمّي، يا أخي، يا بلدي، يا إلهي الصغير، يا غريبي الصغير، يا زهرتي الصغيرة زهرة اللوتس، يا قوقعتي الصغيرة، يا حبيبي، يا نبتتي الصغيرة، ارحلْ واتركني أرتدي ثيابي وسألتقيكَ في شارع البوم Baume الساعة الثامنة. أرجوكَ، لا تصل بعد الساعة الثامنة والربع، لأنّني أتضوّر جوعاً.

أرادت أن تغلق باب غرفتها بوجهِ أونوريه، ولكنّه قال لها أيضاً: «العنق!» وفوراً مدّت عنقها باستسلام واستعجال مفرطَين جعلاه يقهقه من الضحك:

(1) كان بروست يحبّ كثيراً هذه القصّة التي راح يسير على خطاها في سباعيّته، وعبّر أكثر من مرّة عن إعجابه بها.

(2) محاورة ألكيبياديس الثانية.

- بين عنقكِ وفمي، قال لها، بين أذنيكِ وشاربيّ، بين يديكِ ويديّ، ثمة، وإن لم تشائي ذلك، وشائج خاصّة. أنا متيقّن من أنّها لن تنتهي لو انتهى حبّنا يوماً، مثلما أنّني، منذ أن اختلفتُ مع بنت عمّي بول Paule، لا أستطيع أن أمنع خادمي من الذهاب كلّ مساء ليتكلّم مع وصيفتها. إنّ فمي وحده ودون موافقة منّي يتحرّك نحو عنقكِ.

صارا على مسافة خطوة واحدة أحدهما من الآخر. وفجأةً نظر كلّ منهما في عيني الآخر وحاول أن يغرِس في عينيه الفكرة التي تقول إنّهما متحابّان؛ بقيتْ لحظة هكذا واقفة ثمّ سقطت فوق كرسيّ وهي تختنق، لما لو ركضتْ. وقالا أحدهما للآخر في الوقت نفسه تقريباً وبحماس حقيقيّ، ولفظا قوياً بشفاههما، كأنّهما يقبّلان، كلمة:

- يا حبّي!

وكرّرتْ هي بنبرة متجهّمة وحزينة، هازّة رأسها:

- نعم، يا حبّي.

كانت تعرف أنّه لن يستطيع مقاومة هذه الحركة الصغيرة لرأسها، فانقضّ عليها وقبّلها قائلاً لها بهدوء: «يا خبيثة!» قالها بحنان جمّ بحيث ابتلّتْ عيناها.

عندما بلغت الساعةُ السابعةَ والنصف غادر.

وعندما عاد أونوريه إلى بيته حدّث نفسه قائلاً:

«يا أمّي، يا أخي، يا بلدي،- ثمّ توقّف،- نعم، يا بلدي!... يا قوقعتي الصغيرة، يا شجرتي الصغيرة»، ولم يتمالك نفسه من الضحك عندما لفظ هذه الكلمات التي سرعان ما صارت متداولة عندهما، هذه الكلمات الصغيرة التي تبدو جوفاء وملأى بمعنى لا حدود له. ولوثوقهما، دون

أن يدريا، بالعبقرية الخلّاقة والخصيبة لحبّهما، لاحظا تدريجياً أنّه زوّدهما بلغة خاصّة بهما، كما يزوَّد شعب ما بالأسلحة والألعاب والقوانين.

وأثناء ارتدائه ثيابَه للذهاب إلى العشاء، توقّف تفكيرُه دون جهد عند اللّحظة التي سيراها فيها، على غرار ذلك الرياضيّ الذي يلامس عُقْلَته وهو بعيد عنها ويطير إليها، وعلى غرار جملة موسيقية تبدو وكأنّها وصلت إلى التناغم الذي سيحلّها ويقرّبها منه، بعد كلّ تلك المسافة التي فصلتها عنه، بفضل قوّة الرغبة التي تَعِد بها وتناديها. هكذا كان أونوريه يقضي حياته بسرعة منذ سنة، هارباً منذ الصباح نحو ساعة ما بعد الظهر التي سيراها فيها. ولم تكن نهاراته في الحقيقة مؤلّفة من اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة مختلفة، بل من أربعة أنصاف ساعة أو خمسة أنصاف، فيها ما فيها من الانتظار والاستذكار.

كان أونوريه قد وصل منذ بضع دقائق إلى منزل الأميرة داليريوفر d'Aleriouvre، عندما دخلت السيّدة سون Seaune. فقالت مساء الخير لربّة المنزل ولباقي المدعوين وبدت وكأنّها لا تسلّم على أونوريه بل تأخذ يده كما كان بوسعها أن تفعل ذلك أثناء حديثٍ بينهما. لو أنّ علاقتهما عُرفت، لظنّ الناس أنّهما أتيا معاً وأنّها انتظرت هنيهة وراء الباب كي لا تدخل معه في الوقت ذاته. ولكن كان بوسعهما ألّا يلتقيا لمدّة يومين (وهذا لم يحصل لهما قطّ منذ سنة) وألّا يشعرا بتلك المفاجأة البهيجة بالتلاقي الذي هو كنهُ كلّ تحيّة صباحية ودية؛ ولأنّهما كانا لا يستطيعان أن يبقيا خمس دقائق دون أن يفكّر أحدهما بالآخر، لم يكن بإمكانهما إطلاقاً أن يتلاقيا، لأنّهما كانا لا ينفصلان أحدهما عن الآخر.

أثناء العشاء، كلّما كانا يتحادثان، كانت تصرّفاتهما تتجاوز بألقها ونعومتها تصرّفات صديقة وصديق، بيد أنّها كانت موسومة باحترام

جليل وطبيعيّ لا يعرفه العشّاق. كانا أشبه ما يكونان بتلك الآلهة التي تقول الحكاية إنّها سكنت متنكّرة بين البشر، أو كانا أشبه بملاكين تفيض إلفتُهما الأخويّة بالفرح، دون أن تُنقص الاحترامَ الذي يبثّه فيهما النبل المشترك لمحتدهما ولدمهما المفعم بالأسرار. كان الجوّ يتشبّع بقوّة السوسنات والورود التي كان عطرها يُفعم المائدة بتؤدة، وفي الوقت نفسه يتشرّب شيئاً فشيئاً أريج تلك المودّة التي كانت تفوح من أونوريه وفرانسواز طبيعيّاً. وأحياناً كان ذلك الأريج يتبدّى وكأنّه يعطّر بعنفٍ شديد الإمتاع ويتجاوز رقّتَه الاعتيادية، عنف لم تسمح لهما الطبيعة بتخفيف غلوائه مثلما لا تسمح بذلك لنبتة عبّاد الشمس أثناء النّهار، أو للّيلك المزهِر تحت المطر.

وهكذا، فبما أنّ عاطفتهما المشبوبة لم تكن خفيّة، كانت طافحة بالأسرار. كان كلّ منهما يدانيها كما نداني الأساورَ اللّغزية العديمة المقاومة على معصمَي عاشقة، والتي بحروف مجهولة ومرئية ينحفر عليها الاسم الذي يجعلها تعيش وتموت، فتبدو وكأنّها تهب على الدوام معناه للأعين الفضولية والمحبطة لأنّها لا تستطيع فهمه.

«كم من الوقت سأحبّها أيضاً؟»، حدّث أونوريه نفسه وهو ينهض من خلف المائدة. تذكّر كم من الغراميّات عند ولادتها ظنّ أنّها خالدة ولكنّها لم تدم إلّا مدّة قصيرة، ويقينُه من أنّ هذا الغرام سينتهي ذات يوم كان يكّدر عاطفته.

تذكّر أنّه في ذلك الصباح بالذات، وبينما كان الكاهن في القدّاس يقرأ الإنجيل قائلاً: «وأشار يسوع بيده إلى تلاميذه وقال: هؤلاء هم أمّي وإخوتي»، تاقت نفس أونوريه برمّتها إلى الله ولو للحظة، وارتعش وصلّى بصوت عالٍ منتصباً كنخلة قائلاً: «إلهي! إلهي! أعطني نعمة الحبّ

الدائم. إلهي، هذه هي النعمة الوحيدة التي أطلبها منك، أنت إلهي تستطيع ذلك، أي أن أحبّها دائماً!».

ثمّ، بعد إحدى تلك الساعات الجسديّة كلّها، التي فيها تـمّحي الروح فينا خلف المعدة التي تهضم، والبشرة التي تستمتع بغسيل جديد وبملابس داخلية رقيقة، والفم الذي يدخّن، والعين التي تنتشي برؤية الأكتاف العارية والأنوار، كان يكرّر صلاته برخاوة، خاشياً من معجزة تأتي للتشويش على القانون النفسيّ لتقلّبه الذي يستحيل تجاوزه كما يستحيل تجاوز القوانين الخاصّة بالجاذبية الأرضية وبالموت.

رأت عينيه الساهمتين فنهضت واقتربت منه دون أن يراها، وبنبرة متباطئة ومتباكية، نبرة الطفل الصغير التي كانت تُضحكه على الدوام، قالت كما لو أنّها تردّ على كلامه:

– ماذا؟

فضحك وقال لها:

– لا تقولي كلمة أخرى، وإلّا قبّلتك، أتسمعين؟ قبّلتك أمام الجميع!

وضحكت أولاً ثمّ استأنفت كلامها بهيئة حزينة ومنزعجة كي تسلّيه، وقالت:

– نعم، نعم، هذا جميل جدّاً، إنّك لم تكن تفكّر فيّ على الإطلاق!

ونظر هو إليها ضاحكاً وأجاب:

– ما أبرعكِ في الكذب! وبنبرة رقيقة أضاف: «أنتِ خبيثة! خبيثة!».

ابتعدت عنه وراحت تتحدّث مع الآخرين، ففكّر أونوريه: «سأحاول، عندما سأشعر أنّ قلبي انفصل عنها، أن أوقفه برفق شديد، بحيث لن تشعر هي حتّى بذلك. سأكون رقيقاً جدّاً على الدوام وسأحافظ على احترامي لها. سأخفي عنها الحبّ الجديد الذي سيكون

قد حلّ في قلبي محلّ حبّي لها، سأخفيه باحتراس كما أخفي اليوم المتع التي يتلذّذ بها جسدي وحده هنا أو هناك بمنأى عنها» (وصوّب عينيه نحو الأميرة داليريوفر). ومن جهته، سيتركها تدريجيّاً تركّز حياتها في أماكن أخرى، وتقيم علاقات أخرى. ولن يغار، بل سيعيّن هو نفسه الشبانَ الذين سيبدون له قادرين على أن يؤدّوا لها تقديراً أكثر لياقة وبهاءً. فكلّما كان يتصوّر فرانسواز امرأة أخرى لن يحبّها بل يستمتع على وجه متقَن بجميع مفاتنها العقليّة، بدت له المشاركة نبيلة وسهلة. وكلمات الصداقة المتسامحة والرقيقة، وكلمات الإحسان الجميل التي يجب أن يقولها ببراعة لمن هم الأكثر جدارة، راحت تنداح شيئاً فشيئاً من شفتيه المنفرجتين.

في تلك اللّحظة، عندما لاحظت فرانسواز أنّها الساعة العاشرة قالت مساء الخير وغادرت. رافقها أونوريه إلى عربتها وقبّلها دون احتراس في الظلام وعاد.

وبعد ثلاث ساعات عاد راجلاً مع السيّد دو بويفر الذي احتُفيَ به في ذلك المساء بعد عودته من تونكين. وسأل أونوريه عن الأميرة داليريوفر التي بقيت أرملة في تلك الفترة نفسها، وكانت أجمل بكثير من فرانسواز، ودون أن يعشقها، رأى أونوريه أنّه سيحظى بمتعة كبرى إن امتلكها، لو تأكّد له إمكانُ ذلك دون أن تعرف فرانسواز ودون أن تشعر بحزن.

– لا نعرف الكثير من الأشياء حولها، قال السيّد دو بويفر، أو على الأقلّ لم نكن نعلم شيئاً عنها عندما سافرتُ، وبعد أن عدتُ لم أر من جديد أحداً.

– في المحصّلة، لا شيء يسيرٌ هذا المساء، استخلص أونوريه.

– كلّا، لا شيء ذا بال، أجاب السيّد دو بويفر؛ وعندما وصل أونوريه

إلى باب منزله وكان على الحديث أن ينقطع، أضاف السيّد دو بويفر:

- ما عدا السيّدة سون، وهي الشخص الذي وجب أن تقدَّم له، بما أنّك كنت بين المدعوّين لهذا العشاء. إذا رغبتَ في ذلك، فالأمر في غاية السهولة. ولكنّها لن تقول لي أنا هذا!

- ولكنّني لم أسمع قطّ بما تقوله، قال أونوريه.

- أنت شابّ، أجاب السيّد دو بويفر. اسمع، لا بدّ أنّ أحدهم ظفر بها هذا المساء، أعتقد أنّ هذا مؤكّد، إنّه الصغير فرانسوا دو غوفر. قال إنّها ذات طباع غريبة! ويبدو أنّ جسمها غير متناسق. لم يشأ أن يتابع الحديث. أراهنُ أنّها الآن تمارس الحبّ في مكان ما. هل لاحظتَ أنّها دائماً تترك المجتمع المخمليّ مبكّرة؟

- ولكنّها منذ أن أصبحت أرملة تسكن مع أخيها في البيت نفسه، ولن تجازف بجعل البوّاب يروي أنّها تعود متأخّرة في اللّيل.

- ولكن يا صغيري، من العاشرة وحتّى الواحدة صباحاً يستطيع المرء أن يفعل أشياء وأشياء! ومن سيعلم بذلك؟ ستكون الساعة الواحدة بعد قليل، يجب أن أدع لك الوقت لتنام.

دقّ هو الجرس؛ وبعد لحظة فُتح الباب؛ فمدّ بويفر يده لأونوريه وودّعه بحركة آليّة ودخل، ولكنّه شعر بحاجة مجنونة للخروج من جديد، ولكنّ الباب اصطفق بعده بإحكام، وما عدا شمعدانه الذي كان ينتظره مُناراً بنفاد صبر في أسفل الدرج، لم تكن ثمة أيّة إنارة. لم يجرؤ على إيقاظ البوّاب ليفتح له، وصعد إلى بيته.

2

«أفعالنا هي ملائكة الخير والشرّ، والظلال الوبيلة التي تمشي إلى جانبنا»

بومون وفليتشر(1)

تغيّرت الحياة كثيراً لدى أونوريه منذ أن أفضى له السيّد دو بويفر بكلام يشبه ما سمعه هو نفسه أو تلفّظ به مرّات عديدة بلا مبالاة، ولكنّه لم يكفّ عن سماعه أثناء النهار عندما يكون وحده وأثناء اللّيل بكامله. لقد طرح فوراً بعض الأسئلة على فرانسوا التي كانت تحبّه وتتألّم من ألمه أكثر من أن تفكّر بالانجراح من ذلك؛ فأقسمت له أنّها لم تَخُنْه قطّ وأنّها لن تخونه أبداً.

وعندما كان قربها ويمسك يديها الصغيرتين مردِّداً بيت فرلين:

«اليدان الصغيرتان اللّتان ستغمضان عينيّ...»(2)

وعندما كان يسمعها تقول له: «يا أخي، يا بلدي، يا حبيبي» وكان صوتها يتصادى مديداً في قلبه بحلاوة النواقيس في عيد الميلاد، كان يصدّقها. وإنْ لم يشعر بأنّه أسعد مما مضى، فعلى الأقلّ لم يبدُ له مستحيلاً أن يجد قلبُه المتهائل للشفاء السعادةَ ذات يوم. ولكنّه عندما كان بعيداً عن فرانسواز، وأحياناً عندما كان، قربَها، يرى عينيها متّقدتين بنيران

---

(1) مؤلّفان مسرحيّان من القرن السابع عشر وضعا أعمالاً مشتركة. وهذه القبسة الاستهلالية أخذها بروست عن إميرسون الذي كان قد وضعها في بداية كتابه «محاولات في الفلسفة الأمريكية».

(2) البيت الصحيح يقول: «يا لليدين الصغيرتين الجميلتين اللتين ستغمضان أعيننا!» (فرلين، ديوان حكمة، I, XVIII).

كان يتصوّرهما متّقدتين في الماضي- ومن يعلم ربّما أمس كما ستكونان هكذا غداً- ويوقدهما شخص آخر؛ وبعد أن تكون انتابته رغبة جسدية خالصة في امرأة أخرى، متذكّراً المرّات التي استسلم فيها لها وكيف كذّب على فرانسواز دون الكفّ عن حبّها، كان لا يرى أنّ من اللّامعقول أن يفترض أنّها هي أيضاً تكذب عليه، وأنّه ليس من الضروريّ كي تكذب عليه ألّا تحبّه، وأنّها قبل أن تعرفه رمت نفسها على آخرين بنفس الزخم الذي كان آنئذٍ يحرقه، والذي تراءى له أنّه أفظع من الزخم الذي تُبديه هي له، ذلك الزخم الذي كان يظهر له رقيقاً لأنّه يراه بعين المخيّلة التي تضخّم كلّ شيء.

عندئذ حاول أن يقول لها إنّه خانها؛ ولم يفعل ذلك انتقاماً أو احتياجاً إلى تنكيدها كما كان يتنكّد، بل كي تقول له الحقيقة بدورها أيضاً، وبخاصّة كي لا يشعر من بَعد بالكذب يقيم فيه، رغبةً منه في التكفير عن خطايا شهوانيّته، فلكي يخلق مادّة لغيرته بدا له أحياناً أنّه يُسقط على فرانسواز كذبه هو وشهوانيّته.

وذات مساء، بينما كانا يتنزّهان في الشانزليزيه، حاول أن يقول لها إنّه خانها. فذُعر من امتقاع لونها وانهيارها على أحد المقاعد خائرة القوى، وأكثر من ذلك عندما رأى أنّها بلا غضب بل برقّة أبعدت يده التي اقتربت منه، وأن وهن عزيمتها كان صادقاً وملتاعاً. وظنّ ليومين أنّه فقدها أو بالأحرى أنّه وجدها من جديد. ولكن هذا البرهان اللّاإرادي والساطع والحزين الذي قدّمته عن حبّها له، لم يكن يكفي أونوريه. لو كان حصلَ على اليقين المستحيل من أنّها لم تكن من قبل إلّا له فإنّ ذلك الألم الذي لم يعرفه من قبل والذي بات يعرفه منذ ذلك المساء الذي رافقه فيه السيّد دو بويفر حتّى باب منزله- لا ألماً مغايراً بل ذكرى ذلك

الألم -، ما كان ليكفّ عن تعذيبه حتّى وإن قيل له إنّه دون مبرّر. هكذا نواصل الارتجاف بعد استيقاظنا عندما نتذكّر القاتل الذي تعرّفنا عليه في أضغاث حلمنا؛ وهكذا يتألّم المبتورون طيلة حياتهم من الساق التي فقدوها.

عبثاً مشى في النهار، وتعب وهو يعدو على حصانه أو على صهوة درّاجته أو في تدّربه على الأسلحة، عبثاً التقى فرانسواز وأعادها إلى بيتها، ومساءً تلقّى في يديها وجبينها وعينيها الثقة والأمان ورقّة العسل، ليعود بعدئذٍ إلى بيته دون اضطراب ومفعماً بمخزون العطر الذي ناله؛ وما إن دخل بيته حتّى ساوره القلق، فاندسّ بسرعة في سريره كي ينام قبل أن يُفسَد عليه هناؤه الذي- بعد أن نام باحتراس في أريج ذلك الحنان الحديث العهد والطازج الذي عرفه قبل ساعة- سيبلغ عبر اللّيل إلى اليوم التالي سليماً ومجيداً كأحد ملوك مصر؛ ولكنّه شعر بأنّ كلام بويفر، أو واحدة من تلك الصور العديدة التي كوّنها منذئذ، ستطفو فوق سطح ذهنه وتمنعه من النوم. لم تكن هذه الصورة قد تبدّت، بل شعر بأنّها هناك جاهزة تماماً؛ تصدّى لها وأشعل شمعته وقرأ، واجتهد في معاني الكلمات التي قرأها أن يملأ دماغه دون هوادة ودون أن يترك أيّة ثغرة، كي لا تتمكّن تلك الصورة البشعة إطلاقاً وفي أيّ وقت من الأوقات أن تتسلّل إليه.

ولكنّه وجدها فجأةً قد دلفت هناك، ولن يستطيع من بعدُ أن يُخرجها؛ ودون سابق إنذار انفتح باب انتباهه الذي أوصده بكلّ ما أوتي من قوّة؛ وانصفق الباب، وها هو سيقضي ليلته كلّها مع هذا الزائر المريع. لقد تأكّد من ذلك، وقُضي الأمر، ولن يتمكّن هذه اللّيلة كما في اللّيالي الأخرى من أن ينام دقيقة واحدة؛ نعم سيفتح عبوة البروميديا

المخدّرة وسيشرب ثلاث معالق صغيرة، صار متأكّداً من أنّه سينام، ولكنّه ارتاع من أنّه لن يستطيع أن يفعل شيئاً إلّا أن ينام، ومهما كان من أمر عاد يفكّر في فرانسواز بذعر ويأس وضغينة. كان يريد، من جهل الناس علاقتهما، أن يراهن على فضيلتها مع الرجال، أن يراهن عليها هي نفسها، وأن يرى إن كانت ستستلم، وأن يسعى إلى أن يكتشف شيئاً وإلى أن يعرف كلّ شيء فيختبئ في غرفة (وتذكّر أنّه فعلها ليلهو عندما كان صغيراً) ويرى كلّ شيء. لن يحرّك ساكناً بالنسبة للآخرين في البداية بما أنّه سيكون طلب ذلك على سبيل المزاح- وإلاّ، فيا للفضيحة! ويا غضب الله!- بل من أجلها بخاصّة، ليرى في اليوم التالي عندما سيسألها: «ألم تخونيني؟» وستجيبه: «إطلاقاً لا» وبتلك النبرة العاشقة بالذات. ربّما ستعترف بكلّ شيء، وبأنّها لم تسقط إلّا بسبب أحابيله. وعندئذٍ ستكون تلك هي العملية الخلاصيّة التي سيشفى فاعلها من المرض الذي كان يقتله، على غرار الطفيليات التي تقتل الشجرة (وما عليه إلّا أن ينظر إلى سحنته في المرآة على ضوء الشمعة اللّيلية الشاحب كي يتأكّد من ذلك). ولكن، كلّا، لأنّ الصورة ستعود دائماً وستصبح أقوى بكثير من صور خياله وستنهال على رأسه ضرباً وقرعاً، ولم يحاول حتّى التفكير في ذلك.

وفجأةً فكّر فيها، فكّر في نعومتها وحنانها ونقائها وأراد أن يبكي بسبب الإهانة التي فكّر منذ لحظة في توجيهها إليها. مجرّد كونه فكّر في عرض ذلك على رفاق مجونه!

وسرعان ما شعر برعشة شاملة وبالانحطاط الذي يسبق ببضع دقائق النومَ الذي يسبّبه مخدّر البروميديا. وفجأةً، ودون أن يلاحظ شيئاً، ودون أن يأتيه أيّ حلم أو أيّ إحساس، وبين الفكرة الأخيرة

وهذه، قال لنفسه: «كيف؟ لم أنم حتّى الآن؟» وعندما لاحظ أنّها ساعة الضحى، أدرك أنّه نام أكثر من ستّ ساعات بفعل البروميديا دون أن يستمتع بالنوم.

وانتظر حتّى تهدأ آلام رأسه قليلاً، ثمّ نهض وحاول عبثاً بالماء البارد وبالمشي أن يعيد إلى جسمه بعض ألوانه، كي لا تجده فرانسواز دميماً بسحنته الشاحبة وعينيه الغائرتين. وبعد أن خرج من بيته، توجّه نحو الكنيسة وهناك- محنيّ الجسم ومتعَباً، وبجميع القوى الأخيرة اليائسة لجسمه المنهار الذي ودّ أن يُنهضه وينعشه، ولقلبه العليل الشائخ الذي ودّ أن يشفيه، ولعقله اللّاهث والمنهَك دون هوادة الذي ابتغى السلام- صلّى إلى الله، الله الذي طلب إليه منذ أقلّ من شهرين أن يُنعم عليه بحبّ فرانسواز إلى الأبد، صلّى في تلك اللحظة بالقوّة نفسها، ودائماً بقوّة ذلك الحبّ الذي، على تيقّنه من الموت، كان يطلب الحياة، والذي كان آنئذ، لذعره من الموت، يبتغي الموت، طلب إليه أن ينعم عليه بأن يوقف إلى الأبد حبّه لفرانسواز، وبألّا يحبّها لمدّة طويلة، وبألا يحبّها دائماً، وبأن يمكّنه من أن يتصوّرها بين ذراعي رجل آخر دون أن يتعذّب، لأنّه لم يعد يستطيع أن يتصوّرها إلّا بين ذراعي رجلِ آخر. وربّما سيكفّ عن تصوّرها هكذا عندما يتمكّن من تصوّر ذلك دون ألم.

عندئذٍ تذكّر كم كان يخشى من ألّا يحبّها دائماً، وكم حفر خدّيها المشدودين دائماً إلى شفتيه، وجبينها ويديها الصغيرتين وعينيها الحادّتين وملامحها المعبودة، حفرَها في ذاكرته- حتّى لا يستطيع شيء أن يمحوها! وفجأةً عندما رآها قد استيقظت من هدأتها الرغيدة برغبة رجل آخر، شاء ألّا يفكّر من بعد في ذلك، ولكنّ خدّيها الناعمين وجبينها ويديها الصغيرتين- آه! يديها الصغيرتين هما أيضاً!- وعينيها الحادّتين وملامحها

المقوتة، هذا كلّه كان يتراءى له من جديدٍ بعنادٍ كبير.

ومنذ ذلك اليوم، لخوفه أوّلاً من انتهاج طريق كهذه، لم يعد يفارق فرانسواز، وصار يتجسّس على حياتها، ويرافقها في زياراتها، ويتعقّبها في مشترياتها، وينتظر ساعة على باب المحلات التجارية. لو استطاع التفكير في أنّه يمنعها هكذا من خيانته جسدياً، لتخلّى عن ذلك ربّما، خوفاً من أن يتسبّب بكرهها له؛ ولكنّها كانت تتركه يفعل ذلك مبديةً حبورها لشعورها بأنّه دائماً قربها، وشيئاً فشيئاً غزاه هذا الحبور، فامتلأ بالثقة على مهل وتيقّنَ من أنّه لم يجد أيّ إثبات، فكان مثل أولئك المُهَلْوِسين الذين يستطيع الأطباء إشفاءهم بعد أن يجعلوهم يلمسون الكنبة أو الشخص الحيّ اللّذين توهّموهما شبحَين، طاردين بالتالي الشبحَ عن العالم الواقعيّ عن طريق الواقع ذاته الذي يُقصي هذا الشبح.

وهكذا سعى ذهن أونوريه، بعد أن ملأ نهاراتِ فرانسواز بمشاغل مؤكّدة وتبيّن منها، إلى إزالة هذه الفجوات وهذه الظلال التي راحت تعشّش فيها الأرواح الشريرة للغيرة والشكّ التي كانت تغزوه كلّ مساء. عاوده النوم وأصبحت آلامه نادرة وقصيرة، وعندما كان يناديها، كان وجودها لبضع لحظات يهدّئ من روعه ليلةً كاملة.

3

«علينا أن نأتمن الروح حتّى النهاية؛ لأنّ بعض الأشياء- مهما كانت جميلة وجذابة كما هي الحال في علاقات الحبّ- لا يمكن أن تُستبدل إلّا بأشياء أجمل وأرقى».

إميرسون[1]

إنّ صالون السيّدة سون Seaune، واسمها الأصليّ هو الأميرة دو غاليز أورلاند، التي تكلّمنا عنها في القسم الأول من هذه القصة وأعطيناها اسم فرانسواز، هو اليوم أحد صالونات باريس التي يتهافت عليها الناس. في مجتمع كان لقب «الدوقة» سيجعلها تضيع فيه بين دوقات أخريات كثيرات، كان اسمها البورجوازي مميّزاً كما تميَّز الشامة في الوجه؛ ومقابل اللّقب الذي أضاعته بزواجها من السيّد سون، اكتسبت ذلك الألق المتأتّي من كونها تخلّت طوعاً عن مجد يرفع عالياً جدّاً، في خيالِ إنسانٍ شريف المحتد، الطواويسَ البيض والبجعات السود والبنفسجات البيض والملكات الأسيرات.

استقبلت السيّدة سون في صالونها كثيراً خلال هذه السنة والسنة السابقة، ولكنّ صالونها أُغلق خلال السنوات الثلاث الماضية، أي السنوات التي أعقبت موت أونوريه دو تانفر.

كان أصدقاء أونوريه الذين ابتهجوا لرؤيتهم إيّاه يستعيد شيئاً فشيئاً سحنته الجميلة وحبوره السابق قد صاروا يلتقون به في كلّ ساعة مع

(1) مقالات في الفلسفة الأمريكية، ص 102 من الترجمة الفرنسية.

السيّدة سون، وكانوا يعزون شفاءه إلى تلك العلاقة التي ظنّوها حديثة العهد جدّاً.

وبعد أقلّ من شهرين على شفائه الكامل وقع حادث شارع غابة بولونيا الذي كسر ساقيه حصانٌ جامح.

وقع الحادث في الثلاثاء الأول من شهر أيار؛ وظهرت أعراض التهاب بالصِفاق يوم الأحد. تناول أونوريه القربان يوم الاثنين وتوفّي في اليوم نفسه الساعة السادسة مساء. ولكنّه من يوم الثلاثاء، يوم الحادث، وحتّى مساء الأحد كان هو الوحيد الذي اعتقد أنّه هالك.

حوالى السادسة يوم الثلاثاء، وبعد الضمادات الأولى، طلب أن يبقى وحده، ولكن أن تُرفع إليه بطاقات الأشخاص الذين أتوا للاستعلام عن صحته.

في صباح ذلك اليوم، قبيل الساعة الثامنة، نزل شارع غابة بولونيا مشياً على القدمين. كان قد تنفّس وعبّ الهواء الممزوج بالنسيم والشمس، وتبيّن في عيون النساء اللّواتي تابعن بإعجابٍ جماله الرشيق، لحظةً ضائعة في منعطف حبوره النّزِق بالذات، ثمّ مستعادة دون جهدٍ وسريعاً بين الخيول الراكضة والمتصبّبة عرقاً، وتذوّق في طراوة فمه الجائع والمفعم بالهواء الناعم تلك البهجةَ العميقة التي كانت في ذلك الصباح تجمّل الحياة بالشمس والظلّ والسماء والحجر والريح الشرقية والشجر، والأشجار الجليلة جلال الرجال الواقفين والمستريحة استراحة النساء النائمات في سكونهنّ المُشرق.

وفي لحظة ما، نظر إلى ساعته وعاد أدراجه ثمّ حدث ما حدث. بسرعة خاطفة، كسر الحصان الذي لم يره ساقيه، ولم تبدُ له تلك اللّحظة بكامل أبعادها. كان من الممكن في تلك اللّحظة أن يكون أبعد بقليل أو أقرب

بقليل، أو أن يتجنّبه الحصان، ولو نزل المطر لكان قد عاد إلى بيته مبكّراً، ولو لم ينظر إلى ساعته لما عاد أدراجه ولتابع مسيره حتّى شلّال الماء، ومع ذلك فإنّ ما كان من الممكن ألّا يحدث وألّا يكون إلّا حلماً، حدث فعلاً وصار جزءاً من حياته دون أن تتمكّن إرادته من تغيير أيّ شيء فيه. كُسرت ساقاه ورُضَّ بطنه. والحقّ، لم يكن الحادث بحدّ ذاته استثنائياً؛ إذ تذكّر أنّهم منذ ثمانية أيّام، وفي طعام عشاء عند الدكتور S...، تكلّموا عن C... الذي جرحه حصان جامح بالطريقة نفسها. وعندما سئل الطبيب عن وضعه قال: «مشكلته صعبة». ألحّ أونوريه وسأل عن الجرح فأجاب الطبيب بعنجهية وتحذلق وكآبة: «المسألة ليست فقط مسألة جرح؛ هي أكبر من ذلك؛ أبناؤه ينغصّون حياته؛ لم يعد في المنزلة التي كان يشغلها في الماضي؛ مهاجمات الصحف له قد قصمت ظهره. بودي أن أكون مخطئاً، ولكنّه في حالة يرثى لها». وبما أنّ الطبيب شعر، على عكس مريضه، أنّه هو نفسه بصحّة جيدة وأنّه أذكى وأرفع مقاماً من أيّ وقت مضى؛ وبما أنّ أونوريه عرف أن فرانسواز تزداد حبّاً للدكتور، وأنّ الناس قد قبلوا بعلاقتهما ورضخوا لسعادتهما وقدّروا عظمة طبع فرانسواز؛ وأخيراً بما أنّ زوجة الدكتور S... تأثرت لتصوّرها النهايةَ البائسة لـ C... والإهمال الذي أصابه، إلى حدّ أنْ منعت على نفسها وعلى أولادها، على سبيل الوقاية، التفكير في أحداث محزنة وحضور الجنائز، فإنّ الجميع كرّروا عندئذٍ للمرّة الأخيرة: «هذا المسكين C...، حالته سيئة» وعبّوا الكأس الأخيرة من الشامبانيا شاعرين في بهجة احتسائها أنّ «حالتهم هم» ممتازة.

ولكنّ الأمر مختلف تماماً. فبما أن أونوريه كان آنئذٍ يشعر بأنّه غارق في التفكير بمأساته، كما كان يشعر غالباً بكونه غارقاً في مآسي الآخرين، لم يعد يستطيع كما في الماضي أن يقف داخل نفسه بثبات. فأحس بأنّ أديم

العافية الذي تُبنى عليه أعظم قراراتنا وألطف أفراحنا راح يتوارى، مثلما تضرب أشجار السنديان وأزهار البنفسج جذورها في أديم الأرض السوداء والنديّة؛ وفي كلّ خطوة كان يتعثّر بذاته. وفي معرض الحديث عن C... أثناء ذلك العشاء الذي عاد يفكّر فيه، قال الطبيب: «قبل الحادث وبعد مهاجمات الصحف، التقيت بـ C... فوجدت أنّ وجهه شاحب، وأنّ عينيه غائرتان، وأنّ رأسه بائس!» ومرّر الطبيب يده ذات الخفة والأناقة المشهورتين على وجهه الطافح والورديّ اللّون، ومرّرها على لحيته الناعمة والمشذّبة بعناية، فتصوّر كلٌّ واحد من المدعوّين أنّ صحته ممتازة وسُرّ بذلك، شأنه شأن مالك بيت يقف وينظر بعين الرضا إلى الشابّ الهادئ والغنيّ الذي استأجر بيته. عندما نظر أونوريه إلى وجهه في المرآة ارتاع من «سحنته الشاحبة» ومن «رأسه البائس». وفوراً عندما فكّر في أنّ الطبيب سيقول عنه الكلماتِ نفسَها التي قالها عن C...، وباللّامبالاة نفسها، ارتاع. هم أنفسهم الذين سيزورونه بإشفاق كبير سيتنكّبون له بسرعة كما لو كان شيئاً خطراً عليهم؛ سينتهي بهم الأمر إلى الرضوخ لتأكيداتهم على كونهم مُعافين وعلى رغبتهم في أن يكونوا سعداء ويعيشوا. عندئذٍ انتقل فكره إلى فرانسواز، فحنى كتفيه وطأطأ رأسه على الرغم منه، كما لو كانت وصية الله هنا مرفوعة عليه، ففهم بحزن لا يعرف الحدود ويستسلم للقدر أنّ عليه التخلّي عنها. وشعر بمهانة جسده المقوّس ووهنه الطفليّ، وأذعن لمرضه في ظلّ هذا الحزن الهائل، وأشفق على نفسه كما كان، في جميع مراحل حياته، يشعر برقّةٍ بكونه لا أكثر من طفل صغير، ورغب في البكاء.

سمع باب غرفته يُقرع، لقد جاء الخدم بالبطاقات التي كان قد طلبها، كان يعلم أنّ الناس سيأتون ليستعلموا عن أخباره، إذ لم يَفُتْه أنّ حادثه

خطير، ولكنّه مع ذلك لم يصدِّق أنّ البطاقات بهذا العدد الكبير، وذُهل عندما لاحظ أنّ أناساً كثيرين أتوا دون أن يعرفوه كثيراً ومن بين مَن لم يكونوا ربّما سيكلّفون أنفسهم إلّا لحضور زواجه أو دفنه. كانت كومة من البطاقات حملها البوّاب باحتراس كي لا يسقط بعضها من الصينية الكبيرة التي تكدّست فوقها.

ولكنّه فجأةً عندما قُدّمت له هذه البطاقات كلّها بدت له الكومة شيئاً صغيراً جدّاً، شيئاً مضحكاً لصغره، شيئاً أصغر من الكرسيّ أو الموقد. وازداد ذعره لقلّتها، فشعر بأنّه وحيد جدّاً، ولكي يتسلّى راح يقرأ الأسماء بنزق؛ قرأ واحدة، اثنتين، ثلاثاً، آه! اختلج ونظر من جديد: «الكونت فرانسوا دو غوفر». ولكنّه توقّع أن يأتي السيّد دو بويفر ليطمئنّ عنه، ولكنّه منذ مدّة طويلة لم يفكّر فيه وتذكّر فوراً عبارة بويفر: «لا بدّ أنّ أحدهم ظفر بها هذا المساء، إنّه فرانسوا دو غوفر؛ قال إنّها ذات طباع غريبة! ويبدو أن جسمها غير متناسق، ولم يشأ أن يتابع الحديث»؛ وعادت هذه العبارة إليه، وشعر بكلّ الألم السابق الذي خرج من أعماق ضميره وطفا بسرعة البرق على السطح، فقال لنفسه: «الآن سأبتهج إن متُّ. ألّا أموت، وأن أبقى مسمّراً هنا ولسنوات مديدة، أي كلّ الدهر الذي لن تكون فيه قربي في قسم من النهار وفي اللّيل كلّه، وأن أراها عند رجل آخر! والآن لن أراها من بعد هكذا بسبب مرضي، هذا مؤكّد. كيف يسعها أن تواصل حبّي؟ أن تحبّ رجلاً أبتر!» وفجأةً توقّف: «وبعدي، إن مُتُّ؟».

كانت في الثلاثين من عمرها، واجتاز بقفزة واحدة الوقت الطويل نوعاً ما الذي ستتذكّره فيه، وتبقى مخلصة له. ولكن سيأتي وقت... «قال: **إنّها ذات طباع غريبة**... أريد أن أعيش أريد أن أمشي، أريد أن

أتبعها إلى كلّ مكان، أريد أن أكون جميلاً، أريد أن تحبّني!»

وفي تلك اللّحظة، خاف عندما سمع تنفّسه يَصفر، وشعر بألم في خاصرته، وبدا له أنّ صدره اقترب من ظهره، لم يعد يتنفّس كما كان يريد، حاول أن يستعيد أنفاسه فلم يستطع. وأحسّ في كلّ لحظة أنّه يتنفّس ولا يتنفّس كفاية. أتى الطبيب؛ لم تكن أصابت أونوريه إلّا أزمة ربو عصبيّ خفيفة(1). وبعد أن غادر الطبيب، ازداد حزن أونوريه؛ كان يفضّل أن تكون أزمة أخطر وأن يؤسَف على شبابه. لقد شعر تماماً أنّه إذا لم يكن الأمر خطيراً، فإنّ شيئاً آخر كان من الخطورة بمكان، وأنّه سيمضي. راح يتذكّر جميع الأوجاع الجسدية التي قاساها في حياته، فالتاع؛ لم يسبق قطّ لأولئك الذين أحبّوه كثيراً أن رثوا لحاله بحجة أنّه عصبيّ. خلال الأشهر الرهيبة التي قضاها بعد عودته بصحبة بويفر، عندما كان في الساعة السابعة يرتدي ثيابه بعد أن يكون قد مشى اللّيل كلّه، كان أخوه الذي يستيقظ لمدّة ربع ساعة في اللّيالي التي كانت تلي حفلات عشاء فاخرة، يقول له:

«- إنّك تستمع إلى نفسك أكثر من اللّزوم؛ أنا أيضاً، في بعض اللّيالي لا أنام. ثمّ إنّنا نظنّ أنّنا لا ننام، ولكنّنا في الحقيقة ننال دوماً قسطاً من النّوم».

صحيح أنّه كان يستمع إلى نفسه أكثر من اللّزوم؛ في أعماق حياته، كان يصغي دائماً إلى الموت الذي لم يتركه قطّ تماماً، والذي كان يلغم حياته مرّة هنا ومرّة هناك، ولكن دون أن يدمّرها برمّتها. ولقد ازداد عنده مرض الربو، فلم يستطع أن يستعيد نفسَه، فقام صدره كلّه بجهد أليم كي يتنفّس. وشعر بأنّ الغطاء الذي يخفي الحياة عنّا، أي الموت الذي فينا،

---

(1) سيعود بروست إلى مرض الربوْ الذي عانى منه كثيراً، في قصّة «اللامبالي» في هذا الكتاب.

ينزاح، وأدرك كم هو مرعبٌ أن نتنفّس ونحيا!

ثمّ ألفى فكره ينتقل إلى اللّحظة التي ستجد هي فيها السلوى، ولكن مع من؟ فاحتدمت غيرته من لايقين الحدث ومن ضرورته. كان بوسعه أن يمنعها إن عاش، ولكنّه لا يستطيع أن يعيش، إذن ماذا؟ قد تقول إنّها ستصبح راهبة، ثمّ بعد أن يموت تغيّر رأيها. كلّا! كان يفضل ألّا يُخدع مرتين، أن يعرف مَن: أهو غوفْر أم أليريوفر أم بويفر أم بريف؟ لمحهم جميعاً فاصطكّت أسنانه، وشعر بسخط حانق كان لا بدّ أنّه قبّح سحنته. هدّأ نفسه. كلّا، لن يكون من هؤلاء، لن يكون رجل متعة، يجب أن يكون رجلاً يحبّها فعلاً. لماذا لا أريده رجل متعة؟ المجنون مثلي يتساءل عن ذلك، هذا طبيعيّ جدّاً. لأنّني أحبّها لذاتها، أريدها أن تكون سعيدة. لا، ليس هذا، لا أريد أن يهيّج أحد أحاسيسها، وأن يمنحها متعة أكثر ممّا أمتعتُها أو يمنحها أيّة متعة. بودّي أن يقدّم لها أحدهم شيئاً من السعادة، بودّي أيضاً أن تُمنح شيئاً من الحبّ، ولكنّني لا أريد أن تُمنح متعة. أغار من متعة الآخر، ومن متعتها هي. لن أغار من حبّها. يجب أن تتزوّج وأن تُحسن الاختيار. وفي جميع الأحوال سيكون ذلك محزناً.

عاودته رغبة من رغبات طفولته الأولى، رغبة الطفل الصغير الذي بلغ سنّ السابعة وكان ينام في الثامنة. فبدل أن تبقى أمّه في غرفتها الملاصقة لغرفة أونوريه حتّى منتصف اللّيل ثمّ تنام، كان عليها أن تخرج في الحادية عشرة ليلاً فترتدي ثيابها آنئذٍ، وكان هو يتوسّل إليها أن تلبس ثيابها قبل العشاء وأن تذهب إلى حيث تشاء، إذ لم يكن يستطيع أن يتحمّل أنّ أبويه يستعدّان في البيت لسهرة سيذهبان إليها، في حين أنّه كان يجاهد لينام. ولتُفرحه وتهدّئ من روعه، كانت بكلّ ثيابها وبذراعيها المكشوفتين تأتي في الثامنة لتقول له مساء الخير ثمّ تذهب إلى بيت صديقة لها وتنتظر ساعة

الحفلة الراقصة. فقط على هذه الشاكلة، في تلك الأيّام الكئيبة بالنسبة له، التي فيها كانت أمّه تذهب إلى الحفلة الراقصة، كان يتمكّن، على حزنه، من أن ينام بهدوء.

الآن يتكرّر الطلب نفسه، وما كان يفعله مع أمّه، صرّح به لفرانسواز. كان بودّه أن يطلب منها أن تتزوّج فوراً، وأن تستعدّ لذلك، كي يتمكّن أخيراً من أن ينام النومة الأبدية، ملتاعاً وإنّما هادئاً، دون أن يقلق لما سيحدث بعد تلك النومة.

في الأيّام التالية، حاول أن يكلّم فرانسواز التي، كالطبيب نفسه، لم تعتقد بأنّه هالك، ورفضت بحزم لطيف وقاطع اقتراح أونوريه.

اعتادا أن يقولا الحقيقة أحدهما للآخر بحيث أنّ أحدهما كان يقول للآخر الحقيقة التي يمكن أن تجرح شعوره، كأنّهما في أعماقهما وفي تكوينهما العصبيّ والرقيق الذي ينبغي عليهما فيه أن يوفّرا شدّة الحساسيّات، شعرا بحضور إله مقتدر وغير مكترث بجميع الاحتراسات الصالحة عند الأطفال، إله يطالب بالحقيقة ويُجبر عليها. وأمام هذا الإله الذي كان في أعماق فرانسواز شعرَ أونوريه دوماً، وأمام هذا الإله الذي كان في أعماق أونوريه شعرت فرانسواز باستمرارٍ، أقول شَعرا بواجبات تُذعن لها الرغبة في عدم الإكراب وعدم القدح، وتذعن لها الأكاذيب الأكثر صدقاً والمتعلّقة بالحنان والرأفة.

فعندما قالت فرانسواز لأونوريه إنّه سيعيش، شعر بأنّها تؤمن بذلك واقتنع تدريجيّاً بتصديقه:

«إنْ كان عليّ أن أموت، فسأكفّ عن الغيرة عندما أموت؛ ولكن حتّى أموت، ماذا؟ ما دام جسدي يعيش، سأبقى هكذا! ولكن بما أنّني لا أغار إلّا من المتعة، ولأنّ جسدي هو الذي يغار، وبما أنّ ما أغار عليه ليس

قلبها، ولا سعادتها التي أتمنّى أن يحقّقها من هو قادر على ذلك؛ فعندما يتلاشى جسدي، وعندما تتغلّب الروح عليه، وعندما سأتجرّد تدريجيّاً من الأشياء الماديّة كما حصل لي ذات مساء عندما اشتدّ المرض عليّ وكرهتُ الجسد وازداد حبّي للروح، عندئذٍ أكفّ عن الغيرة. وسأحبّ وقتئذٍ حبّاً حقيقيّاً. لا يسعني أن أتصوّر كيف سيكون، علماً بأنّ جسدي الآن ما زال حيّاً يُرزق ويَغضب، ولكنّني أستطيع أن أتصوّر ذلك قليلاً إذ أجد- حين تشتبك يدي بيد فرانسواز- في حنان فائق لا تشوبه الرغبات أنّ آلامي وغيرتي قد هدأت. سأحزن كثيراً عندما أغادرها، ولكن أريد أن ينتابني ذلك الحزن الذي كان في الماضي يقرّبني من ذاتي وكان فيه ينزل ملاك ليؤاسيني، ذلك الحزن الذي كشف النقاب لي عن الصديق الغامض الذي زارني في أيّام تعاستي، أي روحي، ذلك الحزن الهادئ الذي بفضله سأراني جميلاً بما فيه الكفاية لأمْثل أمام الله، ذلك الحزن المغاير للمرض الرهيب الذي أقضّ مضجعي لمدّة طويلة دون أن يرقى بقلبي، والذي كان أشبه بِشرّ جسديّ يبرّحني ويحطّ من قدري ويستهين بي. سيتحقّق خلاصي في الأوان ذاته الذي أكون فيه تخلّصتُ من جسدي ومن الرغبة في جسدها. نعم وحتّى يحين ذلك، ماذا سأغدو؟ سأغدو أكثر وهناً وأكثر عجزاً عن المقاومة من أيّ وقت مضى، ومجندلاً فوق ساقيّ المكسورتين، وعندما أبغي العَدْوَ إليها لأرى أنّها ليست في المكان الذي كنت فيه أحلم، سأبقى هنا، دون التمكّن من الحركة؛ وسأكون عرضة لسخرية جميع أولئك الذين سيقدرون على «الظفر بها» كما يطيب لهم وأمام وجهي، وجهِ عاجزٍ لن يهابوه».

طوال ليلة الأحد وفي الصباح التالي، حلم بأنّه يختنق وأحسّ بصخرة هائلة فوق صدره. فاستغاث وفقد القدرة على إزاحتها عنه، ولم يفهم

لماذا كان كلّ هذا الثقل يرزح عليه منذ أمد طويل، ولم يعد يقوى على تحمّل ذلك لحظةً إضافية، فراح يختنق. وفجأةً أحس بمعجزة ترفع عنه كلّ ذلك العبء الذي نأى ونأى، وخلّصه إلى الأبد. وقال لنفسه: «إنّني متّ».

وفوقه لمح ابتعاد كلّ ما أثقل صدره لمدّة طويلة وراح يخنقه؛ ظنّ في البداية أنّها صورة غوفر، ثمّ أنّها ظنونه فقط، ثمّ رغائبه، ثمّ ذلك الانتظار القديم الذي كان يبدأ في الصباح الباكر ويجعله يتوق إلى تلك اللّحظة التي فيها سيرى فرانسواز، ثمّ التفكير في فرانسواز. كان هذا يأخذ شكلاً مختلفاً في كلّ دقيقة، كأنّه غيمة؛ كان يكبر ويكبر دون توقّف، وآنئذٍ لم يعد يشرح لنفسه كيف أنّ هذا الشيء الهائل كالعالم استطاع أن يحطّ عليه، على جسده الصغير، جسد رجل واهن، وعلى قلبه المسكين، قلب رجل فقدَ نشاطه، وكيف أنّ هذا الشيء لم يحطّمه. وفهم أيضاً أنّه حطّمه وأنّ الحياة التي عاشها هي حياة رجل محطّم. وهذا الشيء الهائل الذي ناء بكلكله على صدره بجبروت العالم كلّه، أدرك أنّه حبّه.

ثم كرّر محدّثاً نفسه: «حياة رجل محطّم!»، وتذكّر أنّه عندما أوقعه الحصان أرضاً قال لنفسه: «سأتحطّم»، وتذكّر نزهته، وأنّه أزمع أن يذهب مع فرانسواز إلى الغداء، وعن طريق هذه المداورة عادت إليه فكرة حبّه. وحدّث نفسه قائلاً: «هل هو حبّي الذي أثقل صدري؟ إن لم يكن حبّي فماذا عساه أن يكون؟ أيكون طبعي، ربّما؟ أنا؟ أم إنّها الحياة أيضاً؟» ثمّ فكّر: «كلّا، عندما سأموت، لن أتخفّف من حبّي، بل من رغباتي الجنسية، وتوقي الشبقيّ، وغيرتي». عندئذٍ قال: «يا إلهي، اجعل هذه الساعة تأتي، اجعلها تأتي بسرعة، يا إلهي، كي أعرف الحبّ الكامل».

كان التهاب الصفاق قد ظهر مساء الأحد، وحوالى الساعة العاشرة

من يوم الاثنين هاجمته الحمّى، وأراد فرانسواز، وناداها، بعينين كجمرتين: «أريد أن تلمع عيناكِ أيضاً، أريد أن أمتّعكِ أكثر مما سبق لي أن فعلتُ... أريد أن... سأوجعك». ثمّ امتقع وجهه من الغضب: «أرى تماماً لماذا لا تريدين، أعلم تمام العلم بما أقدمتِ عليه هذا الصباح، أعلم أين ومع من، أعلم أنّه أراد استقدامي ووضعي وراء الباب كي أراك، دون أن أقوى على الانقضاض عليكما، لأنّني فقدت ساقيّ، ولا أستطيع أن أمنعكما، لأنّكما ستشعران بمزيد من المتعة عندما ترياني أثناءها؛ إنّه يعرف كلّ ما يجب أن يفعله ليمتّعكِ، ولكنّني سأقتله قبل ذلك، وقبله سأقتلكِ، وسأقتل نفسي قبلكما. انظري! قتلتُ نفسي!» وسقط فوق المخدّة خائر القوى.

وهدأ بالتدريج، باحثاً عمّن تستطيع أن تتزوّجه بعد موته، ولكنّه استبعد دائماً الصور ذاتها، صورة فرانسوا دو غوفر، صورة بويفر، وهما اللّتان كانتا تعذّبانه وتعودان دائماً.

وفي الظهر، أعطي له القربان المقدس. وقال الطبيب إنّه لن يتجاوز فترة ما بعد الظهر، وبسرعة شديدة فقد قواه ولم يعد يقوى على تناول طعامه، ولم يعد يسمع تقريباً. وبقي رأسه متحرّراً دون أن يقول شيئاً، وكي لا يزعج فرانسواز التي رآها منهكة بالهموم، كان يفكّر فيها بعد أن يرحل، وفي أنّه لن يعرف شيئاً عنها بعد ذلك، وفي أنّها لن تعود تحبّه.

الأسماء التي ذكرها على نحو آليّ ذلك الصباح أيضاً، أسماء الذين ربّما ظفروا بها، عاد رأسه يستعرضها، بينما كانت عيناه تتابعان ذبابة اقتربت من إصبعه كما لو أنّها أرادت أن تلامسها، ثمّ طارت وعادت دون أن تمسّها مع ذلك. واستعاد انتباهه الذي غفا لحظة، ورجع اسم فرانسواز دو غوفر، وقال لنفسه إنه ربّما كان يظفر بها فعلاً، وفي ذات الوقت فكّر

قائلاً: «هل الذبابة ستلامس الشرشف؟ كلّا، لم تلمسه بعد»، وفجأةً استيقظ من حلم يقظته: «كيف؟ كيف؟ كلا الأمرين لا يبدو لي مهمّاً! هل سيظفر غوفر بفرانسواز أم أنّ الذبابة ستلامس الشرشف؟ نعم، إنّ الظفر بفرانسواز أهمّ بقليل». ولكنّ الدقة التي رأى فيها الفرق الذي يفصل بين الحدثين أظهرت له أنّهما كليهما لا يمسّانه كثيراً. وقال لنفسه: «كيف يكونان متساويين في نظري؟ كم هذا محزن!» ثمّ لاحظ أنّه لم يقل: «كم هذا محزن!» إلّا بسبب العادة، وأنّه قد تغيّر تماماً وأنّه لم يكن أكثر حزناً لأنّه تغيّر. وابتسم ابتسامة مبهمة أرخت شفتيه. فقال لنفسه: «هذا هو حبّي الخالص لفرانسواز. لم أعد أغار، وذلك لأنّني أقترب من الموت؛ ولكن لا فرق عندي، لأنّ ذلك كان ضرورياً لأشعر بالحبّ الحقيقي تجاه فرانسواز».

وعندما رفع عينيه لمح فرانسواز بين الخدم والطبيب والقريبتين العجوزين، وكانوا كلّهم يصلّون قربه. وأدرك أن الحبّ المنزّه عن كلّ أنانية وكلّ شبقية، الحبّ الذي أراده شديد العذوبة، وشديد الرحابة، وشديد الألوهية فيه، كان يشمل القريبتين العجوزين والخدم والطبيب نفسه بقدر ما كان يشمل فرانسواز؛ وبما أنّه كان يكنّ لها الحبّ ذاته الذي يكنّه لجميع الخلائق التي تشبه روحُه أرواحَها فاتّحدت بها في تلك اللحظة، لم يعد عنده إلّا ذلك الحبّ تجاه فرانسواز. ولم يعد قادراً حتّى على الاكتئاب لذلك لأنّ كلّ حبّ حصريّ لها قد زال عنه، لا بل حتّى فكرة تفضيلها على سواها كانت قد تلاشت.

وبدموع منهمرة قرب سريره كانت تهمس أجمل الكلمات التي كانت لها في الماضي: «يا بلدي، يا أخي». ولكن لمّا كان هو لا يريد ولا يستطيع أن يخطّئها، ابتسم وفكّر في أن «بلده» لم يعد فيها، بل في السماء وعلى

الأرض كلّها. فكرّر في قلبه: «يا إخوتي»، وإذا نظر إليها أكثر ممّا نظر إلى الآخرين فإشفاقاً فقط على سيل الدموع الذي كان يجري تحت عينيها، عينيها اللّتين ستنغلقان عمّا قريب واللّتين كفّتا عن البكاء. ولكنّه لم يكن يحبّها أكثر، ولا كان حبّه لها مختلفاً عن حبّه للطبيب والقريبتين العجوزين والخدم. وكانت هذه نهاية غيرته.

متبقّيات

نصوص نشرها بروست في مجلّات
ولم يُدرجها في كتاب «المسرّات والأيّام»

أشياء نورماندية (1891)

«تروفيل، مركز المنطقة، سكّانها 6808 نسمة، وتستطيع أن تستقبل أكثر من 15000 شخص خلال الصيف»

دليل جوان *Guide Joane*

- إلى بول غرونَباوم[1]

منذ بضعة أيّام نستطيع أن نتأمّل هدوء البحر في سماءٍ صفتْ كما نتأمّل روحاً في نظراتِ صاحبها. ولكن لم يبقَ أحد ليستعذب جنون البحر في سبتمبر وهدْأته، اذ يروق للناس أن يغادروا الشواطىء في نهاية أغسطس ليذهبوا إلى الأرياف. ولكنّني أحسد من يقيمون في الأرياف الواقعة قرب البحر، تلك القائمة فوق تروفيل مثلاً، وأرغب في أن أزورهم غالباً إنْ كنتُ أعرفهم. أحسد من يستطيع أن يُمضي فصل الخريف في النورماندي، هذا إن عرف أن يفكّر ويشعر. أراضيه ليست باردة كثيراً حتّى في الشتاء، وهي أخضر الأراضي ويغطّيها العشب الأخضر الطبيعيّ دون أدنى ثغرة، وحتّى خلف التلال المصطفّة بانتظام لطيف يسمّى المنحدرات المشجّرة. وغالباً في مسطبة ما حيث يدخّن الشاي الأشقر فوق طاولتها، يمكننا أن

(1) أقام بروست في كابورغ خلال شهر سبتمبر 1891. وبول غرونبام بالير (1871–1969) هو رفيق بروست في ثانوية كونِدورسيه ثمّ في المدرسة الحرة للعلوم السياسية. كتب بعض المسرحيات واستلم عدّة مناصب إداريّة عليا.

نشاهد «الشمس تشعّ فوق البحر»[1] وعدداً من الزوارق الشراعية تأتي، «جميع هذه الحركات للذين يرحلون، وللذين ما زالت لديهم طاقة على الرغبة والإرادة». في القلب الهادىء والعذب لجميع هذه الأشياء النباتية، نستطيع النظر إلى هدوء البحار، أو إلى البحر العاتي، وإلى الأمواج المكلّلة بكتل الزبَد وبالنوارس التي تنطلق كالأسود وتحرِّك تحت الريح لبداتها البيضاء. ولكنّ القمر الذي لا يراه الجميع أثناء النهار، والذي مع ذلك يستمرّ في تشويشهم بنظرته المغنطيسية، يروّضهم ويوقف فجأةً هجومهم ويهيّجهم ثانيةً قبل أن يتقهقروا، وذلك دون شكّ ليسحر المتَع الملتاعة لجمهرة الكواكب التي هي أميرات السماوات البحرية السّريات. من يعيش في النورماندي يرى كلّ ذلك؛ وإن حدث ونزل خلال النهار إلى الشاطىء، فسيسمعه وكأنّه يناغم زفراته مع اندفاعات الروح البشرية، يسمع البحر الذي يماثل في العالم المخلوق صنيع الموسيقى، فلأنّه لا يرينا شيئاً ماديّاً ولا يتّبع في طريقته المعتادة الوصفَ، يبدو وكأنّه الأغنية الرتيبة التي تصدر عن إرادة طموحة ومتهاوية. في المساء يصعد إلى الريف، ومن بساتينه يعود يمايز بين السماء والبحر اللّذين ينصهران أحدهما في الآخر. ولكن يبدو له أنّ هذا الخط اللّامع يفصل بينهما: فوقه لابدّ أنّها السماء. هي السماء فعلاً، هذا النطاق الخفيف من الزرقة الشاحبة، ولا يبلّل البحر إلّا أهدابها الذهبية. في المساء، عندما يلمع القمر يغدق لوناً أبيض على الأبخرة الكثيفة التي تصعد من المراعي، وبسحرٍ أنيقٍ يبدو الحقل وكأنّه بحيرة أو مرج مكسوّ بالثلج. وهكذا فإنّ هذا الريف، وهو أغنى ريف في فرنسا، بمزارعه الوافرة التي لا تنضب، ببقره، بقشدته،

(1) إشارة إلى قصيدة لبودلير في ديوانه «أزهار الشر» عنوانها «ترنيمة الخريف»، والاستشهاد الوارد في الجملة التالية مأخوذ من كتابه «قصائد نثرية صغيرة».

بتفّاحه الذي يصبح خمر «السيدر cidre»، بأعشابه الكثيفة، لا يدعو إلّا الى تناول الطعام والنوم؛ هذا الريف، عندما يحلّ اللّيل، يتزيّن بالأسرار الدفينة وينافس بالأسى سهولَ البحر الرحبة. أخيراً هناك بعض البيوت المشتهاة، بعضها يحاصرها البحر وتحتمي منه، وهناك بيوت أخرى معلَّقة فوق الجرف وبين الغابات أو أنّها تنتشر متباعدة فوق الهضاب المعشوشبة. لا أتكلّم عن البيوت «الشرقية» أو «الفارسية» التي تثير الإعجاب في طهران أكثر، بل أتكلّم بخاصّة عن البيوت النورماندية التي نصْفُها في الحقيقة نورماندي ونصفها إنكليزي، التي شبكةُ دعامات سقوفها الوافرة تضاعِف نقاطَ الرؤية وتمنح الظلال أشكالاً معقّدة، والتي نوافذها العريضة تغدق مزيداً من العذوبة والحميمية، والتي من أحواض نباتها المبنيّة داخل جدران المنازل وتحت النوافذ تنداح الأزهار دون انتهاءٍ على الأدراج الخارجية والقاعات المزجّجة. إلى هناك دخلتُ عندما حلّ اللّيل، وفي الداخل سأقرأ من جديدٍ ديوان «فعل الندامة» *Confiteor* لرفيق دراستي الشاعر غابرييل تراريو...

ذكرى (1891)

جاء أحد الخدم، بطقمه البنّيّ ذي الأزرار الذهبيّة، وفتح لي وأدخلني فوراً إلى صالون صغير مكسوّ بقماش الكريتون المزخرف بأشجار الصنوبر، ومطلّ على البحر. وعندما دخلت نهض شابّ جميل الطلعة فعلاً وسلّم عليّ ببرودة ثمّ جلس فوق كنبته وتابع قراءة جريدته وتدخين غليونه. بقيتُ واقفاً مرتبكاً بعض الشيء ومنشغلاً بالاستقبال المعدّ لي. هل كنتُ على صواب، بعد سنوات خلت، عندما عدت إلى هذا البيت الذي ربّما نسيني منذ زمن طويل؟ في هذا البيت المضياف قديماً حيث عشت ساعات رائعة تعدّ من أسعد ساعات حياتي؟

لم يتغيّر أيّ شيء في هذا البيت، لا البستان المحيط به الذي يحتوي على فيراندا في أحد أطرافه، ولا البيت نفسه ببرجيه القرميديّين الأحمرين المعشّقين بالخزف المتعدّد الألوان، ولا الردهة المستطيلة الطويلة التي كنّا نلجأ إليها أيّام المطر، هذا مروراً بأثاث الصالون الصغير الذي أُدخلتُ إليه منذ قليل.

بعد لحظات، دخل عجوز ذو لحية بيضاء؛ كان قصير القامة ومحنيّ الظهر جدّاً. وكانت نظرته الحائرة تضفي على تعابيره قدراً كبيراً من اللّامبالاة. عرفت فوراً أنّه السيّد دو N. أمّا هو فلم يعرفني. فكرّرت اسمي عدّة مرّات: لم يكن لاسمي أيّ ذكرى لديه. فازداد اضطرابي. تفرّس كلّ منّا في الآخر دون أن نعرف ماذا سيقول أحدنا للآخر. وحاولت عبثاً أن أدلّه على الطريق: لقد نسيني تماماً. كنت غريباً بالنسبة له. كدنا نتوادع عندما فُتح الباب فجأةً وقالت لي فتاة جميلة تناهز العاشرة أو الثانية عشرة، بصوتها الناعم الرخيم: «أختي أوديت

علمتْ بوصولك. أتريد أن تراها؟ هذا سيسعدها كثيراً!» تبعتُها ونزلنا إلى البستان. وهناك فعلاً وجدتُ أوديت مستلقية على كرسيّ هزّاز ومتدثّرة بغطاء اسكوتلندي كبير. وكدتُ لا أعرفها، لأنّها تغيّرت كثيراً. لقد استطالت قسماتُها وبدت عيناها المزنّرتان بدوائر داكنة غائرتين في وجهها الشاحب. هي التي كانت جميلة جدّاً فقدت كلّ روعتها. وبحركة شبه مُرغمة طلبت منّي أن أجلس قربها. كنّا وحدنا: «لابدّ أنّك فوجئت جدّاً من رؤيتي في هذه الحالة، قالت لي بعد بضع لحظات. ذلك أنّني بعد مرضي الرهيب صرتُ مجبرة، كما ترى، على أن أبقى مستلقية دون حراك. أعيش من العواطف والآلام. أغرق عيني في هذا البحر الأزرق الذي يوحي لي اتساعُه اللّامحدود ظاهرياً سحراً كبيراً. والأمواج التي تأتي لتنكسر فوق الحصى هي كالأفكار الحزينة التي تخترق ذهني وهي كالآمال التي ينبغي لي التخفّف منها. أقرأ، لا بل أقرأ كثيراً. موسيقى الأبيات الشعرية تثير فيّ أجمل الذكريات وتجعل كياني كلّه يرتعش. كم هذا لطيف منك أنّك لم تنسني بعد سنوات طويلة وأتيت لزيارتي! هذا يسعدني. أشعر الآن بأنّني أحسن حالاً. أستطيع أن أقول ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ بما أنّنا كنّا معاً صديقين ودودين. أتتذكّر جولات لعبة كرة المضرب التي كنّا نلعبها هنا في هذا المكان بالذات؟ كنتُ رشيقة عندئذ؛ كنت مبتهجة. اليوم لا أستطيع أن أكون رشيقة، ولا أستطيع أن أكون مبتهجة. عندما أرى البحر ينحسر وينأى، أفكّر كثيراً في نزهاتنا وحدنا أثناء الجزْر البحريّ. أحتفظ عنها بذكرى لطيفة تكفي لإسعادي، لو لم أكن شديدة الأنانية والخبث. ولكن كما ترى يصعب عليّ أن أذعن، ورغماً عنّي أتمرّد على قدَري. أشعر بالملل وحدي، فأنا وحيدة منذ أن توفّيت أمّي. أبي أكثر مرضاً وهرَماً من أن يقدر أن يهتمّ بي. وأخي يشعر بلوعة

كبرى، بسبب امرأة خدعته بقماءة. ومنذ ذلك الحين لا يهتم إلّا بنفسه، ولا شيء يفلح في مؤاساته أو تسليته. وأختي الصغيرة ما زالت طفلة ويجب تركُها تعيش بسعادة، ما استطاعت».

وبينما كانت تكلّمني أشرق نظرها، وزال اللّون الشاحب لسحنتها واستعادت تعابيرها اللّطيفة الماضية. وعادت جميلة؛ يا الهي ما أجملها! فوددتُ أن أضمها إليّ، ووددتُ أن أقول لها إنّني أحبّها... بقينا مدّة طويلة معاً. ثمّ نُقلتُ إلى البيت لأنّ المساء بدأ يبرد. ثمّ كان عليّ أن أستأذنها بالانصراف. كانت الدموع تخنقني. اجتزت تلك الردهة الطويلة وذلك البستان الرائع الذي لن تقرع خطواتي حصى ممرّاته من جديدٍ أبداً، للأسف. نزلتُ باتّجاه الشاطىء: وكان مقفراً. تجولّتُ ساهماً ومفكّراً في أوديت، تجولتُ على طول البحر الذي كان ينحسر بلا مبالاة وبهدوء. وكانت الشمس قد اختفت خلف الأفق، ولكنّها كانت لا تزال تذرو السماء بأشعّتها الأرجوانية.

بيير دو توش[1]

---

(1) من أسماء بروست المستعارة، ذيّل بها بعض نصوص شبابه.

بورتريت السيّدة...[1] (1892)

تجمع مونيك بين السِّحر الايطالي وغموض نساء بلدان الشمال: فلها شعرهنّ الأشقر وعيونهنّ الفاتحة كصفاء السماء فوق إحدى البحيرات، ولها قاماتهنّ العالية. ولكنْ تشيع منها رخاوة مدروسة، وكأنّها ملوّحة بشمس توسكانا التي تُغرق أبصار النساء وتمطّ أذرعهنّ وترفع أطراف شفاههنّ وتضبط إيقاع مشيتهنّ بحيث تجعل مفاتنهنّ لدنة بشكل إلهيّ. ولن نبالغ إن قلنا إنّ سحر المناخين والشعبَين قد صار كتلة واحدة ليخلق روعة نيكول، فهي الغانية الكاملة الأوصاف، إذا عنينا بذلك فقط أنّ فنّ الإغراء عندها بلغ درجة فريدة فعلاً وأنّه عائد إلى مواهب وإلى دراسة في آن، وأنّه طبيعيّ ومرهف معاً. فأصغر زهرة تأخذ بين ثدييها وفي يدها فتنة مثيرة، وكذلك الحال بالنسبة للإطراء العاديّ الذي يخرج من فمها، وبالنسبة لأيّ فعل مألوف، كتقديم ذراعها للذهاب إلى غرفة المائدة، فيكون أشبه بانفعال فنّيٍ، عندما هي تقوم به. جميع الأشياء تغدو رقيقة حولها وتتناغم بروعة وتختزل بطيّات فستانها. ولكنّ نيكول لا تعبأ بالمتعة الفنّية التي تمنحها، والنظرة التي تَعِد بغبطة ما بعدها غبطة لا تكاد هي تعلم على أيّ رجل جعلتْها تقع، وقد لا يكون ثمّة سبب آخر لهذا إلّا كون وقوع النظرة كان جميلاً. لا تكترث إلّا بالخير، فهي تحبّه كفايةً كي تمارسه، وحبّها له أكبر من أن يسمح لها بالاكتفاء بأن تقوم به، ودون أن تحاول فهم ما تعمل عندما تمارسه. لا نستطيع القول إنّها ابتليت بتصنّع المروءة،

(1) لقد اكتشف فيليب كولب أنّ هذه السيدة هي مدام غيوم بير (1874– 1949) التي ألّفت بعض الروايات وكتبت كتباً حول فنّ التصوير الايطالي، ومقالات حول الشاعر لوكونت دو ليل الذي كان عاشقاً لها. وبروست كان يعرفها ويدعى إلى مائدتها.

فذوقها الصادق يمنعها من ذلك. لنقل إنّها بارعة في ذلك وبطريقة رائعة لا تضع في رأسها وفي فمها إلّا الكلمات اللّطيفة للفَضائل. وسحرها يزداد بذلك حلاوة فكأنّه تعطّر بأريج مقدّس. من النادر أن يتمكّن المرء من الاعجاب بها يحبّ. ومن الرائع بمكان أن يقبض المرء في الجمال اللّدن والباذخ لنيكول، وفي «وفرتها الحليبية» (Lactea ubertas)[1]، وفي كلّ شخصها العذب، على مفاتن قلب كبير وخصوبته.

(1) عبارة استعملها الكاتب اللاتيني كانتيليانوس ووصف فيها أسلوب المؤرّخ تيتوس ليفوس الذي لم يكن في نظره يهتمّ بالحقيقة نفسها قدر اهتمامه بالأسلوب المنمّق.

قبل اللّيل (1893)

«مع أنّني مازلتُ قوية إلى حدّ معقول، تَعرف (قالت لي بمزيد من الرقّة الحميمية، كما نلطّف بنبرة صوتنا الأشياء الأكثر قسوة التي يجب أن نقولها لأولئك الذين نحبّهم)، تعرف أنّ من الممكن أن أموت من يوم لآخر، كما يمكن أن أعيش أيضاً أشهراً عديدة. ولا أستطيع أن أتأخّر أكثر في الكشف لك عن شيء يُثقل ضميري؛ وستدرك بعد ذلك كم شقّ عليّ أن أقوله لك». بؤبؤا عينيها، كزهرتين زرقاوين رمزيّتين، تغيّر لونهما كما لو أنّهما بدآ يذويان. وظنّنت أنّها موشكة على البكاء، ولكن لم يحصل ذلك. «إنّني حزينة جدّاً لأنّني أحطّم طوعاً أملي بأن يقدّرني بعد موتي صديقي المفضَّل، ولأنّني ألطّخ وأدمّر الذكرى التي احتفظ فيها عنّي، والتي بها أتصوّر في الغالب حياتي- كي أراها أكثر بهاءً وأكثر تناغماً. ولكنّ الحرص على القيام بترتيب جماليّ (وابتسمتْ عندما لفظت هذه الصفة مع المبالغة التهكّمية التي اعتادت أن ترافق بها الكلمات التي هي من هذه الشاكلة، والنادرة في حديثها) لا يستطيع أن يقمع الحاجة الماسّة إلى الحقيقة التي تجبرني على الكلام. اسمع يا ليسلي، يجب أن أقول لك ذلك. ولكن قبل أيّ شيء، أعطني معطفي. أشعر ببرد خفيف في هذه الفيراندا، وقد منعني الطبيب من أن أنهض دون طائل». أعطيتُها معطفها. كانت الشمس قد غابت، والبحر الذي كنّا نلمحه عبر أشجار التفّاح كان خبّازيّ اللّون. وكانت السحب الصغيرة الزرقاء والزهرية، الخفيفة كتيجان ذابلة والمُصرّة كالحسرات، كانت تطفو في الأفق. وكان ثمة صفّ حزين من أشجار الحور يغوص في الظلمة، وهاماتها مستسلمة كنجميّات الكنائس؛ وكانت أشعّة الشمس الأخيرة، دون أن تلمس

جذوعها، تلوّن أغصانها وتعلّق حبالَ الزينة الضوئية بشبائك الظلّ هذه. وكان النسيم يمزج الروائح الثلاث، روائح البحر وأوراق الشجر النديّة وأريج الحليب[1]. لم يسبق للريف النورماندي أن لطّف كآبةَ المساء بأكثرَ لذّةً، ولكنّني كنت أتذوّقها بصعوبة لأنّ الكلمات المبهمة لصديقتي قد شوّشتني.

«لقد أحببتكَ كثيراً ولكنّني لم أمنحك إلّا القليل، يا صديقي العزيز.

– سامحيني يا فرانسواز، صحتُ محاولاً أن أمزح كي أهدئّها، سامحيني إذا قطعتُ، دون مراعاةٍ لقواعد هذا الجنس الأدبيّ، اعترافاً كان عليّ الاستماع إليه بصمت، ولكنّه في الحقيقة محزن وقاتل. كيف أعطيتِني قليلاً؟ لقد أعطيتِني أكثر ممّا طلبتُ بكثير في الحقيقة ممّا تقتضيه الحواسّ في عاطفتنا. خارقةً كمريم العذراء، رقيقة كمربّية، أحببتكِ بشغفٍ وأنتِ هدهدتِني. أحببتكِ بعاطفة لا يشوب نباهتها المحسوسة أيُّ أمل بمتعة جسدية. وبالمقابل ألم تردّي لي ذلك بصداقة لا مثيل لها، وبفناجين شاي لذيذة، وبحديث مزيَّن بشكل طبيعيّ، وبكمّ من باقات الورد الطازج؟ أنت وحدكِ بيديكِ الأموميّتين اللّافتتين، عرفتِ كيف ترطّبين جبيني الملتهب بالحمّى، وتسكبين العسل بين شفتيّ الذابلتين وتخلقين في حياتي صوراً نبيلة. يا صديقتي العزيزة، لا أريد أن أطّلع على هذا الاعتراف غير المعقول. أعطيني يديكِ لألثمهما: الطقس بارد؛ لندخل و نتكلّم عن شيء آخر»[2].

---

(1) استخدم بروست الصورة ذاتها في نصّه المعنوَن «بَحريّة»، ضمن «الحسرات– أحلام يقظة بلون الزمان» (انظر أعلاه).

(2) هذه الفقرة كلّها استعادها بروست في «موت بلداسار سيلفاند فيكونت سيلفانيا»، النصّ الأوّل من هذا الكتاب، ما يعني أنّه أفاد في بعض المواضع من نصوصه الصغيرة التي لم ينشرها فيه.

- ليسلي، عليكَ مع ذلك أن تصغي إليّ يا صغيري المسكين. هذا ضروريّ. هل تساءلتَ أنّني، مع كوني أرملة منذ سنّ العشرين، بقيتُ دائماً....

- أنا متأكّد من ذلك، مع أنّ هذا ليس من شأني. أنتِ مخلوق فائق بحيث تتّسم أيّة هفوة تصدر عنك بطابع النبل والجمال اللّذين تفتقر إليهما أفعال الآخرين الحسنة. لقد تصرّفتِ كما فكّرتِ بأنّه حسن وأنا متأكد من أنّكِ لم تفعلي إلّا أشياء لطيفة وطاهرة.

- طاهرة!... يا ليسلي، إن ثقتكَ تؤسيني كما لو كانت ملامةً مسبقة. اسمع... لا أعرف كيف أقول لك هذا. الأمر أفدح ممّا لو أنّني عشقتكَ مثلاً، أو حتّى عشقتُ شخصاً آخر فعلاً.

امتقع وجهي وشحب كقطعة نسيج، أو كوجهها هي، للأسف، وبارتعاش لم تلاحظه حاولتُ أن أضحك وكرّرتُ دون أن أعرف ما أقول:

- «عجباً! عجباً! أيّ رجل آخر، ما أغرب شأنكِ!

- قلتُ إنّ الأمر أفدح، يا ليسلي، لقد نسيتُ، مع أنّ النهار واضح. في المساء نرى الأشياء بمزيد من الهدوء، ولكنّني لا أرى هذا بجلاء، تخيّم على حياتي ظلال كثيفة. ولكنّني إن اعتقدتُ في أعماق ضميري أنّ ذلك ليس بالأفدح، فلماذا أخجل من قوله لك؟

- هل كان أفدح؟»

لم أكن أفهم، ولكنّني وقعتُ فريسةَ اضطراب مريع عجزتُ عن إخفائه، وبدأتُ أرتجف خوفاً كأنّ كابوساً داهمني. فلم أجرؤ على النظر إلى الممرّ الذي خيّمت عليه الظلمة والهلع آنئذٍ والذي انفغر أمام أعيننا. وصوتها الذي كان قد هبط متكسّراً من الحزن العميق المتعاظم ارتفع

فجأةً، وقالت لي بنبرة طبيعية وبجرْس واضح:

- «أتَذْكر، عندما فوجئتْ صديقتي المسكينة دوروتي مع مغنّية نسيتُ اسمها (سررتُ لتشعّب كلامها هذا، الذي أملتُ أن يُبعدنا نهائياً عن قصة أحزانها)، أتذْكر كيف رحتَ يومها تفسّر لي أنّنا لا يجوز لنا احتقارها؟ أتذكّر قولكَ: «كيف نسخط من العادات التي كان سقراط (والكلام يدور حول رجال، ولكنّ الأمر واحد) الذي شرب سمّ الشوكران بدلاً من ارتكاب مخالفة تتجاوز الشرائع، كان قد وافق بابتهاج على سريانها لدى أصدقائه المفضّلين؟ إذا كان الحبّ الخصب الهادف إلى استمرار النسل، وهو حبّ نبيل يشبه الواجب العائليّ والاجتماعيّ والانسانيّ، هو أفضل من الحبّ الشهوانيّ البحت، ففي المقابل لا توجد هرميّة في أنواع الحبّ العقيم؛ وليس أقلّ أخلاقيّةً، أو بالأحرى ليس أكثر لا أخلاقيّةً أن تستمتع امرأة مع امرأة أخرى بدلاً من أن تستمتع مع مخلوق من الجنس الآخر. الداعي إلى هذا الحبّ يكمن في تبدّل عصبيّ حصريّ وبذا فهو لا يتضمّن أيّ محتوى أخلاقيّ. وإنّ كون الأشياء موصوفة بأنّها حمراء يراها معظم الناس حمراء، لا يخوّل لنا القول إنّ الذين يرونها بنفسجية يخطئون». وأضفتَ يومَها قائلاً: «إذا هذّبنا المتعة بحيث تصبح جماليّة، وبما أنّ أجساد النساء والرجال تستطيع أن تكون جميلة على السواء، فلا نرى لماذا المرأة الفنّانة حقّاً لا تعشق امرأة أخرى. في الطبائع الفنّية الحقّة، تتعدّل الجاذبية أو النفور الجسديّان عن طريق تأمّل الجمال. معظم الناس يتقزّزون من قنديل البحر. أمّا ميشيليه Michelet الذي كان يحبّ ألوانها الناعمة فكان يجمعها بسرور. ورغم نفوري من المحارات، فبعد أن تأمّلتُ

(قلتَ لي أيضاً) أسفارها في البحر الذي صار طعمها يذكّرني به الآن، فإنّها صارت- لا سيّما عندما أكون بعيداً عن البحر- ألذّ طعام عندي. وهكذا فالمؤهّلات الفيزيائية، كمتعة اللّمس، والنهم، ومتعة الحواسّ، تعود لتنزرع حيث يتجذّر حبّنا للجمال».
ألا تظنّ أنّ هذه الحجج يمكن أن تساعد المرأة المؤهلة جسدياً لهذا النوع من الحبّ على أن تعي فضولها المبهم، إذا استطاعت بعض التماثيل الصغيرة التي نحتها رودان مثلاً[1]، أن تنتصر من الناحية الفنّية وتتغلّب لديها على التقزّز، فتبرّئها في نظرها وتهدّىء ضميرها، وأنّ ذلك يمكن أن يشكّل كارثة كبرى؟»

لا أعرف كيف أنّني لم أصرخ آنئذٍ: ففي ومضة مباغتة وفي آنٍ معاً ظهر لي معنى اعترافها ذاك وشعوري بمسؤوليّتي المرعبة. ولكنّني تركتُ نفسي تنقاد كالعميان لهذه الإشارات الرفيعة التي، عندما نكون انحدرنا أدنى من أنفسنا وصرنا عاجزين عن الاضطلاع بدورنا في الحياة، تضع بشكل مفاجىء قناعَنا وتمثّل دورنا بوضوحٍ، قلتُ بهدوء:

«أؤكدّ أنّني لا أشعر بأيّ تبكيت ضمير، لأنّني لا أشعر بأيّ احتقار أو إشفاق على هؤلاء النساء».

فقالت لي بغموض وامتنان لطيف ولا متناهٍ: «أنت رجل نبيل». وأضافت بصوت خافت وسريع يشوبه شيء من التبرّم، كما يحتقر الناس التفاصيل المبتذلة مع أنّهم يذكرونها في حديثهم: «أنت تَعْلم، على الرغم ممّا تُظهرون كلّكم من تكتّم، أدركتُ تماماً أنّ الرصاصة التي لم يتمّ اخراجها والتي تسبّبت بعلّتي تتلهّفون لتعرفوا من الذي أطلقها

---

(1) يُحتمل أن يشير بروست هنا إلى منحوتة رودان المسمّاة «نساء مدانات»، التي نحتها على الأرجح عام 1885، والموجودة في متحف رودان بباريس.

عليّ. فبما أن الطبيب يبدو واثقاً الآن من الأمر، وبما أنّك قد تستريب ببعض الأبرياء، فها أنا أعترف. أفضّل أن أقول لك الحقيقة». وأضافت بالرقّة ذاتها التي بدأت بها تتكلّم عن موتها القريب، وذلك لتخّفف وطأة الأشياء التي ستقولها بكيفيّة قولها لها: «في لحظة من لحظات اليأس التي تعتري جميع من يعيشون، أنا من... جرحتُ نفسي». كدتُ أتقدّم لأقبّلها ولكنّني حاولتُ أن أتمالك نفسي، فدنوت منها، وشعرت بقوّة عاتية تخنق صوتي، فتبلّلت عيناي بالدموع ورحت أشهق. فمسحتْ أوّلاً دموعي وضحكت قليلاً وواستني برقّة ما بعدها رقة كما كانت تفعل في الماضي. ولكنّها في قرارة نفسها شعرت بإشفاق على ذاتها وعليّ وانفجرت في بكاء مرّ. بكينا معاً. يا له من تناغم حزين وكبير. وصار لإشفاقينا المتمازجين في تلك اللحظة سبب يتجاوزنا وبكيناه طوعاً وبحريّة. حاولتُ أن أشرب الدموع التي تبلّلت بها يداها. ولكنّ غيرها كان ينهمر ويجعلها ترتعش. وأصبحت يدها باردة كالجليد، وكانت أشبه بتلك الأوراق الصفراء التي تسقط في بركة النوافير. وما شعرنا قطّ بمثل ذلك الأسى ولا بمثل ذلك الارتياح.

ذكرى (1893)

إلى السيّد وينتر[1]

أمضيتُ السنة الفائتة بعض الوقت في الفندق الكبير في T، الواقع في الطرف الأقصى من الشاطىء والمطلّ على البحر. الروائح الكريهة المنبعثة من المطابخ والمياه القذرة، والتفاهة الباذخة للنجود التي غيّرت لوحدها العري الداكن للجدران وكمّلت هذا التزيين الذي يشعرك بأنّك في منفى، قد دفعت روحي إلى انقباض شبه مرَضيّ، إلى أن جاء يوم اشتدّ فيه الهواء وأوشك أن يتحوّل إلى عاصفة، وكنت وقتها أجتاز الممشى عائداً إلى غرفتي، فاستوقفتني رائحة زكيّة ونادرة. استحال عليّ تبيّنها، ولكنّها كانت رائحة مبهمة وغنيّة لزهور اقتضى قطفها من حقول جُرّدت بكاملها، حقول فلورانسية المنشأ، على ما أعتقد، لتقطير بضع قطرات من هذا العطر. فأثارتني هذه الرائحة أيّما اثارة بحيث بقيتُ ردحاً من الوقت دون أن أنصرف؛ ومن باب موارب مكّن هذه الرائحة من الانبعاث، اكتشفتُ غرفة ما كدت ألمحها حتّى شعرت بانطباع ينمّ عن وجود شخصية رائعة فيها. فوسْط هذا الفندق المنفّر كيف أوتي لأحد النزلاء أن يقدّس معبداً بهذا النقاء، ويهذّب حواشي صالون نسائيّ بهذه الروعة ويعزل برجاً عاجياً مضمّخاً بالعطور؟ وسمعت وقع أقدام في الممشى لم أعاينها، وتولّد عندي إجلال شبه دينيّ، فأحجمتُ عن فتح الباب أكثر من ذلك. وفجأةً فتحت الريح العاتية إحدى نوافذ الممشى التي لم تغلق بإحكام، وانداحت هبّة ملحيّة ذات أمواج واسعة وسريعة نثرت عطر الزهور المركَّز، دون أن تبدّده. لن أنسى ما حييت ذلك

(1) هو مكسيمليان وينتر، زميل بروست في المدرسة.

الإلحاح الناعم للرائحة البدئية التي أسبغت عطرها على أريج هذه الريح الرحبة. أغلق مجرى الهواء البابَ فنزلتُ. وشاءت الصدفة أن تعاكسني إلى أعلى حدّ، فعندما استعلمتُ من مدير الفندق عن نزلاء الغرفة 47 (لأنّ هذه الخلائق المصطفاة كان لها رقم كالخلائق الأخرى) لم أُعطَ إلّا أسماء كانت بالطبع أسماء مزيّفة. مرّة واحدة سمعتُ صوتاً مرتجفاً وثخيناً وجهوراً ورقيقاً لأحدهم ينادي «فيليت» ([مقابل الاسم الفرنسيّ] «فيوليه»)، وصوتاً ساحراً لامرأة تجيب «كلارنس». وعلى الرغم من هذين الاسمين الإنكليزيين، بدا أن صاحبَي هذين الصوتين، على حدّ ما قاله خدّام الفندق، يتكلّمان الفرنسية دون لكنة أجنبية. كانا يتناولان وجبات طعامهما في غرفة خاصّة فما كان في مقدوري أن أراهما. ومرّة واحدة فقط لمحتُ امرأة طويلة القامة لم تلتفت نحوي، وكانت متلفّعة بمعطف صوفيّ طويل ذي لون بنّي وزهريّ، لمحتُها تتوارى في خطوط هاربة ذات رونق لافت بحيث بقيت المرأة تمثّل لي أحد أرفع تجلّيّات الجمال. وبعد بضعة أيّام، بينما كنت أصعد درجاً بعيداً عن ذلك الممشى المبهم، شممتُ رائحة زكيّة خفيفة لا بدّ أنّها الرائحة ذاتها التي شممتها في المرّة الأولى. توجّهتُ نحو الممشى وعندما وصلتُ تقريباً مقابل الغرفة انداحت عليّ عطور قويّة ترنّ كأصوات آلة الأرغُن راحت تتعالى وتعظُم دقيقة بعد دقيقة(١). كانت الغرفة دون أثاث وظهرت مثغورة بالباب الكبير المفتوح. وكانت حوالى عشرين قارورة صغيرة مكسورة ملقاة على الأرض فتلوّثت أرضية الغرفة ببعض البقع الرطبة. «لقد غادروا هذا الصباح، قال لي الخادم الذي كان يمسح الغرفة. ولكي لا يتمكّن أحد

(1) في رواية «عدّ عكسي» (1884) لويسمانس، يخترع البطل آلة أرغن تُستبدل فيها العلامات الموسيقية بقطرات من الكحول التي تبعث روائح عطرة. وهنا إحالة على هذه الرواية ربّما.

من استعمال هذه العطور، لأنّهم لم يستطيعوا وضعها في حقائبهم لكثرة الأشياء التي اشتروها من هنا وملأوها بها، كسروا هذه القوارير. يا له من صنيعٍ نظيف!». فهرعتُ إلى قارورة بقيت فيها بعض القطرات الأخيرة. ودونَ علم ذينك المسافرين الغامضَين، ما زالت تعطّر غرفتي.

في حياتي التافهة أسَرَتني ذات يوم العطورُ التي كان يفوح بها العالم السخيف حتّى ذلك الحين. كانت تباشير الحبّ المحيِّرة. وجاء هذا الحبّ، بوروده ونایاته، ونحتَ وسَنْدَسَ وأغلق وعطّر كلّ شيء حوله. وامتزج حتّى بأنفاس الفكر الرحبة التي فتحت آفاقه اللّامحدودة، دون أن تُضعفه. ولكنّني ماذا عرفتُ عنه؟ هل ألقيت ضوءاً على سرّه؟ ألم ألْقَ منه شيئاً آخر غير عطر كآبته وغير رائحة عطوره؟ ثمّ ولّى الحبّ وولّت عطور قواريره المهشّمة التي فاحت بقوّة أكثر نقاء. ثمة قطرة متعَبة ما زالت تُفعِم حياتي.

اللّامبالي (1896)[1]

«نشفى كما نتعزّى؛ لا يوجد في القلب ما يدفعنا دائماً إلى البكاء، ودائماً إلى الحبّ.»[2]

1

وصلت مادلين دو غوفر لتوّها إلى مقصورة السيّدة لورانس في المسرح. فسألها الجنرال دو بويفر: «من هما رفيقاكِ هذا المساء؟ أهما أفرانش ولوبريه؟...

- أفرانش، نعم، أجابت السيّدة لورانس، أمّا لوبريه فلم أجرؤ».

وأضافت وهي تشير إلى مادلين: «إنّها شديدة العسر، وكأنّ الأمر هو إرغامها تقريباً على تعرّف جديد...».

فاحتجّت مادلين، كانت قد التقت السيّد لوبريه مرّات عديدة ووجدتْه ظريفاً؛ وحتّى أنّه ذات يوم أتى وتناول طعام الغداء عندها.

«على أيّة حال، اختتمت السيّدة لورانس، لا تندمي، هو لطيف جدّاً، ولكن دون أيّ شيء خارق، وهو خصوصاً لا يناسب المرأة الأكثر تدليلاً في باريس. أفهم جيّداً أنّ علاقاتكِ الحميمة تجعلك عسيرة».

لوبريه لطيف جدّاً ولكنّه عديم الشأن، هذا كان رأي الجميع. وشعرت مادلين أنّ ذلك لم يكن رأيها تماماً وتعجّبت لذلك؛ ولكن

(1) عام 1978 وجد فيليب كولب Philip Kolb نصّاً كان بروست قد كتبه في صيف 1893 وأضاعه لاحقاً، بعد أن استفاد من بعض معطياته في رواية «حبّ لسوان» (الجزء الأوّل من سباعيّته). ويبدو أنّ بروست قد اقتبس من الرسّام فاتو عنوان قصّته هذه.

(2) لا برويير (الطبائع، الفصل الرابع، «في القلب»).

بما أنّ غياب لوبريه لم يكن يحدث عندها خيبة كبرى، لم يصل تعاطفه معها لدرجة إقلاقها. في القاعة التفتت الرؤوس نحوها؛ جاء بعض الأصدقاء يسلّمون عليها ويمتدحونها. لم يكن هذا جديداً بالنسبة لها، بيد أنّها ببصيرة الفارس المبهمة أثناء السباق، أو ببصيرة ممثّل مسرحيّ أثناء العرض، شعرت ذلك المساء أنّها تنتصر بسهولة وبتفوّق كبيرين أكثر من العادة. كانت دون حليّ، وكان صدارها المصنوع من التول الأصفر مليئاً بأزهار القتلايا، وكانت قد غرزت في شعرها الأسود أيضاً بضعاً من أزهار القتلايا وتتدلّى من برج الظلال هذا خيوط شاحبة من النور. ولأنّها كانت نضرة نضارة أزهارها وساهمة مثلها، كانت، بالسحر البولينيزيّ لتسريحتها، تذكّر بماهينو Mahenu بطلة بيير لوتي وريناالدو هان[1]. وسرعان ما اختلطت اللّامبالاة الهانئة التي كانت بها تتملّى فتنتها ذلك المساء في العيون المبهورة التي كانت تعكسها بوفاء مؤكّد، اختلطت بأسفها من أنّ لوبريه لم يرها بهذا الجمال.

«كم أنّها تحبّ الأزهار!»، صاحت السيّدة لورانس بعد أن نظرت إلى صدارها.

نعم كانت تحبّها، أي أنّها بكلّ بساطة كانت تعلم كم أنّها جميلة وكم أنّها تجعل المرأة جميلة. كانت تحبّ جمالها وحبورها وحزنها أيضاً، ولكن من الخارج، كما لو كانت وجهاً من وجوه جمال هذه الأزهار. وعندما كانت تبدأ بالذبول، كانت ترميها كما ترمي فستاناً ذاوياً. وأثناء الاستراحة الأولى، فجأةً لمحت مادلين السيّدَ لوبريه في القاعة، وبعد بضع لحظات لمحت الجنرال دو بويفر ودوق ألبريوفر والدوقة زوجته

(1) راجع أوبرا جزيرة الحلم المقتبسة من رواية بيير لوتي: زواج لوتي (1880)، والتي عُرِضت في 1898 بموسيقى وألحان لرينالدو هان، كان في الحقيقة قد وضعها لها قبل ذلك بسنوات. ويبدو أنّ بروست أضاف اسم هذا الأخير لاحقاً، إذ لم يكن يعرفه يوم كتب نصّه هذا.

ينصرفون تاركين إيّاها وحدها مع السيّدة لورانس. ورأت مادلين لوبريه يطلب أن يُفتح له باب المقصورة، فقالت:

«هل تسمح لي السيّدة لورانس بأن أطلب من السيّد لوبريه بأن ينتقل إلى هنا لأنّه وحده في القاعة؟».

- طبعاً، لا سيّما وأنّني سأضطرّ إلى المغادرة بعد قليل، يا عزيزتي؛ تذكّري أنّك أذنتِ لي. روبير متوعّك. هل تريدين أن أطلب منه ذلك؟

- كلاّ، أفضّل أن أفعل ذلك بنفسي».

طيلة الاستراحة، تركت مادلين لوبريه يتكلّم مع السيّدة لورانس. وانحنت فوق طرف المقصورة ونظرت إلى الصالة، وتظاهرت بأنّها لا تهتمّ بهما، متيقّنة من أنّها ستستمتع بحضوره عندما ستكون وحدها معه.

وخرجت السيّدة لورانس لترتدي معطفها.

«أدعوك لأن تبقى معي خلال هذا الفصل، قالت مادلين بلطف لا مبالٍ.

- ما ألطفكِ يا سيّدتي، ولكنّني لا أستطيع، أنا مضطرّ إلى المغادرة.

- ولكنّني سأبقى وحدي»، قالت مادلين بنبرة إلحاح؛ ثمّ فجأةً، ولرغبتها غير الإرادية تقريباً في تطبيق وصايا الغنج التي تختزلها العبارة الشهيرة التالية: «إن كنتُ لا أحبّكَ، فأنت تحبّني»[1]، أردفتْ:

«معك الحقّ تماماً، إنْ كان أحدهم ينتظركَ فلا تتأخّرْ عليه. ووداعاً يا سيّد».

وحاولت بابتسامة حانية أن تعوّض عن القسوة التي بدت متضمَّنة

---

(1) مقتبس من أوبرا كارمن لبيزيه.

في هذا السماح بالانصراف. ولكنّ هذه القسوة لم تكن إلّا نابعة من الرغبة العارمة في إبقائه، ومن مرارة خيبتها. لو وُجّهتْ هذه النصيحة بالمغادرة لأيّ شخص آخر لبدتْ أمراً لطيفاً.

وعادت السيّدة لورانس:

«حسناً، إنّه مُغادِر؛ سأبقى معك كي لا تبقي وحدكِ. هل تواعتُما برقّة؟

- تواعدنا؟

- أعتقد أنّه في نهاية هذا الأسبوع سيقوم برحلة طويلة إلى إيطاليا واليونان وآسيا الصغرى».

الطفل الذي منذ ولادته يتنفّس دون أن ينتبه للأمر، لا يعرف كم أنّ الهواء الذي يملأ صدره برفق ولا يلاحظ هو ذلك، ضروريّ لحياته. وإذا اشتدّت الحمّى عليه وتشنّج، وأوشك على الاختناق، ففي الجهد الجهيد لجسمه، يقاوم ليبقى على قيد الحياة، ولن يستعيد طمأنينته المفقودة إلّا بالهواء الذي لم يعلم أنّها ملازمة له.

وعلى النحو ذاته، عندما علمت مادلين برحيل لوبريه هذا الذي لم تفكّر فيه، أدركت فقط- بعد أن شعرت بها انسلخ منها- ما اختلج فيها. ونظرت إلى السيّدة لورانس بلوعة مُكرِبة ورقيقة في آنٍ دون أن تلومها، كما أنّ المريض المسكين، الذي بعينيه الدامعتين يبتسم للأشخاص الذين يَرْثون لحاله دون التمكّن من مساعدته، لا يلوم الربو الذي يخنقه. وفجأةً نهضت.

«تعالي يا صديقتي العزيزة، لا أريدك أن تعودي متأخّرة إلى بيتك».

وأثناء ارتدائها معطفها، لمحت لوبريه، ولقلقها من أن تتركه يذهب دون أن تودّعه، نزلت بسرعة.

«أنا آسفة، لا سيّما إذا كان مزمعاً على سفر، من أن يفترض أنّه لا يعجبني.

- ولكنّه لم يقل هذا أبداً، أجابت السيّدة لورانس.

- بلى، بما أنّك تفترضين ذلك، فإنّه يفترضه أيضاً.

- بل على العكس.

- صدّقي ما قلتُه لكِ»، أردفت مادلين بلهجة قاسية. وعندما لحقتا بلويريه:

«يا سيّد لوبريه، أنتظرك على العشاء يوم الخميس الساعة الثامنة.

- لست حرّاً يوم الخميس، يا سيّدتي.

- إذن، يوم الجمعة؟

- كذلك لست حرّاً.

- السبت؟

- السبت، نعم.

- ولكنّكِ يا عزيزتي تنسين أنّك ستتناولين العشاء عند الأميرة دافرانش يوم السبت.

- فليكنْ ما يكون، سأعتذر.

- أوه! يا سيّدتي، لا تفعلي ذلك، قال لوبريه.

- سأفعله، صاحت مادلين بحنق: لن أذهب بأيّ شكل من الأشكال إلى منزل فاني Fanny. لم أنوِ قطّ الذهاب».

بعد أن عادت مادلين إلى منزلها وبدأت تخلع ثيابها بهدوء، تذكّرت أحداث تلك الأمسية. وعندما وصلت إلى الوقت الذي رفض فيه لوبريه أن يبقى معها أثناء الفصل الأخير من الأوبرا، احمرّت من الإذلال الذي تعرّضت له. أدنى حدود الغنج والكرامة الأصيلة تقضيان بعد ذلك أن

تتّخذ موقفاً بارداً جدّاً منه. وبدل ذلك، قامت بدعوته ثلاث مرّات في درج الأوبرا! فتقزّزت من نفسها، ورفعت رأسها ونظرت إلى شكلها في المرآة، ورأت أنّها جميلة جدّاً، ولم يعد عندها أدنى شكّ في أنّه سيحبّها. ولقلقها وأسفها لأنّه سيسافر قريباً، راحت تتخيّل نوع عاطفته التي أراد إخفاءها عنها، لسببٍ لا تعلمه. ربّما سيبوح بذلك بعد قليل، بإرسال رسالة لها، وربّما سيرجئ موعد سفره ويذهب معها... ماذا؟ مُحالٌ أن يفعل ذلك. ولكنّها تخيّلت وجهه الجميل العاشق يقترب من وجهها، ويطلب منها الصفح. «أيها الخبيث!» قالت؛ ولكنّه ربّما لم يكن يحبّها بعد؛ وقد يسافر قبل أن يقع في غرامها... وبباعث من أسفها، حنت رأسها، ووقع بصرها الملتاع على الأزهار الذابلة الذي كانت تزيّن صدارها، كأنّ عيونها الذاوية بدت مستعدّة للبكاء. وارتبطت فكرة وجازة الحلم اللّاواعي الذي راودها، ووجازة هنائها إنْ هو تحقّق، ارتبطت عندها بحزن هذه الأزهار التي قبل أن تموت كانت تذوي لصقَ ذلك القلب الذي أحسّته يخفق لحبّه الأوّل، ولإذلاله الأوّل، ولحزنه الأوّل.

في اليوم التالي رفضت أيّة زهرة في غرفتها المليئة عادةً والمتهلّلة بالورود الندية.

وعندما دخلت السيّدة لورانس إلى غرفتها، وقفت أمام المزهريّات التي كانت فيها أزهار القتلايا تواصل موتها وتتجرّد من جمالها بالنسبة لعينين لم يغْزُهما الحبّ.

«كيف هذا، يا عزيزتي، وأنت مولعة بالأزهار؟

- يبدو لي أنّني منذ اليوم أحبّها»، كادت مادلين أن تجيب، ولكنّها أحجمتْ متبرّمة من واجب التفسير، لشعورها بأنّ هناك أموراً لا يستطيع المرء أن يُفهمها لأناس بعيدين عنها.

فاكتفت فقط بابتسامة لطيفة إزاء هذه الملامة. وشعرت بأنّ الجميع يجهلون هذه الحياة الجديدة، وربّما يجهلها لوبريه نفسه، وهذا ما سبّب لها متعة زهو نادرة ومؤسية في آن. جيء لها ببريدها؛ وعندما لم تجد رسالة من لوبريه، ساورتها خيبةُ أمل. وعندما قدّرت المسافة القائمة بين عبثية الخيبة- علماً بأنّه لم يكن يوجد أدنى غذاء للأمل- وبين الشدّة الحقيقية والمؤلمة لهذه الخيبة، أدركت أنّها باتت بعيدة جدّاً عن واقع الحياة والأحداث. لقد بدأت غلالة الأكاذيب تغشو عينيها لمدّة لا تستطيع أن تقدّرها. ولن ترى الأشياء من بعد إلّا عبر هذه الغلالة، وبالأخص، ربّما، الأشياء التي كان بودّها أن تعرفها وتعيشها بأكبر قدر من الحقيقيّة وبأكبر قدر من الشبَه مع عيش دوبريه لها، ألا وهي تلك المتعلّقة به.

ومع ذلك بقي عندها أمل يقول إنّه يكذب وإنّ لا مبالاته ظاهرية فقط: كانت تعلم من إجماع الآراء أنّها إحدى فاتنات باريس، وأنّ ذكاءها ونباهتها وأناقتها ومكانتها الكبرى في المجتمع المخمليّ تضيف وزناً إلى جمالها. وفي الجانب الآخر، كان لوبريه يُعتبر رجلاً ذكيّاً وفنّاناً ورقيق الحواشي ودمثاً، ولكنّ الإقبال عليه كان خفيفاً، علاوة على أنّه لم يحقّق نجاحات تُذكر مع النساء؛ لذا فإنّ اهتمامها به لا بدّ أن يكون بدا له شيئاً يصعب تصيقه ولم يكن هو يأمله. كانت تندهش وتأمل...

2

مع أنّ مادلين للحظة ما قد ربطت جميع شؤونها وجميع مشاعر حياتها بلوبريه، فإنّها رأت- هذا عزّزته آراء الجميع- أنّ لوبريه ليس رجلاً كريماً، ولكنّه كان أدنى قيمة من أولئك الرجال الذين يشار إليهم بالبنان

ممّن كانوا يزيّنون حياتها أيّما زينة ويواسونها منذ ترمّلها على أثر وفاة المركيز دو غوفر قبل أربع سنوات ويزورونها عدّة مرّات في اليوم.

وكانت تشعر تماماً أنّ ميلها الغريب نحوه واعتبارها إيّاه شخصاً فريداً لا يجعلانه مع ذلك في مرتبة الآخرين. وأسباب حبّها إيّاه كانت تخصّها هي، وإنْ كانت تخصّه قليلاً فليس ذلك لتفوّقه الفكريّ ولا لتفوّقه الجسمانيّ. لقد أحبّته بالضبط لأنّها استحسنت وجهه وابتسامته ومشيته، ولم تحبّه لأنّ وجهه وابتسامته ومشيته كانت أجمل من تلك التي للآخرين. فقد كانت تعرف رجالاً أكثر وسامة وأكثر رونقاً، وكانت تعي ذلك.

ولذا، ففي يوم السبت، الساعة الثامنة والربع، عندما وصل لوبريه إلى صالون مادلين، واجه- دون أن يدري- الصديقة الأكثر شغفاً والخصم الأكثر نباهةً في آن. وإذا كان جمالها مسلَّحاً للتغلب عليه، فلم يكن عقلها قاصراً عن اختبار معدنه؛ لقد كانت مستعدّة لتقطف- كزهرة مُرّة- الاستمتاع برؤيته ضحلاً ويثير الضحك بعدم اتّساقه مع الحبّ الذي خصّته به. لم يكن ذلك احتراساً! كانت تشعر فعلاً بأنّها ستسقط دائماً في الشبكة المسحورة وبأنّ الثغرات التي يكون عقلها فتحَها فيها أثناء وجود لوبريه عندها، سيرتقها خيالُها الخصب، ما إن يغادر.

وبالفعل هدأت بغتة عندما دخل؛ وعندما مدَّت يدها ليلثمها، بدا وكأنّها انتزعت منه كلّ سلطة. فلم يعد المستبدَّ الأوحد والمطلق الذي تراه في أحلامها، كان مجردَ زائر لطيف. تكلّما؛ وعندها سقطت جميع احتراساتها، ففي طيبته الرقيقة وفي رجحان عقله الجريء وجدت أسباباً إنْ كانت لا تبرّر حبّها قطعاً، فإنّها تشرحه ولو قليلاً، وتُظهر أنّ ثمة شيئاً عنده يتناسب في الواقع مع حبّها له ويجعل جذوره تنمو وتنتعش.

ولاحظت أنّه أجمل بكثير ممّا اعتقدت، وأنّ له وجهاً رقيقاً ونبيلاً يشبه وجه لويس الثالث عشر.

وارتبطت عندئذ جميع ذكريات الفنّ العائدة لتلك الحقبة، بفكرة حبّها، ومنحته كياناً جديداً بأن أدخلَتْه في منظومة أذواقها الفنية. فأحضرت من أمستردام صورة فوتوغرافية عن بورتريه الفتى الذي يُشبهه.

وبعد بضعة أيّام التقته من جديد. كانت أمّه مريضة جدّاً فأخّر سفره. وقالت له إنّها علّقت في غرفة الطعام صورة تذكّرها به، فأبدى تأثّره، ولكنّه بقي بارداً. فتألّمت كثيراً، ولكنّها واست نفسها قائلة إنّه أدرك اهتمامها على الأقلّ، وإن لم يتهلّل لذلك. أن تحبّ رجلاً فظّاً لم يشعر بشيء يكون أكثر إيلاماً من ذلك. وبعد أن أخذت عليه في دخيلتها لا مبالاته، ودّت أن ترى من جديدٍ الرجال المغرمين بها والذين كانت معهم لا مبالية وغنِجة، كي تمارس عليهم الإشفاق الذكيّ والرقيق اللّذين كان بودّها أن تحصل عليهما منه. ولكنّها عندما التقتهم وجدت فيهم كلّهم نقيصة شنيعة وهي أنّهم ليسوا هو، فأسخطتها رؤيتهم. فكتبت له، وبقي أربعة أيّام دون أن يجيب، ثمّ وصلت رسالة كان أيّ إنسان آخر سيجدها أنّها لطيفة، ولكنّها دفعتها لليأس. لقد كتب:

«تحسّنت صحّة أمّي، سأسافر بعد ثلاثة أسابيع، وحتّى هذا التاريخ، سأكون مشغولاً جدّاً، ولكنّني سأحاول أن آتي ذات مرّة لأقدم لكِ آيات احترامي».

هل غارت من كلّ «ما يشغل حياته» ويحول دون أن تخترقها هي؟ هل حزنت لأنّه سيسافر ولأنّه سيأتي مرّة واحدة قبل سفره؟ أو الأنكى من ذلك أنّها حزنت لأنّه لم يشعر بحاجة إلى المجيء ليراها عشر مرّات في اليوم قبل سفره؟ لم تستطع أن تبقى في منزلها، فوضعت قبّعتها بسرعة

وخرجت راجلة تذرع الشوارع المؤدّية إلى بيته، يحدوها الأمل اللّامعقول أنّه- وبمعجزة اعتمدت عليها- سيتبدّى لها في منعطف إحدى الساحات مشرقاً بالحنان، وأنّه بنظرة واحدة سيشرح لها كلّ شيء. وفجأةً لمحته يمشي ويتحدّث بسرور مع عدد من أصدقائه. عندئذ خجلت ظنّاً منها أنّه سيدرك أنّها تبحث عنه، فأسرعت ودخلت أحد الدكاكين. في الأيّام التالية كفّت عن البحث عنه، وتجنّبت الأماكن التي يمكن أن تلاقيه فيها، محتفظةً إزاءه بهذا الغنج الأخير، وإزاء ذاتها بردّ فعل كرامتها الأخير هذا.

وذات صباح جلست وحدها في التويلري على الرصيف المحاذي للماء. وتركت حزنها يطفو، وينتشر ويمرح بحريّة كبرى في رحاب الأفق الفسيح، ويقطف الأزهار، ويثب مع الخِطمى البرية والنوافير والأعمدة، ويعدو مطارداً التنانين التي تغادر حيّ أورسي، ويهيم على وجهه فوق نهر السين ويحلّق مع السنونو في السماء الشاحبة. وفجأةً لمحت الكلب الأبيض الكبير للوبريه الذي كان هو يتركه يخرج وحده في كلّ صباح. وكان ذلك في اليوم الخامس بعد تلقّيها الرسالة التي أكربتها، وكانت قد مزحت معه حول الكلب وقالت له إنّه سيُسرق. عرفها الكلب واقترب. وحاجتها المجنونة إلى رؤية لوبريه التي استبعدتها عنها منذ خمسة أيّام تقمّصتها برمّتها. فأمسكت بالكلب بين ذراعيها وبنشيجها المتقطّع راحت تقبّله طويلاً بكلّ ما أوتيت من قوّة، ثمّ حلّت باقة البنفسج التي كانت تضعها فوق صدرها وربطتها بطوقه وتركته يذهب.

ولكنّ روحها ارتاحت بهذه الأزمة وتلطّفت وأحسّت بأنّها أحسن حالاً وشعرت بالغمّة تتلاشى شيئاً فشيئاً، وبشيء من الحبور والأمل يعاودانها مع الرفاه الجسديّ، ورأت أنّها متعلّقة بالحياة وبالهناء. كان لوبيه يتأهّب للسفر بعد سبعة عشر يوماً، فكتبت له ليأتي ويتناول عندها

طعام العشاء في اليوم التالي، واعتذرت من تأخّرها في الردّ على رسالته؛ وأمضت فترة بعد الظهر هانئة البال. في المساء، تناولت العشاء في المدينة؛ لا بدّ أنه كان هناك رجال كثيرون، فنّانون ورياضيّون، يعرفون لوبريه. أرادت أن تعرف إن كانت له عشيقة أو ارتباط معيّن يمنعه من الاقتراب منها ويشرح سلوكه الغريب. ستتعذّب كثيراً إن عرفت ذلك، ولكنّها على الأقلّ ستكون على بيّنة ويمكنها أن تأمل انتصار جمالها مع الوقت. خرجت من بيتها مصمّمة على الاستفسار عنه فوراً، ثمّ خافت، فلم تجرؤ. وأخيراً، ما دفعها إلى ذلك فور وصولها لم يكن الرغبة في معرفة الحقيقة بل بالأحرى الحاجة إلى التكلّم عنه أمام الآخرين، وذلك الرونق الحزين لذكره عبثاً في كلّ مكان تكون فيه بدونه. فبعد العشاء قالت لرجلين كانا قربها يتجاذبان أطراف الحديث:

«قولا لي، هل تعرفان لوبريه جيّداً؟

– نلتقي به كلّ يوم منذ مدّة طويلة، ولكنّ علاقتنا به خفيفة.

– هل هو رجل ظريف؟

– هو رجل ظريف.

– ربّما يمكنكما أن تقولا لي... ولا تظنّا أنّكما مجبران على مزيد من اللّطافة، فالقضية في نظري على جانب كبير من الأهمية فعلاً. ثمة فتاة أُحبّها من كلّ قلبي وتشعر بشيء من الميل نحوه. هل هو رجل يمكن التزوّج منه دون خشية؟».

بقي الرجلان في حيرة للحظة:

– «كلّا هذا لا يمكن».

وبشجاعة كبيرة تابعت مادلين لتنتهي من المسألة بمزيد من السرعة:

«هل له علاقة قديمة؟

- كلّا، ولكنّ هذا غير ممكن.
- قولا لي ماذا، أرجوكما.
- كلّا.
- ولكنْ في نهاية الأمر الأفضل إخبارها، إذ يمكنها أن تفترض وجود أشياء أشنع أو أشياء مضحكة.
- إليك ما يلي، وأظنّ أنّنا لن نُلحق بدوبريه أيّ أذى إن قلناه؛ أوّلاً، عليكِ ألّا تكرّريه، علماً بأنّ باريس كلّها تعلم ذلك. وفي ما يتعلّق بالزواج، لوبريه هو على درجة كافية من النزاهة والرقة كي لا يفكّر في ذلك. إنّه شابّ ظريف، ولكنْ عنده عيب واحد. إنّه يحبّ النساء السافلات اللّواتي يُلتقطن في الوحل ويُجنّ بحبهنّ؛ وأحياناً يُمضي لياليه في الضاحية والشوارع الخارجية، وقد يعرّض نفسه للقتل ذات يوم، ولا يجنّ بحبهنّ فقط، بل لا يحبّ سواهنّ. امرأة المجتمع المخمليّ الأكثر فتنة أو الفتاة المثالية، لا يعبأ بها إطلاقاً. لا بل لا يستطيع أن يهتمّ بها. فمتعُه واهتماماته وحياته هي في مكان آخر. أولئك الذين لا يعرفونه جيّداً قالوا في الماضي، نظراً لطبيعته الرائعة، إنّ حبّاً كبيراً سينتشله من ذلك. ولكنّ هذا يقتضي أن يكون قادراً على اختباره، والحال أنّه عاجز عن ذلك. كان أبوه هكذا، وإذا لم يحدث الأمر نفسه مع أولاده، فلأنّه لن يُرزقهم».

في الساعة الثامنة مساء من اليوم التالي، جاء أحد الخدم وأعلم مادلين بأنّ السيّد لوبريه في الصالون. دخلت؛ كانت النوافذ مغلقة والمصابيح لم تُشعل بعد، وكان ينتظرها في الشرفة. وليس بعيداً عنهما، كانت بعض البيوت المحاطة بالحدائق تستكين تحت ضوء المساء العليل، ضوئه القصيّ والشرقي والدينيّ كما لو كان ضوء مدينة القدس. وكان النور

الشحيح والمدغدِغ يعطي كلَّ شيء قيمة جديدة تماماً، قيمة تكاد تكون مؤثّرة وفعّالة. عربة مضاءة وسط الشارع المظلم كانت تأخذ بمجامع القلوب، كذلك الجذع الداكن والمعتّم لشجرة كستناء منتصبة بأغصانها الوارفة ليس بعيداً، وكانت لا تزال تنسكب عليها أشعّة الضوء الأخيرة. وفي آخر الشارع مال الغروب ببهاءٍ كقوس نصر مزدان بقطع الذهب واليخضور السماويّين. خلف النافذة المجاورة كانت بعض الرؤوس تقرأ بنبرة احتفالية مألوفة. عندما اقتربت مادلين من لوبريه شعرت بالحلاوة المطَمْئنة لجميع هذه الأشياء تضني وتُليّن وتفتح قلبها، وتمالكت نفسها كي لا تبكي.

وهو الذي كان أكثر وسامة، في ذلك المساء، وأكثر ظرفاً، بادرها بتلطّفات رقيقة لم يُظهرها حتّى ذلك الحين. ثمّ تحدّثا بجديّة، وأدركت للمرّة الأولى رقيّ ذكائه كلّه. ففي المجتمع المخمليّ، إذا كان لا يثير الإعجاب، فلأنّ الحقائق التي يبحث عنها تقيم فوق الأفق المرئيّ للأشخاص النبهاء ولأنّ حقائق العقول المتفوّقة تُعتبر أخطاء مضحكة عند الناس العاديّين. ثمّ إنّ طيبته كانت تسبغ أحياناً على تلك الحقائق شعراً رائقاً كالشمس التي تلوّن القمم العالية ببهاء. وكان شديد اللّطف معها، وأظهر امتنانه لطيبتها، وعندما شعرت بأنّها لم تحبّه في الماضي بهذا القدْر وبأنّها تخلّت عن احتمال أن ترى حبّها له مشاطَراً من قبله، تراءى لها فجأةً وبحبورٍ أملٌ بصداقةٍ ودودةٍ صرفٍ ستراه بفضلها كلّ يوم؛ وفاتحته بذلك على نحو ذكيّ وبهيج. ولكنّه قال لها إنّه كثير المشاغل ولا يستطيع أن يمتلك أكثر من يوم واحد كلّ خمسة عشر يوماً. وقالت له أشياء كافية كي يفهم أنّها تحبّه، إن شاء أن يفهم. وهو، على خجله الكبير، لو كان عنده أيّ ميل نحوها، لقال كلمات ولو زهيدة تنمّ عن صداقته. كان

نظرها المريض يحملق فيه لدرجة أنّها كانت ستتبيّن هذه الكلمات فوراً وتشبع منها بنهم. كان بودّها أن توقف لوبريه الذي استمرّ في الحديث عن وقته الشديد الانشغال وعن حياته المليئة تماماً، ولكنّ نظرها انصبّ في قلب خصمها حتّى قبل أن يتمكّن هو من أن يغرق في الأفق اللّامحدود للسماء الرحبة أمامها، وشعرت بلا جدوى الكلمات. فسكتت ثمّ قالت:

«نعم، أفهم، إنّك مشغول جدّاً».

وفي نهاية السهرة، وهو يغادرها قال لها:

«أيمكنني أن آتي لتوديعك؟».

فأجابته برفق:

«كلّا يا صديقي، إنّني مشغولة بعض الشيء، وأظنّ أنّه من الأفضل أن نبقى عند هذا الحدّ».

انتظرت كلمة؛ ولم يقلها، فكرّرت له:

«الوداع!»

ثمّ انتظرت رسالة، عبثاً، عندئذ كتبت له أنّها تفضّل الصراحة وأنّها ربّما جعلتْه يعتقد أنّها معجبة به، وأنّ ذلك ليس صحيحاً، وأنّها تفضّل ألّا تراه بالوتيرة التي كانت قد عرضتها عليه بلطفٍ أخرق.

فأجابها بأنّه لم يفكّر قطّ بأكثر من لطافة كانت مألوفة عندها، وبأنّه لم يقصد أبداً المبالغة في المجيء كثيراً كي لا يزعجها.

عندئذ كتبت له أنّها تحبّه، وأنّها لن تحبّ إلّاه. فأجابها أنّها تمزح.

وكفّت عن الكتابة إليه. ولكنّها لم تكفّ في البداية عن التفكير فيه. ثمّ حدث هذا أيضاً. فبعد ذلك بسنتين، ثقل عليها ترمّلها، فتزوّجت دوق مورتاني الذي كان يتمتّع بالوسامة والنباهة والذي زيّن حياة مادلين بمجد وحنان لم تُظهر أنّها لا تشعر بهما، وعاشت معه أربعين سنة.

نصوص لم ينشرها بروست

[جسم ضامر ومرِن...]

جسم ضامر ومَرن، ذهن رشيق وأنيق، قلب عاطفيّ ولامبالٍ، يفتن ويلفت النظر دون أن يستطيع أن يفي بالغرض. مغنٍّ جميل، وقوّال جميل، ومصارع جميل، ومسايِفٌ جميل، هو أسباسيا الحديثة التي تمنح شتى ضروب التلذّذ وتستطيع أن تمسك بها وتصفها[1]. ولكنّ لا مبالاته تمنعه من أن يضع نفسه مكان الآخرين ومن أن يشعر بوخزات المهاميز الصغيرة التي قد يتخلّص منها إن شعر بأنّه يَجرح بها.

بيد أنّ إغراءات ذهنه الرائع وجسده الساحر وحساسيته الأنيقة اللّاعبة تربطكم به وتعوّض قليلاً عن الجراح الخفيفة التي تتأتّى منه.

رأس مرهف لماجن ولفنّان، رأس مدفوع بغرابة، بشرة جميلة برونزية، حيويّة متهوّرة لطفل غضوب وقويّ الإرادة، صوت مغنٍّ وحساسية ممثّلة مسرح، حلم نزعة عاطفية مفرطة يدور فوق بحيرة من اللّامبالاة، أسنان تضحك وتقهقه تحت عينين تشغران بالملل، قليل من الحيوية يسترعي الانتباه وهو ليس حركة حقيقيّة في خلفيّة من الخمول، حميّة حصان، رخاوة امرأة واحتقار يُبديه شخصٌ لا مبالٍ.

---

(1) في الأسطورة اليونانية، هي امرأة اشتهرت بجمالها وذكائها، عشقها بيريكليس، وحوّلت بيتها إلى ملتقى للكتّاب والمفكرين. وشهّر خصوم بيريكليس بهذه العلاقة.

محادثة

لصديقي أونوريه عينان ساحرتان، وهو يُظهر عقلاً في غاية اللّطف، ولكنّه يبدّد المال الذي يستدينه من المرابين على الحياة الفضائحيّة. وأمس في بيت أمّه بعد العشاء الذي غاب هو عنه، تطرّق الحديث لسلوكه، وعمّه القاضي استلم الحديث أوّلاً وقال:

«يا بيرت Berthe، كلّ شيء له حدّ، ولكن فجور ابنك لا يزال ينتظر أن يوضع له حدّ. عامليه بلا رحمة، هذه نصيحتي، وإلّا فإنّ محكمة الجُنَح ليست ببعيدة. كيف تتركينه يخالط مجتمع أولئك النساء الساقطات ولاعبي القمار ويفسد عقله الزائغ واللّامع الذي منحته إياه الطبيعة؟ هل يليق بشابّ بعمره أن يضع ربطات عنق فاتحة ويشكّ زهوراً في عروته؟ هذا ليس زيّ شابّ يكدح. يعلم الله أنّني أكره الكتّاب وأعتبرهم جميعهم بوهيميّين خطيرين، ولكن بما أنّ ابنك عنده استعداد، كما يقال، للكتابة، بودّي أن أراه يكتب روايات خبيثة (ربّما تستطيعين دفعه إلى الأعمال التاريخية وكتب الاقتصاد السياسيّ، وهي تتماشى مع حياة مرتّبة) بدلاً من أن يعيش حياة كهذه! على الأقلّ لن يعود يظهر دائماً في النزهات وهو يعتلي حصاناً أصيلاً وقد تأنّق أناقة مضحكة».

ولكن قاطعه الرسام الكبير والروائيّ B... الذي استمع إلى هذا الخطاب وعيل صبره، ورفع صوته قائلاً:

«حاشى أن ألومك على كلامك كحامٍ للقوانين. ولهذا عندي إحساس حادّ بشتّى الأمزجة والطبائع عند البشرِ، وبتناسب آرائهم مع طباعهم، ولكنّني إذا قدّرتك كقاضٍ محترس، فكم ينبغي عليّ أن أمتدح أونوريه لأنّه يرسم أمام أعيننا لوحة جدارية متأجّجة وحارّة من حياة الشابّ. ما أجمل

هذه السنوات! ماذا، أيريدون منه أن يفنيها في الكتابة؟ ولكن إذا كان ذا عبقريّة، فأيّ شيء ذي أهميّة يفعله؟ أن يكون وسيماً، أن يتمتّع بها، أن يكون فاتناً، مجنوناً، أن يعيش. فليحاولوا أن يقلّدوا ولو بصورةٍ ناقصةٍ حماسَه، وسيسمّون ذلك عن حقّ رائعة من الروائع. كم أنّ النموذج الأصليّ أجمل وأكثر إثارة للشغف! وليُدخل فيه شيئاً من الاقتصاد السياسيّ، وليتسلَّ، ولكن بتعقّل، ولتقدّرْه عائلته، وليذهبْ لابساً ثياباً سوداء! ترجِموا هذا إلى فنّ أو أدب لتروا ما هي الرتابة المضجرة التي سيعطيها هذا. أليس من اللّائق أن يصرف كلّ ماله كي يلبس بأبّهة ويعتلي الصهوات؟ أوَ ليس من الشائن أن يكون رديء الثياب وبلا صهوات يعتليها؟ وكيف لا يبدّد أمواله، إن كان دون مال؟ ما هو هذا الشباب العاكف على الكتب، هذا الشباب الباهت الذي يجهل العظمة؟، فإنْ أسّس مدرسة فماذا سيصبح الرسّامون والروائيّون بدون أولئك الذين يحبّون شتّى أشكال الحياة وأجملها؟ تتأفّفون من أنّه يعرف أن يميّز السترة من «الجاكيت»، والحصان الكُميت من الفرس الأصيلة، وحجر القمر من حجر عين الشمس أو عين الهرّ؛ ولكنّني أظنّ فقط أنّ عينيه مفتوحتان على العالم. أليس صحيحاً أنّنا إذا ما توقّفنا عن التمييز بين هذه الأشياء، توقّفنا عن الكتابة وعن الرسم؟ صحيح أنّني لا أطلب من ابنكم أن يُقدِم- كي يُذكي ببعض الأحمر سلّم الألوان التي تمثّلها حياته- على القتل، ولكنّ ركوب الخيل والأناقة المجنونة والديون والحيل والقمار والفجور، هذه هي المشاهد الضرورية واللّطيفة لحياته كشابّ، هذه هي الطريقة الأكثر ذكاء وفنّاً التي يمكنه أن يقضيها بها، طالما بقي وسيماً وأحبّه الناس.

- سواء أكانت جيّدة أو سيئة، هي هكذا، قالت أم أونوريه بتنهيدة، وأنا أفضّل الاعتقاد أنّ حياة ابني هي جميلة وليست شنيعة. ولكن إنْ

كان من الأفضل أن نُظهر ذوقاً جيّداً عوضاً عن عقل سليم، وإنْ كان من قبيل روعة الذوق أن يجعل المرء حياته ملوّنة ومتناغمة، أفلا يجب أن نقدّر عالياً طيبة القلب؟ فإن كان يملك شيئاً منها، أفلا ينبغي أن يُشفق عليّ، أنا التي يراها دائماً؟

- لا شكّ أنّه يشفق عليك، صاح B...، لأنّ طبيعته كريمة. ولكنّه يستطيع أن يجدك مثيرة للشفقة إلى حدّ لا يوصف، دون أن يكفّ عن ملاحظة الجمال في الخيول والنساء والثياب الأنيقة وحمّى القمار. أرواحنا مفتوحة على شتّى الانفعالات التي تظلّ متناوئة في الحياة، ولكنّها تتصالح داخلَ أرواحنا في انطباع جماليّ واحد».

هكذا تكلّم هذا الرسّام العجوز الطيّب القلب والعطوف والمفتقر إلى كثير من الفلسفة. فهو الذي يلبس بطريقة متواضعة وبسيطة وتقليدية قد تصوّر كثيراً من الحيوات الباذخة والشغِفة، ولم يقدر أن يرى أنّ جمالها لا يكمن في أولئك الذين يعيشونها دون أن يفهموها بل في الخيال الوافر الذي يتصوّرها. كان يتكلّم بلغة فنّاني عصرنا، وهي لغة تثير القلق من الناحية الأدبية بالذات، إذا رأينا أنّنا ما إن نتخلّص من ابن العائلة الذي يعشق المسرح والذي لا تنبع أشكال الخشونة المنفّرة لديه إلّا من كرمه ونُبله، حتّى يتبدّى لنا- وهُم يهدّدوننا بذلك- ابنُ العائلة نفسه خليعاً يناصر الفنّ والطاعة الذكيّة لقوانين اللّون ولمقتضيات علم الجمال العامّ.

ومع ذلك استمرّوا- كلّ حسب طبعه- إمّا في إبداء آرائهم حول سلوك الشابّ، أو في مواراته والسكوت عنه؛ وغياب أونوريه بالذات عن هذا الاجتماع العائليّ، وبأكثر ممّا كان سيفعل حضوره، أضفى على طبيعته غير اليقينيّة والتي يصعب النظر فيها لمسة لطيفة عند بعضهم، وكريهة عند الآخرين.

مثَل

كان في المرج مكان تنبت فيه شتّى الأزهار بسخاء، بحيث درجت العادة على تسميته بالبستان. وكلّ يوم كان يزداد نضارة في حبور جماله وفي رائحة عطوره الزكيّة. وذات مساء هبّت عاصفة هوجاء فاقتلعت وجرفت جميع الأزهار. ثمّ انهمر مطر مدرار فجمّد التربة الجريحة؛ وكلّ ما كان يحبّه هذا المرج ذهب هباءً واقتُلع من قلبه بالذات. والآن لا فرق عنده إطلاقاً، ولكنّ ذلك البرد الذي لا ينحسر، وذلك الفيضان المجنون مثّلا أقصى حدود الوحشية. بيد أنّ الريح كانت تمسك بقبضات من التراب الخفيف وتذروها أمامه. وسرعان ما تعرّت الطبقة الصلبة، فلم تنل منها الريح، ولكن لم يكن يخترقها الماء، فقام بستان متوهّد بصورة باعثة على الخشية، لم يكن الماء يستطيع الجريان عبرَه فكان يبقى فيه. واستمرّ المطر ينهمر غزيراً، ويغرق بدموعه البستان المخرّب. في الصباح، كان ما زال يسقط، ثمّ توقّف؛ فلم يعد البستان إلّا حقلاً مدمَّراً مملوءاً بالمياه العكرة. ولكن حوالى الساعة الخامسة هدأ كلّ شيء، وشعر البستان أنّ مياهه سكنت وصارت صافية، فغمرته نشوة ما بعدها نشوة. وقَدِم الأصيل السماويّ الورديّ والأزرق، والإلهيّ والعليل، ليستريح في قاع النهر. وما حجبه الماء وما كدّره إطلاقاً، ولكنّه بكلّ ما أوتي من حبّ عمّقَ ربّما نظرته الساهمة والحزينة واستوعب واستوقف وضمّ بحنانٍ جماله المشرق. وصار الذين يحبّون المناظر الرحبة للسّماء يذهبون كثيراً لينظروا إليها في الغدير.

طوبى للقلب الذي طُمست أزهاره على هذا النحو ودُمِّرت، إذا كان، بعدما امتلأ بالدموع، يستطيع هو أيضاً أن يعكس صورة السماء.

نبذة عن المؤلِّف:

مارسيل بروست (1871-1922)، روائيّ وناقد ومترجم فرنسيّ. كان أبوه طبيباً لامعاً انتخب في أكاديمية الطبّ. وكانت أمّه تحنو عليه كثيراً بعدما أصيب بمرض الربو في التاسعة من عمره، وبقيت تهتمّ به حتّى وفاتها عام 1905. درس بروست الحقوق والعلوم السياسيّة. وبدأ ينشر بعض القصص والمقالات في سنّ الحادية والعشرين. وفي عام 1896 نشر مجموعة «المسرّات والأيام». عام 1904 ترجم بروست «توراة أميان» للناقد الإنكليزي في علم الجمال جون راسكين، ثمّ عام 1906 ترجم كتاباً آخر له بعنوان «السمسم والزنبقة». وعكف من عام 1913 وحتّى وفاته على كتابة سباعيّته الشهيرة «البحث عن الزمن المفقود» ونشرها. وكتب كتاباً سجاليّاً في النقد الأدبيّ عنوانه «تصدّياً لسانت بوف» (1907)، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الرسائل المنشورة على انفراد. وفي السباعيّة (أكثر من 7000 صفحة في طبعة لابلياد) حلّل بروست المجتمع المخمليّ الباريسيّ بطبقتيه الارستقراطية المنحسرة والبورجوازية المحمومة، ودرس عبر حوالى 500 شخصية روائية فيها مفعول الزمن الذي يعتبر الألف والياء في هذه الرواية الرائعة الخالدة.

نبذة عن المترجم:

جمال شحيّد (1942)، حاصل على دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة السوربون الجديدة (1974). درّس الفكر الحديث والترجمة في جامعة دمشق، وهو الآن باحث في المعهد الفرنسيّ للشرق الأدنى، وأستاذ النقد الأدبيّ في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق، يبحث في النقد الأدبي ويترجم كتباً أدبية وفكرية. من مؤلفاته «في البنيوية التكوينية» (1982، 2013)، «خطاب الحداثة في الأدب» (2005)، «الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة» (2010). يترجم من العربية إلى الفرنسية وبالعكس، ومن ترجماته «رحلة إلى الشرق» للامارتين (2006)، الجزءان السادس والسابع من سباعيّة بروست (2004، 2005)، «المفكّرون الأحرار في الإسلام» (2008)، «تاريخ الجمال» لجورج فيغاريلو (2011)، جزآن من كتاب «المنهج» لإدغار موران (2012)، و«قاموس العلوم المعرفيّة» (2014). له سبعة وعشرون كتاباً مؤلّفاً ومترجماً.

المسرّات والأيّام - قصص وأشعار

إنّ التحرّك الكبير لمحبّة طافحة قادرة على غسل قلبها كما يغسل المدّ الشاطئ، وعلى تسوية جميع أشكال التفاوت البشريّ الذي يسدّ قلب المجتمع المخمليّ، قد حال دونه ألف سدّ وسد من سدود الأنانيّة والغُنج والطموح. ولم تعد الطيبة تروق لها إلّا كأناقة. صحيح أنّها كانت ما تزال مستعدّة لأن تتصدّق بشيء من مالها وعنائها ووقتها، ولكنّ جزءاً كاملاً من ذاتها بقي محجوزاً، ولم تعد تمتلكه. كانت تقرأ وتحلم صباحاً وهي في سريرها، ولكن بذهنٍ زائف صارَ يتوقّف عند الأشياء من الخارج وينظر في ذاته لا ليعمّقها وإنما ليُعجب بها بتلذّذ ودلال كما لو أنّها كانت أمام مرآة... وتحوّل سِحر الشتاء إلى متعة الشعور بالبرد، وأغلقت بهجةُ الصيد قلبَها على أحزان الخريف. وأحياناً، بينما تمشي وحدها في الغابة، كانت تبغي استعادة المصدر الطبيعيّ للمسرّات الحقيقية. ولكنّها في الأجمات الحالكة، كانت تتّشح بفساتين متلألئة. ومتعة الأناقة كانت تقطع فرحها بأنّها وحدها وبأنّها تحلم.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173137